

رِحْلَةُ بَيْرُتُون

إلى مصر والحجاز

الجزء الأول

تأليف
رقشارد ف. بيرتون

ترجمة وتعليق
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيس هيئة الإذاعة

رئيس التحرير
لمنّى المطيعي
مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني
محسنة عطية

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

PILGRIMAGE TO AL-MADINA AND MECCAH

by

RICHARD F. BURTON

الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---------------------------|--------|
| مقدمة الطبعة العربية | ٧ |
| الفصل الأول | |
| الى الاسكندرية | ١٥ |
| الفصل الثانى | |
| مغادرة الاسكندرية | ٢٩ |
| الفصل الثالث | |
| السفينة النيلية التجارية | ٨٣ |
| الفصل الرابع | |
| الحياة فى الوكالة | ٤٩ |
| الفصل الخامس | |
| شهر رمضان | ٧١ |
| الفصل السادس | |
| المسجد | ٨٥ |
| الفصل السابع | |
| الاستعداد لمغادرة القاهرة | ١٠١ |
| الفصل الثامن | |
| من القاهرة للسويس | ١٢١ |
| | ٥ |

| الموضوع | الصفحة |
|-------------------------------------|--------|
| الفصل التاسع | |
| السويس | ١٣٥ |
| الفصل العاشر | |
| سفينة الحج | ١٥٣ |
| الفصل الحادى عشر | |
| الى ينبع | ١٦٦ |
| الفصل الثانى عشر | |
| التوقف فى ينبع | ١٨٥ |
| الفصل الثالث عشر | |
| من ينبع الى بير عباس | ١٩٦ |
| الفصل الرابع عشر | |
| من بير عباس الى المدينة (المنورة) | ٢١٥ |

مقدمة الطبعة العربية

هذه صفحات مفعمة بالحياة لأحوال مصر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسياسية فى منتصف القرن التاسع عشر ، يزيد من قيمتها أن كاتبها ليس بشخص عادى ، وإنما رحالة عالم طبقت شهرته الآفاق هو الأيرلندى ريتشارد بيرتون ، وسنتناول جهوده بإيجاز فى ثنايا هذه المقدمة .

لقد قام بيرتون برحلته لمصر فى غضون سنة ١٨٥٣ أى فى أواخر عهد عباس باشا الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) ولا يخفى أن مصر كانت يومئذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة فقد فرضت الدول الأوروبية على محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨) القاء سياسة الاحتكار ، وكان لهذا أثره على اقتصاد مصر ، وسائر مظاهر الحياة الاجتماعية فيها . وحتى يكون للمعلومات الموثقة فى هذه المرحلة مذاقها كان لا بد أن نقدم للقارئ جانباً منها فى سياقه التاريخي .

الاحتكار : وهو ببساطة يعنى - من بين ما يعنى - التوجيه الاقتصادي للدولة من حيث العمل على تقليل الواردات وزيادة المصادرات ، وتوجيه الصناعة والزراعة بما يخدم هذه السياسة ، وقد تحالفت الدول

الأوربية - كما هو معروف - مع الدولة العثمانية لاحتباط سياسة محمد على فى هذا المجال ، ورفع القيود عن الواردات الأوربية لمصر ، واضعاف جيش محمد على ، عدته فى التوسع ومحور سياسته التعليمية والاقتصادية ، فعقدت بريطانيا معاهدة (بلطة ليمان) (نسبة لمدينة بهذا الاسم فى تركيا) مع الدولة العثمانية سنة ١٨٣٨ لالغاء الاحتكار التجارى فى مصر ، وبدأ تنفيذ هذه المعاهدة ١٨٣٩ ، ولما رفضها محمد على فرضتها دول أوروبا فى تسوية لندن ١٨٤٠ ، وبدأت المنتجات الأوربية تغزو مصر . هذه حقائق تاريخية معروفة مطروقة ، ولكن بيرتون يذكر لنا أن المسئولين فى مصر كانوا فى بعض المجالات يتحايلون ضد سياسة الغاء الاحتكار هذه ومن ذلك ابتداء نظام (الدور) فى النقل البحرى مما يعطى صاحب السفينة حق فرض الأجرة التى يريد على المسافرين أو البضائع المنقولة ، لأن هذا النظام يعطيه وحده الحق فى أن يكون فى الميناء ، ولا يجوز لأى سفينة أخرى أن تشحن بضائع أو تسمح للركاب بالركوب الا بعد أن يغادر هو الميناء لياتى دور سفينة أخرى تتحكم فى الأخرى (أو تحتكر) عملية الشحن بالسعر الذى تحدده . وكان عدد كبير من أسرة محمد على وحاشيته من ملاك السفن . (معلومة جديدة تهم المهتمين بتاريخ الاحتكار) .

الفلاح : كان من النتائج الجانبية لالغاء سياسة الاحتكار التوسع فى ملكية الأرض الزراعية (ملكية رقبة لا ملكية انتفاع) ، فعرف الفلاح (حقه) فى زراعة ما يشاء ، و (حقه) فى الا يضرب . لكن بيرتون لاحظ أن الفلاح كان يعى حقوقه (بالكلام) ولكن « الخميرة القديمة » - على حد تعبير بيرتون - كانت لاتزال كامنة فى اللاشعور . وفى معرض حديثه عن الرق فى الشرق يقول لنا بيرتون أن الرقيق فى مصر والشرق يعيش حياة أفضل كثيرا من حياة الفلاح المصرى (الحر) .

الرقيق : أكثر محمد على من استقدام الرقيق واستعان بهم فى أمور شتى من بينها الجيش وفشل فى ذلك . ورغم أن الرقيق قد منع رسميا بعد ذلك الا أن بيرتون يحدثنا عن تجار رقيق فى القاهرة وعن صفقات بين جدة والاسكندرية وبين جدة والقاهرة . والطريف أن بيرتون يقول أن أوروبا تضخم هذا الموضوع فالرقيق فى الشرق يحظى بمعاملة كريمة ، لأن الشريعة الاسلامية تحث على ذلك ، ولأن مالك الرقيق أكثر ما يكون حرصا عليه لأنه يعتبره ملكا له ، ويقارن بين حال الرقيق وحال الفلاح المصرى بما ذكرناه آنفا .

التجنيد : يذكر بيرتون أنه « حيثما يتجمع الناس فى المساجد أو المقاهى سارعت الشرطة فغلقت الأبواب وقبضت عنوة على المقادرين بدنيا » فقد عاصر بيرتون أثناء زيارته لمصر نشوب الحرب التركية الروسية (١٨٥٣ - ١٨٥٦) ودخول مصر فيها الى جانب تركيا طبعاً ، فكان اتساع حركة التجنيد ضروريا .

ولاحظ بيرتون أن الشعب المصرى تنادى بحركة « الجهاد » ضد روسيا وكان متحمسا تحمسا حقيقيا .

القضاء : يقول بيرتون انه فى مصر والشرق يفضل كثيرون استخدام « السكين والنبوت » للحصول على حقوقهم للبطء الشديد فى اجراءات التقاضى . وكثرة حيله ومساربه . ولابد من المامة تاريخية توضح لنا ما ذكره بيرتون فى رحلته عن القضاء فى مصر فى هذه الفترة .

ففى سنة ١٨٤٢ أنشأ محمد على هيئة قضائية عرفت « بجمعية الحقانية » لمحاكمة كبار الموظفين ، كما أنشأ « مجلس التجارة » وكان بمثابة محكمة تجارية لفض النزاع بين المصريين والأجانب ، وبين المصريين بعضهم وبعضهم الآخر . وكان فى مجلس التجارة هذا أعضاء من الأجانب . واستمرت المحاكم الشرعية تؤدى عملها فى مجال الأحوال الشخصية ، كما كانت هناك « مجالس الأقاليم » لفض المنازعات المدنية والتجارية . وبعد الغاء سياسة الاحتكار تدفق الأجانب على مصر ، ولم يكن محمد على يسمح الا باستقدام الخبراء فى مجالات بعينها . وقد استند هؤلاء الوافدون على الامتيازات الأجنبية التى كانت تعفيهم من الضرائب وتمنحهم الحق فى أن يحاكموا أمام قنصليات بلادهم ، واعتبر بيرتون هذا تجاوزا للحقوق الطبيعية للدولة المصرية .

ولما كان بيرتون فى مصر (بعد الغاء سياسة الاحتكار) كان عدد الدواوين (الوزارات) قد تقلص ليصبح أربعة فقط هى (الداخلية والحربية والمالية والخارجية) .

القفا Kafa : يقول بيرتون ان المصرى اذا تعامل مع « القواس » أى ضابط الشرطة ، أو دخل مركز الشرطة لأى أمر كان قلابد أن يعطيه المسئول « قفا Kafa » أى يضربه على قفاه حتى قبل أن تثبت عليه التهمة « انك تمر مع المتهمين الآخرين لياخذ كل منهم « قفا » فاذا جاء دورك أخذت مثل الذى أخذوا » و « القفا » خاص بالمصرى دون سواه ، فاذا كنت أجنبيا تهرزوا فى اعطائك « القفا » وأحالوك الى قنصلية بلادك .

وربما كان ما ذكره بيرتون عن « القفا » فى أكثر من فصل من فصول رحلته هو السبب فى حساسية المصريين المعاصرين الشديدة من لمس (مجرد لمس) منطقة « القفا » هذه ، فلمس القفا فى السودان مثلا محبة ودعابة ، والضرب عليه مثل الضرب فى أى موضع آخر .

ويحدثنا بيرتون بأسهاب عن الضرب بالفلكة أو (الفلقة) وكيف أنها من الأمور المعتادة كأحد أساليب العقاب ، ويبدو أن ذلك قد استمر الى وقت متأخر فأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد يحدثنا فى « قصص حياتى » التى صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة المواجهة) أنه حتى العمد كانوا يضربون بالفلكة اذا تأخر فلاحوهم عن الدفع . واذا كان العمد يضربون بالفلكة فبأى شئ يضربون فلاحيههم !!

الحجاب :

كانت المصريات فى عهد محمد على محجبات (نساء المدن على الأقل) وفى أواخر عهد محمد على (بعد الغاء سياسة الاحتكار) تدفق الأجانب على مصر وزاد عددهم تدريجيا ، ومع هذا كانت كل النسوة محجبات حتى عهد عباس الأول بما فى ذلك غير المسلمات لدرجة أن بيرتون يذكر بامتنان كبير أن أحد السوريين المسيحيين فى مصر سمح له بالتطلع لوجه زوجته بغير خمار ، ومع كل هذا فان بيرتون يحدثنا - رغم الحجاب - عن مظاهر الفساد خاصة فى الأعياد ويقول : « ويلاحظ المسافر فى المشرق - بعجب - وجود بعض السيدات ليس لهن من العفة نصيب سوى البرقع » ومعنى هذا أن الحجاب وحده لم يمنع ممارسة الرذيلة ، كما أنه ليس دليلا عليها .

البرم : بضم الباء وفتح الراء هو الشخص الذى تحول للإسلام طمعا فى مكسب مالى أو للقيام بالتجسس . فبعد الغاء سياسة الاحتكار وتدفق الأجانب على مصر ، ادعى عدد منهم الاسلام لا رغبة فيه ولكن لمولج الحياة الاجتماعية لأهل البلاد ، يقول لنا بيرتون انه أراد أن يزور مصر والحجاز باعتباره مسلما أصيلا بالمولد ، لا مسلما متحولا (برم) . وقد انصرف معنى هذه الكلمة الآن لعان كثيرة مختلفة ، لكن ما ذكره لنا بيرتون يمثل جذورها التاريخية .

الفرق بين علماء الأزهر والدراويش : كان من الطبيعى بعد اختلاف محمد على مع الزعامات الشعبية وإبعاد عمر مكرم ، أن يتضاءل دور الأزهر ، ومضت فترة ليست بالقليلة قبل أن يستعيد دوره - وهذا المظهر

التاريخى يفسر لنا الأحوال المتدهورة للأزهر من حيث الامكانيات المادية والآثار المعنوية عندما زاره بيرتون فوجد مكتباته خاوية ورجاله بؤساء ومقرراته هزيلة . وكان من الطبيعى أيضا بعد تدهور أحوال الأزهر - الذى قاد رجاله المقاومة ضد الحملة الفرنسية ، وقاد رجاله حركة تولية محمد على أمر مصر رغم إرادة السلطان - أن تظهر جماعات أو منظمات أخرى لتسد الفراغ الدينى والعلمى ، فحل خريجو المدارس الجديدة وأعضاء البعثات - الى حد ما - محل علماء الأزهر ، وإن لم يكن لهم القاعدة الشعبية العريضة التى كانت لعلماء الأزهر (الزعامات الشعبية) ، كما ازدهرت الطرق الصوفية وأساليب الدروشة لتملأ الفراغ وحازت شعبية كبيرة أكثر من ذى قبل .

ورحالتنا بيرتون يصفق لهذا تصفيقا شديدا قائلا انه لا خطر من هؤلاء فى مقاومة أى غزو أوروبى مرتقب لمصر . وقد اندمج بيرتون عندما كان فى الاسكندرية فى سلك الدروشة والطرق الصوفية ، ويبدو أن حظه كان عاترا اذ وقع على جماعة منهم كانت عوراتهم ظاهرة ويتصرفون بفحش حتى انه قال ان المرء اذا بقى معهم سيجد نفسه « فوق الوتد أو تحت العصا » . والمعنى واضح .

البقشيش : يقول : انها أسوأ كلمة سمعتها عندما قدمت لمصر ، وآخر كلمة سيئة سمعتها عند مغادرة مصر ، ولكنه فوجئ بها فى الحجاز أيضا فزاد كرده .

الموظف الشرقى : فى هذه الفترة وجد بيرتون أن الموظف فى مصر والشرق لا يمكن التعامل معه الا بالتهديد أو الرشوة أو الإلحاح الشديد بكثرة التردد عليه مصحوبا بالمعارف والأصدقاء .

ليس من هدفنا فى هذه المقدمة تقديم عرض لكل ما ورد بها ، لكننى كما ذكرت آنفا أردت ربط بعض ما ذكره بيرتون بالظروف التاريخية حتى يمكن فهمه وتذوقه . وحقيقة الأمر أننا أشرنا مجرد اشارات لبعض ما أورده بيرتون وهو كثير غاية الكثرة ، عميق غاية العمق سواء اتفقت معه أم لا . فمن هو بيرتون هذا ؟ ولد هذا الأيرلندى المخلط سنة ١٨٢١ وتذكر الموسوعة البريطانية أنه من أصول انجليزية وأيرلندية وربما

فرنسية ، وهو أول أوروبى يكتشف بحيرة تنجانيقا ، وقد نشر ٤٣ مجلداً عن رحلاته وترجم الى الانجليزية من العربية والفارسية وغيرها ثلاثين كتاباً بما فيها النص الاصلى لألف ليلة وليلة . اتقن ٢٥ لغة وأربعين لهجة وبرع بالاضافة للانجليزية فى الفرنسية والاطالية واللاتينية واليونانية بالاضافة لباقة من اللغات الشرقية . التحق بجامعة اكسفورد وتركها سنة ١٨٤٢ ليعمل ضابطاً بالجيش البريطانى فى الهند اثناء خوضه الحرب ضد السند (باكستان الآن) . زار مصر وهو فى طريقه للحجاز سنة ١٨٥٣ وفى ١٨٥٤ زار هرر ، وخطط مع ثلاثة ضباط بما فيهم المكتشف الشهير سبيك Speke لكشف منابع النيل بالتوغل فى شرق افريقيا ، وتوغل مع سبيك بالفعل فى شرق افريقيا ١٨٥٧ - ١٨٥٨ ووصلا لبحيرة تنجانيقا ، واندفع سبيك منفردا ليكشف بحيرة فكتوريا كمصب دائم للنيل ، مما أحقق بيرتون . وفى ١٨٦٠ ذهب بيرتون للولايات المتحدة ، وقام بعد ذلك برحلات قصيرة متتالية الى غرب افريقيا ، وكتب عنها خمسة كتب لاقت رواجاً واهتماماً لدى علماء الأنثروبولوجيا . هذا ما يمكن قوله فى هذه العجالة عن هذا الرحالة العظيم الذى نقدم رحلته لمصر فى هذا الجزء ونقدم بقية رحلته لمكة المكرمة والمدينة المنورة فى الجزءين الثانى والثالث . أبقى بعد ذلك شك فى أهميتها ؟ وقد أوتى بيرتون أسلوباً شيقاً لا يخلو من روح الدعاية ، كما أن له براعة فى السرد ذى الطابع الروائى .



والعجيب أن بيرتون يسخر من تقليد بعض النظم الغربية ، ويعتبر أن هذا لا جدوى منه ، وأن الأفضل والأنجح هو استيعاب نظم من تراث الشرق لا بأس من تأثرها بحضارة الغرب ، أما استيراد نظم غربية لشعوب شرقية فهو أمر مضحك ، لذلك فهو يعتقد أن جهود الدولة العثمانية فى الإصلاح بإصدار مجموعة قوانين وتنظيمات مستوحاة من الغرب هى (خط كلخانة) لن يؤتى نتيجة مثمرة . فالشرق يحتاج لحكومة متمدينة قاسية (حازمة) ويضرب مثلاً بقبضة محمد على القوية على الحجاز وكيف أنها قللت كثيراً من اللصوص وقطاع الطرق وفرضت الأمن بعدالة (صارمة) ويسخر فى المقابل من الدولة العثمانية التى كانت تستنزف دماءها وتقدم أموالها كرواتب أو (رشاًوى) لشايخ العرب دون جدوى . قد لا يوافق كثيرون على هذه الاستراتيجية الإصلاحية فى بلاد الشرق (ومصر شرق) لكن المؤكد أن كثيرين يوافقون عليها وينادون بها .

ومما يؤخذ على بيرتون أنه أكثر الحديث عن فـراسـة الدماغ « أو علم الفـراسـة بمعـنى الحكم على أخلاق شخص ما بتأمل ملامحه (عينيـه وشفتيـه ٠٠ الخ) أو تأمل تركيبه البدنى ، وهى نظريات شاعت فى القرن التاسع عشر ، ولم يعد لها أنصار كثيرون الآن ، ولا يميل لها علماء النفس الحديثون .

كما يؤخذ على بيرتون كراهيته الشديدة للهنود ، فقد انتقد أخلاقهم انتقاداً مريراً ، ولا ندرى ماذا يريد بيرتون من الهنود غير كراهيتهم للانجليز الذين يستعمرون بلادهم .

لغة الرحلة :

عرض بيرتون رحلته بأسلوب صعب المرتقى كثير التلايف طويل الجمل ، كما أغرق فى استعمال المصياغات البلاغية والتشبيهات التى استقاها من ثقافات مختلفة اغريقية وأوروبية معاصرة وعربية قديمة ، وعربية حديثة وهندية وأفريقية ، مما يرهق قارئه ، ومترجمه من باب أولى . وسيجد القارئ فى ثنايا هذه الرحلة ما يؤكد ذلك وسيجد فى بعض تعليقاتى ما يبين مدى الجهد والمعاناة والمتعة معا التى لقيتها عند ترجمة هذا النص المهم الذى نقدم للقارئ العربى ترجمته الكاملة للمرة الأولى . وقد أفردت لكل جزء من أجزائه مقدمة أو دراسة مستقلة ، إذ تعرض بيرتون فى الجزء الأول لمصر غالباً ، وتعرض فى الجزء الثانى للمدينة المنورة غالباً ، وتعرض فى الجزء الثالث مكة المكرمة . بالإضافة لاستطرادات مفيدة وشيقة فى كل الأحوال . والله من وراء القصد .

د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصل الاول

الى الاسكندرية

الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية - الهدف الاساسى للرحلة
- عن الربع الخالى - الفروق الفسيولوجية بين سكان شبه جزيرة
العرب - بقايا الوثنيين فى شبه الجزيرة العربية فى القرن ١٩
- الخروج من لندن - سفينة البنغال - مقارنة بين الرجل الشرقى
والرجل الغربى - كيف يشرب الهندى المسلم الماء ؟ - رأس الطين -
الكيف والمزاج عند الشرقيين - شخصية الدرويش - البقشيش -
وصف الاسكندرية - ممارسة الطب - الطرق الصوفية *

عرضت خدماتى على الجمعية الجغرافية الملكية، بلندن فى خريف
سنة ١٨٥٢ ، عن طريق صديقى الصدوق الجنرال الراحل مونتيث
Monteith قاصدا أن أزيل عن الكشوف الحديثة تلك الوصمة التى
لحقت بها متمثلة فى وجود مساحات واسعة بيضاء (لا معلومات عنها)
فى خرائطنا ، لا زلنا نشير لها بالمناطق الشرقية والوسطى من شبه جزيرة
العرب * وقد شرفنى السيد فريدريك مورشيسون Murchison
والكولونيل ب. يورك York والدكتور شو Shaw المفوضون عن
هذه الجمعية الموقرة - بحماسهم المعتاد للكشوف واستعدادهم لشد أثر
المكتشفين - بأن أيدوا بحرارة - فى لقاء شخصى مع رئيس مجلس المديرين
(فى ذلك الوقت) بشركة الهند الشرقية البريطانية المنحلة - طلبى للحصول
على اجازة مدتها ثلاث سنوات فى مهمة خاصة أغادر فيها الهند الى
مسقط * الا أنهم لم يكونوا قادرين على إقناع المراحل جيمس هوج Hogg
رئيس مجلس المدراء آنف الذكر ، الذى رفض التصديق على الطلب لأنه
تذكر المأسى التى لحقت بجنود ورحالة متعددين فى الشرق فى الأعوام
الغابرة ، وتذرع بأن رحلتى المقترحة فى الغاية من الخطورة *
وعلى أية حال ، فقد سمح لى - كتعويض عن خيبة الأمل التى حاقت بى -
باجازة لمدة عام لتابعة دراساتى العربية فى بلاد يتيسر لى فيها تعلمها على
أفضل نحو *

ولم يبق الا أن اثبت - بالتجربة العملية - ان ما كان محفوفا بالمخاطر بالنسبة لغيرى من الرحالة ، آمن بالنسبة لى . فوجدت أن زيارة للحجاز هى بمثابة محك تجريبي ، فالحجاز هو أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية صعوبة وخطورة فى آن واحد ، بالنسبة للأوروبيين الذين يمكنهم دخولها . لقد كنت أنوى - بعد أن حصلت على الإجازة التى خصصت لى كمنحة - أن أذهب الى مسقط ، كنقطة بداية أفضلها ، لأوطن نفسى فيها بهدوء وثقة على اجتياز الصحارى . الا أنني الآن أود أن أبدا بزيارة الأماكن المقدسة للمسلمين أو بلاد الحرمين (الشريفين) التى يدافع عنها المسلمون بحمية ويمنعون غير المسلمين من دخولها ، وانى متعجل لهذه الزيارة وفى عز الصيف بعد أن أدت أقامتى لأربع سنين فى أوروبا الى ثقلت كثير من معارفى عن الشرق من ذاكرتى . وبعد أن مررت بمحنة مصر Ordeal of Egypt (كانت مصر بالنسبة لى عذابا) فهى بلد تتسم الشرطة فيه بالتطفل كالشرطة فى روما وميلان (١) .

وعلى أية حال ، فلأن الجمعية الجغرافية الملكية قد زودتنى - بسخاء - بما يتيح لى السفر ، ولأننى سئمت « التقدم » و « الحصار » فى أوروبا ، ولنهمى لأن أرى بعينى ما قنع الآخرون بسماعه بآذانهم ، وهو الحياة الداخلية (الحقيقية) للمسلمين فى بلادهم الأصلية (٢) ، ولرغبتي العارمة فى أن أبحث الخطى لهذه البقاع الغامضة التى لم يقم رحالة مجاز (٣) فى إجازة) حتى الآن بوصفها وقياسها ورسمها وتصويرها ، فقد عزممت على تقمص شخصيتى القديمة كدرويش فارسى ، وأن أحاول .

لقد كان الهدف الأول الذى راودنى هو عبور الجانب غير المعروف من شبه الجزيرة العربية فى خط مباشر من المدينة (المنورة) الى مسقط ، أو أن أعبرها قطريا بميل من مكة (المكرمة) الى المكلا Makalla على ساحل المحيط الهندى . أى نحس عائد تنفيذ خططى ؟ سيكتشف القارئ ذلك بين ثنايا هذين الجزئين . أما أهدافى الثانوية فكانت متعددة . فقد

(١) يتحدث بيرتون عن الشرطة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد تطورت شعارات الشرطة المصرية بعد ذلك تطورا كبيرا وأصبح شعارها الآن (الشرطة فى خدمة الشعب) . (المترجم) .

(٢) فى الأصل : بلادهم الحقيقية realty وفضلنا ما أوردناه فى المتن لقربه من المعنى المقصود . (المترجم) .

(٣) بيرتون شغوف بالمباهاة فليس هو أول من زار الحجاز ، فقد زارها قبله مارتيما ، وجوزيف بتس وعلى بك العباسى وبوركهارت (١٨١٨-١٨١٩) بصرف النظر عن الإجازة . (المترجم)

كنت راغبا في اكتشاف امكانية افتتاح أى سوق للخيل بين وسط شبه الجزيرة العربية والهند ، فقد كان ثمة استياء عام من المستوى المتدنى للافراس سواء أفراس السباق أو أفراس الاستيلاء .

كما كان من أهدافى جمع معلومات عن الربع الخالى لندرجها فى خرائطنا ، وكذلك البحث فى هيدروجرافية الحجاز (علم مصادر المياه ووصفها) من حيث تجمعات المياه الناتجة عن الأمطار ، والمنحدرات الشديدة فى المنطقة ، ومعرفة ما اذا كانت هناك سيول دائمة أم لا ، وأخيرا محاولة التيقن - بالملاحظة الفعلية - من نظرية الكولونيل و . سيكس Sykes والتي مؤداها أنه اذا كان ما يتداوله الناس جيلا بعد

جيل صحيحا - فلا بد من وجود فروق فسيولوجية غير قليلة بين سكان شبه الجزيرة العربية المترامية الأطراف ، مما يحفزنا للتثبت من القضية التى نهتم بها عن الأصول العامة للعرب (٤) . أما فيما يتعلق بالخيل فاننى مقتنع أنه يمكن عمل شيء ما فى منطقة الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية ، وليس من شيء يمكننا عمله - فى هذا الصدد - فى الساحل الغربى حيث الخيل - رغم أصالتها - مجرد كائنات غير صالحة للاستيلاء وأسعارها مرتبكة ولا يتيسر الحصول عليها الا مصادفة (٥) . وقد سمعت عن منطقة الربع الخالى بما فيه الكفاية من رواة ثقات ما يفيد أنها منطقة ذات أبعاد مروعة ، وأنها تعج بأعداد كبيرة من السكان نصف الجوعى ، وتسود فيها الوديان والأخاديد والوهاد (أو المسيلات وهى وديان صغيرة ضيقة شديدة الانحدار) - وهى فى مجملها خضبة على نحو ما بفعل السيول التى تجتاحها بين الحين والحين . ونخلص من هذا الى أن منطقة الربع الخالى منطقة مفتوحة (متاحة) للرحالة المغامرين . وأكثر من هذا فاننى مقتنع أن شبه الجزيرة العربية التى تسود فيها المجارى المائية الصغيرة المنحدرة من التلال - على عكس ما ذكره الجغرافيون منذ

(٤) فى الاصل The arab family وقد آثرنا ما أوردناه فى المتن حتى

لا يختلط المعنى . (المترجم) .

(٥) حظى موضوع الخيل العربية باهتمام بالغ من كل الرحالة الاجانب منذ مطلع التاريخ ، ففارتينا خصص جانبا من رحلته (١٥٠٣) لتأنيف سلالات الخيل والتدريب عليها ، أما بلى الذى زار شبه الجزيرة العربية فى سنة ١٨٦٥ ، فقد أفرد ملحقا كاملا عن الخيل بالاضافة لآثاره المختلفة لها من ثنايا رحلته . ومن المفهوم ان الاهتمام بالخيل يقل لدى رحالة القرن العشرين لتضاؤل قيمتها تدريجيا فى الحروب ، وان كان من الملاحظ أن مشاهير الجواسيس الذين كشف أمرهم فى القرن العشرين فى منطقتنا كانوا يدعون (هواية) تربية الخيل وذلك ليجدوا جانبا مشتركا أو أرضية مشتركة بينهم وبين العرب الذين لا يزالون يحبون الخيل والصقور . (المترجم) .

رحلة بيرتون - ١٧

بطلليموس (٦) حتى جومارد Jomard - ليس بها سيل (٧) (مجرى مائى) دائم واحد يستحق ان نطلق عليه نهرا . كما أن الشسواهد التى ساقها لى أهل البلاد تدفعنى الى الظن أن شبه جزيرة العرب تنحدر منسوب الجنوب (٨) وليس العكس ، وأنا فى ظنى هذا متفق مع فالن Wallin ومخالف لريتير Ritter وآخرين . وأخيرا فقد وجدت الدليل الذى يجعلنا نعتقد بوجود ثلاثة أجناس محددة فى شبه الجزيرة العربية :

١ - أهل البلاد الأصليون ، ويمكن مقارنتهم بجماعات البيل Bhils وغيرهم من الهنود الأصليين - ويقطنون فى الصحارى الشرقية والجنوبية الشرقية المتاخمة للمحيط .

٢ - السوريون أو العراقيون القدماء (أهل ميزوپوتاميا) السنيخ وصف شم Shem وجوكتان Joktan خصائصهم الأساسية ، وقد أراح هؤلاء السوريون أو العراقيون أهل البلاد الأصليين من أماكنهم الأثرية ، ولا يزال هؤلاء المغزاة (الفاتحون) يستمتعون بما استولوا عليه متمثلا فى شعب شبه الجزيرة العربية العظيم (٩) .

٣ - العشائر الشامية السورية المخلطة ونحن نمثلها بذرية اسماعيل (عليه السلام) وذرية ابنه نبوغث Napagoth وذرية Edom (عيص Esu ابن اسحق Isaac) الذين سكنوا - ولا زالوا - شبه جزيرة سيناء .

وفى معظم الأماكن ، بل وحتى فى قلب مكة المكرمة ذاتها ، تتقابلت مع بعض الوثنيين الذين كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قد منسح

(٦) بطلليموس عالم فلك وجغرافيا سطع جنمه فى الاسكندرية ١٢٧-١٥١م ، ولا علاقة لبطلليموس هذا بالبطالة أو البطالسة الذى حكموا مصر فى الفترة ٣٢٣ - ٣٠ ق م .
(المترجم) .

(٧) يطلق أهل الجزيرة العربية الآن لفظ « سيل » أو « المسيل » على المجرى المائى سواء اكان عامرا بالماء بعد هطول المطر أو بعد أن يجف ، فالمجرى (مجرد المجرى) هو سيل أو مسيل ، أما عملية هطول الأمطار وتحولها الى سيل أو مسيلات فيطلق عليها نفس الالفاظ - ويتم التفريق بين المعانى المقصودة بالسياق . (المترجم) .

(٨) اصبح معلوما الآن أن شبه الجزيرة العربية - بشكل عام - تنحدر نحو الشرق والشمال الشرقى ، واصبحت هذه معلومة مؤكدة يدرسها طلاب الجغرافيا فى المدارس . (المترجم) .

(٩) ما يذكره بيرتون هنا مسائل لم تثبت تاريخيا ، وإنما لا تتعدى كونها ترجيحات ، إنما الثابت أن شبه الجزيرة العربية بعد الاسلام وحتى قبله كانت مركز طرد للهجرات البشرية ، لا مركز استقبال لها . (المترجم) .

وجودهم أصلا ، فهؤلاء الوثنيون لا زالوا كثيـرين (١٠) . وقد أرجعهم المراقبون الجهلاء الى أصول حديثة اعتمادا على أدلة عقلية .

لقد توصلت الى هذه المقولة أثناء تجوالى صيفا فى الحجاز . انها روايات شخصية ، وقد عملت على أن أجعل طبيعة هذه الاحاديث متفقة مع كونها « شخصية » (١١) . ان كثيرين قد لا يحذون حذوى ، وان كان آخرون ربما يكونون شغوفين لمعرفة المعايير التى وضعتها فى اعتبارى . لأظهر فجأة كرجل شرقى على مسرح الحياة الشرقية ، وربما يجد رحالة المستقبل فى سرد ذلك شيئا مفيدا لهم ، ولا أقدم اعتذارا عما يشبه الغرور فى روايتى هذه . وهؤلاء الذين شعروا بالحاجة الى « صديق صامت » يقدم لهم النصيحة دون أن يتحتم عليهم طلبها ، سيقدرّون ما قد يبدو للعيابين كثيرى النقد مجرد تدفق عقل رجل مصاب بتضخم الذات .

فى مساء الثالث من شهر أبريل سنة ١٨٥٣ غادرت لندن الى سوثامبتون Southampton ، وبناء على نصيحة الأخ الضابط الكابتن هنرى جريندلى (كولونيل الآن) فى سلاح فرسان البنغال فقد تم تجهيز ملابسى الشرقية قبل مغادرة لندن كما تم اعطاء كل حاجياتى طابعا شرقيا تماما (لم يكن المناصب وهو الكابتن هنرى ولا المنصوح وهو صاحب الرحلة يدركان وقتها مدى قيمة وأهمية هذه النصيحة) . وفى بكرور الصباح التالى استقل الأمير الفارسى (١٢) مصحوبا بالكابتن جريندلى الباخرة الفاخرة ذات الرفاس والموسومة باسم « البنغال » التابعة لشركة شبه الجزيرة والشرق .

(١٠) ملاحظات بيرتون هنا عن بقاء وثنيين فى شبه الجزيرة العربية الى وقت متأخر (القرن التاسع عشر) صحيحة فيما يبدو واكدها رحالة آخرون ومن ذلك ما ذكره « بلى » فى رحلته للرياض ١٨٦٥ (نشر جامعة الملك سعود) ص ٤٦-٤٧ : « .. توجد حتى الآن (١٨٦٥) كهوف منحوتة فى جبل طريق .. هى بمثابة معابد لدين قديم .. وظل أهل المكان يوقرون هذه المعابد .. ونجد أن آل مرة فى الجنوب لم يتحولوا للإسلام الا منذ وقت قريب » لكن بعد ظهور الدعوة السلفية بدأت هذه الجيوب الوثنية - التى عمرت طويلا مستغلة اتساع شبه الجزيرة العربية . وكثرة شعبانها ووادها - تتلاشى تدريجيا . (المترجم) .

(١١) من الواضح أن بيرتون يؤكّد هنا أن ما ذكره من معلومات سابقة ليست مؤكدة وانما هى معلومات شخصية جمعها دون التثبت منها . المقصود هنا معلوماته عن اصول سكان شبه الجزيرة العربية . (المترجم) .

(١٢) يقصد نفسه . (المترجم) .

لقد قضيت أربع عشرة ليلة مفيدة فى التآلف مع العادات الشرقية ، لأن ما قاله السيد شستر فيلد Chesterfield المتهذب عن الاختلاف بين الشخص ونقيضه يمكن أن ينطبق بشكل ملحوظ على أحوال الرجل الشرقى من ناحية والرجل الغربى من ناحية أخرى ، فقد يؤدى كلا الرجلين العمل نفسه أو يؤدى الدور نفسه فى الحياة ، لكن طريقة أداء كل منهما تختلف اختلافا واضحا جدا . انظر - على سبيل المثال للمسلم الهندى وهو يشرب كوب ماء . ان شرب كوب ماء بالنسبة لنا فى أوروبا مسألة بسيطة فى الغاية من البساطة ، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمسلم الهندى ، انها عملية بالنسبة له تشتمل على ما لا يقل عن خمسة أمور غير مألوفة لنا . فبادئ ذى بدء نجده يقبض على كوبه قبضا غليظا كما لو كان يقبض على رقبة عدوه ، ثم يقول بقوة : « بسم الله الرحمن الرحيم » قبل أن يبذل شفثيه ، ثم يشرب الماء مبتلعا اياه ولا يرشفه رشفة كما ينبغي أن يكون الشرب ، ثم ينهى شربه بأن يتجشأ تجشؤ (١٣) الرضى ، ثم انه قبل أن يضع الكوب يتنهد قائلا : « الحمد لله » ، وعليك أن تدرك أن لهذه الكلمات معنى عميقا فى الصحراء ، وخامسا فانه يجيب صديقه الذى يقول له : « هنيئا » بقوله : « هناك الله » كما أنه - أى شارب الماء - يكون حريصا على تجنب الأمور التى حرمها الشرع عند الشرب فهو لا يشرب واقفا الا عند الاستثناءات التى حددها الشرع وهى شرب ماء زمزم ، والشرب من ماء الصدقة ، وشرب الماء المتبقى من الوضوء (١٤) ، وأكثر من هذا فان اليمين (اليمين والشمال) تستخدمان فى أوروبا دون تمييز ، أما فى العالم الاسلامى فيجب أن يستعمل الانسان يده اليمنى فى الامساك بالمسباح وشرب الماء ، وقد ينسى الأوربى وهو يتقمص دور الرجل الشرقى فيسئ استعمال الكرسى ، فالرجل الشرقى القح يضم ساقيه بعد ثنيهما ، ويبدو دائما مرتاحا فى جلسته هذه كأنه يحار على ظهر حصان يجرى خبيا ، ويمد أصابعه للإمام وينظر نظرة رزينة ، وعادة ما يتطرق فجأة بعبارات دينية .

ان رحلتنا فوق « بحر الصيف » كانت بلا جدوى ، ففى سفينة بخارية حمولتها ألفان أو ثلاثة آلاف طن تكتشف أن ما كان مرهوبا قد غدا ثقافها . مألوفاً فلم يكن أمامنا سوى الأمواج العاتية ، ولم يكن أمامى من انجساز سوى أن أجلس جلسة مزعجة متمثلا قول الشاعر :

(١٣) استخدم بيرثون لفظ grunt **الغنى صوت الخنزير** (القبايع) وقد أثرتنا ما أوردناه فى المتن لأنه المعنى المقصود . (المترجم) .
(١٤) هذه « عادات » وليست بالضرورة من الشرع أما البسطة فى البداية و « الحمد » فى النهاية فمن السنة الصحيحة . (المترجم) .

There we lay

فهناك نتمدد ،

All the day

طوال النهار ،

in the Bay of Biscay

عند خليج بسكاي

فمنظر الطرف الأغر ذى الروعة لا يثير أيا من المشاعر العاطفية
التي جرت العادة أن تكون (أى هذه المشاعر) مخرجاً يخرجنا من حالة
الرتابة التي يسببها الأبحار الممل . فربما كانت هذه المنطقة معروفة لك
بفضل ثيوفيل جوتير Gautier واليوت واريبرتون Warburton
أكثر من معرفتك بما حوّل الكورنيل Cornhill فالى جوارها ترسى
سفينةك تحت الصخرة التي تتسع بالكاد لجلوسك وتناولك الإفطار . أما
إذا أبحرت الى مالطة وجدتها هي الأخرى ترتدى وجهها مالوفا (ليس فيه
ما يثير) مما يجعلك تأمر باحضار الغداء وتشرف على تبريد الخمر
Claret (الذى يمثل بداية البربرية الشرقية) ، فهذا أفضل من العدو
على ظهر حمار فى جو لاهب فى ذكرى القديس بول وفرسان الصليب
الأبيض . ورغم أن رحلتنا البحرية كانت مملة ، فلم يكن هناك ما يدعو
للمشكوى فقد كانت السفينة مريحة على أية حال ، وكان الطباخ جيداً ومن
الغريب أن يقال ذلك ، واستمرت الرحلة فترة طويلة لكنها لم تكن ممعنة
فى طولها . وفى مساء اليوم الثالث عشر من بداية رحلتنا قام مرشد
السفينة ذو السروال الواسع والذى كان خفيف الظل رغم تشوه منظره
— من وجهة نظر أوربية — قام بواجبه ، ورست السفينة « البينغال » ذات
الرقاص فى مرسى رأس الطين (١٥) .

ولأننى كنت مدعوا كى أبدأ من منزل صديق رقيق هو جون و
لاركنج Larking فقد هبطت معه من السفينة وابتهجت ابتهاجا شديدا
أن أرى اننى — بفضل اللحية والرأس المحليق — قد نجحت نجاح لورد جيش
Geesh فى إبعاد تطفل العامة عنى . وقد سمعت أحد المسلمين
يهمس قائلا : « الحمد لله » عند نزوله من السفينة ، وعند قطع المفتشين
المختلفين الذين مررت أمامهم للتفتيش فى المرفأ — سمعنا مسلما يتمتم قائلا :
« الحمد لله » . وراح الصبية يستعطفوننى باغراقى بالمديح الذى عادة
ما يوجهونه لذوى القبعات ، وعندما استنتج ولد صغير أن الفرصة قد
جاءت لبسط اليد بالكرم تطلع فى وجهى وهتف قائلا : « بقشيش » فالقمته

(١٥) المقصود رأس التين وما ذكره بيرتون mud هو الاسم الاصلى . ثم
حرفه الناس « الى رأس التين » ربما تبيننا (المترجم) .

الرد قائلاً : « مفيش » مما أقنع الذين سمعوا الحوار أن فرو الخـروف قد غطى خروفا حقيقيا (١٦) ، ثم ركبنا بعد ذلك عربة وشققنا طريقنا بين الحمير ، فوجدنا أنفسنا فى غضون نصف الساعة والشيبوك Chibuk (الشيشة) فى أفواهنا ، وفناجين القهوة فى أيدينا ، ونحن جلوس فى ديوان منزل صديقى المضيف لارنج .

ما أعجب هذا التناقض بين السفينة التى أقلتنا الى رأس الطين ، وتلك الفيلا على ترعة المحمودية ١٩ ففى هذه الفيلا تتمثل المنقلة المفجائية بين الحياة ذات الايقاع السريع ، والحياة ذات الايقاع البطيء ، ففى ثلاثة عشر يوما انتقلنا من ضباب بارد رمادى دبق هو مناخ الصناعة الذى يجعلنا على شفا جزيرة الكائن الحى (نحيا بالكاد) ، الى أفضل هواء يزفه لنا البحر المتوسط بزرقة الرائحة وضبابه الرقيق الأرجوانى الذى ينشر فتنته وجماله حتى على الملامح الشمطاء للشمال الأفريقى . وما نحن الآن نجلس صامتين بلا حراك نستمع الى الحان الشرق المرتببة ، ونسائم الليل الرقيقة الباردة تمر عبر سماوات متألئة بالنجوم وعبر أشجار مورقة فتحدث حفيفا يثير الأشجان .

هذا هو المزاج (الكيف) Kayf العربى ، الرائحة المنبعثة من الحيوانات ، والسعادة الحقيقية فى المعانى المجردة ، والكسل المصحوب بالسرور ، والسكون الحالم وبناء القلاع فى الهواء (أحلام اليقظة) ، كل هذا يغنى فى آسيا عن الحياة الخصبة المتأججة فى أوروبا . وذلك نتيجة طبيعة الشرق الحيوية والهائجة ونتيجة الأعصاب المرهفة ، مما يؤدى الى القدرة على إبهاج الحواس ، ومثل ذلك لا تعرفه المناطق الشمالية حيث السعادة هى استثمار القوى الفعلية والحسية وحيث « الرزين هو الحى Ernst ist das leben » وحيث الأرض غير المعطاءة تتطلب كدحا دائم العرق وحيث الهواء البارد الذى يبعث على القشعريرة ، فكل ذلك يبعث على العمل والتغيير والمغامرة والانفاق ، ابتغاء الوصول لما هو أفضل . وفى الشرق لا يبتغى الشخص سوى الراحة والظل عند مجرى جدول رقراق أو تحت عريشة ذات ظل ظليل لشجرة مزهرة ، يدخل الشيشة أو يرتشف فنجانا من القهوة أو يشرب كوبا من « الشربات » ، والأهم من كل ذلك أن يريح بدنه ويعطل عقله بقدر الامكان . فما تسببه المناقشات من ازعاج ، واعمال الذاكرة لتذكر ما هو غير سار ، وارهاق العقل بالتفكير كل هذا من أكثر الأمور التى تعكر مزاج الشرقى وتفسد كيفه his kayf .

(١٦) المقصود أن تنكره قد نجح . (المترجم) .

فلا عجب إذن أن مُصطلح (الكيف) لا يمكن ترجمته الى لغتنا الانجليزية !

دعنى استشهد بهذا القول اللاتينى .

Laudabunt alii Claram Rhoden our Mytelenen.

ثم دع الآخرين يصفون لك الاسكندرية التى كانت ذات يوم عاصمة مصر المشهورة . انها مدينة «مقلوب كيائها» (١٧) فصخورها التى يفترض انها جافة دائما مبتلة ، ونافوراتها التى يفترض انها عامرة بالمياه دائما جافة ، ومسلة كليوباترا لا هى مسلة ، ولا علاقة لها بكليوباترا وعمود بمبائى لا علاقة له البتة بمدينة بمبائى ، وحمامات كليوباترا مكان لا حمامات فيه على الاطلاق وفقا لما يقوله الرحالة الثقات ، حتى بالنسبة للحى اللببى على ايامنا - وهو مكان رائع - فهو رغم روعته يعد مركزا حضاريا مقاما على قاعدة بربرية (تغير متحضرة) وها هى اوزوريس جالسة جنبا الى جنب مع Typhon عدوها اللدود القديم . فلا زال قولنا صحيحا ذلك الذى مؤداه : « الايام حبلى بالمفاجآت » . والاسكندرية التى كانت موضوعا مبتذلا على ايام بروس Bruce لا زالت حتى الآن - بسبب تغيراتها الدائمة - موضوعا مناسباً لوصف جديد .

كانت افضل طريقة لكف عيون الخدم والزوار المتطفلة ، هو ما قام به صديقى لاركنج Larking اذ أسكننى فى مبنى ملحق بفيلته حتى اتمكن من التصرف بحرية كاملة وفق أسلوب حياتى وعاداتى . ورغم أن أحد المرشدين الأرمن - وهو جاسوس لا يهدم ولا يكل كسائر أبناء جنسه - كان فى المناسبات يلاحظنى قائلا :

« هذا رجل يتمتع بحرية كاملة » Voila un person diablement dégagé

فليس من أحد أدرك أية فكرة عن الدور الذى كذت له فيه خلا الذين كانوا مطلعين على السر من البداية . فالخدم وهم من المسلمين الاتقياء كانوا يسموننى « العجمى » ، والعجم اتباع أحد المذاهب الاسلامية لا ينظر لهم أهل السنة كمسلمين على السراط المستقيم كنظرتهم لأنفسهم ، لكن هذا بالنسبة لى على أية حال افضل من لا شئ . ولم أضع وقتا فسعيت لتأمين مساعدة أحد الشيوخ وشرعت مرة أخرى فى الدخول فى تفاصيل العقيدة والشرعية فأنعشت ذاكرتى بمعلومات عن الطهارة والوضوء ، وقرأت القرآن

(١٧) النص The City of Misnomers أى المدينة ذات الاسماء المغلوطة

ووجدنا أن التعبير الذى أوردها فى المتن يؤدى المعنى أكثر . (المترجم)

(الكريم) وأصبحت خبيراً بمواضع السجود . وكنت أقضى أوقات فراغى فى التردد على الحمامات والمقاهى والأسواق لشراء ما أحتاجه .

وعملية الشراء فى هذا البلد تحتاج الى صبر فهى تعنى الجلوس على دكة التاجر والتدخين واحتساء القهوة ، وامرار حبات المسبحة - شئ كل هذه الأثناء - بين أصابعك لتظهر أنك لست عبداً ، والحقيقة أنك تفعل ذلك لتدفن صبرك وتبارى به صبر عدوك (المبتاع) وكان لدى من الوقت ما يسمح بالقيام برحلات قصيرة للريف على ضفاف ترعة المحمودية ولم أهمل رؤية النحل عندما تتاح الفرص ، فقد تنقضى بضعة أشهر قبل أن تسعد عيناي برؤية هذا المنظر الممتع مرة أخرى .

« Delicias Videam, ùile Jocose, tuas !

ولحرصى على الاهتمام بالأمور الجادة فقد ترددت على المسجد ، وزرت الأولياء الذين تكثرت مزاراتهم بالاسكندرية . والحجاج المسلمون هنا يزورون قبر النبى دانيال Daniel الذى تم اكتشافه فوق بقعة رأى السلطان الإبراهيم محمود فى منامه رجلاً من عصور قديمة يصلى فيها ، والاسكندر الرومى وهو الاسكندر الأكبر المسلم بطبيعة الحال قد دفنت عظامه فى الموضع الذى يعرف باسمه (١٨) ، أو كما لايدق حدث فانهم وجدوا عظاما نسبوها اليه . وتتباهى الاسكندرية أنها تضم رفاة وليين مشهورين ، أحدهما هو محمد البصيرى صاحب القصيدة المعروفة بالبردة التى يقرؤها المسلمون فى العالم الاسلامى كله . ويقرؤها مسلمو مصر فى المآتم وغيرها من المناسبات الدينية والثانى هو أبو العباس الأندلسى الحكيم وولى الماء الأول (١٩) فالصلاة فى قبره مقبولة لا تضيع عبثاً (١٩) .

ومن الطبيعى أن ينظر أهل الاسكندرية لزجاجاتى وصناديقى ذوات الأقسام ، ولعابهم يسيل بغية الحصول على محتوياتها . ولما كان الطبيب الهندى بدعا غير مألوف لديهم ، فهم يحتقرون الإفرنجى الا اذا كان قد جاب الآفاق (شرق وغرب) . ان شخصية الساحر ، وشخصية الطبيب وشخصية الفقير ، كلا على حدة ينقصها الكثير ، وإن كانت كل منها مثيرة للتعجب فى حد ذاتها . الا أن هذه الشخصيات اذا تضافرت جعلت من صاحبها « طبيباً عظيماً » ، فالرجال والنساء والأطفال جابصوا بابى ،

(١٨) يردد بيرتون هنا ما يسمعه من خرافات ، وليس بما يذكره صحيحاً بالضرورة وإنما يشير للفكر الشعبى السائد ، ولا علاقة للاسكندر ذى القرنين وهو المقصود هنا بالاسكندرية ، لكن الاسكندر الأكبر الاغريقى المعروف هو الذى يرجع المؤرخون دفينه بالاسكندرية . (المترجم) .

(١٩) لا يوافق المسلمون السنة والمتفقون بشكل عام على ذلك ، فالرجال لا تشهد الا للمسجد الحرام ومسجد الرسول ، والمسجد الاقصى كما هو معروف . (المترجم) .

فأمكننى بذلك أن أتصفح وجوه الناس ، وجها وجها ، خاصة وجوه الجنس اللطيف ، فالأوربيون لا يعرفون - بشكل عام - منها إلا أسوأ النماذج . بل أن المحترمين من أهل البلاد بعد أن شهدوا عملية « المندل » Mandai أو المرأة السحرية مال رأيهم الى أن ذلك الغريب ، ما هو الا ولى من أولياء الله الصالحين ، قد منحه الله قوة خارقة ، فقد أرسل لى أحد كبار السن يعرض على ابنته لأتزوجها ، ولم يشر لمهر يتحتم على دفعه ، ووجدت من الاسلام أن اتنازل عن هذا الشرف . كما أن سيدة متوسطة العمر عرضت على مائة قرش - وهو مبلغ يساوى حوالى الجنيه الاسترلينى - اذا بقيت فى الاسكندرية وأشرفت على علاجها لاعادة البصر لعينها اليمنى . ولا يظنن القارئ أننى أمارس « القرابين Carabin » «والسنجراد Sangrado » « عيثا بغير علم ، فالحقيقة اننى كنت هاويا للدراسات الطبية والدراسات فى مجال الغيبيات والتصوف منذ أيام شبابه . وبالإضافة لهذا فممارسة الطب بين سكان العروش الحارة (المناطق الحارة) والشعوب غير المتحضرة ، مسألة سهلة نسبيا لأن الأمراض التى تصيبهم أقل تعقيدا من الأمراض التى تصيب الدول المتقدمة . وأكثر من هذا فإن ما يجعل عملية معالجة المريض مسألة هينة تماما فى هذه الانحاء - هو الدورة المؤكدة للمرض (التتابع الدورى لظواهره) فكثير من الأمراض فى المناخ المدارى - كما يعرف الأطباء جيدا تظهر لها - بوضوح - أعراض متقطعة غير معروفة كثيرا فى المناطق الأكثر برودة ، ويمكننى أنؤكد - من منطلق خبرتى الشخصية - أن ظاهرة الأعراض المتقطعة (غير المستمرة) تتجلى فى كل الحالات بدءا من آلام الجروح حتى الرمد . وظاهرة تقطع الظاهرة المرضية هذه طريق للاعتذار أو السماح (أن فشل العلاج) . لذلك فقد وطنت نفسى أن أكون طبيا محترفا كما لو كنت حاصلا على دبلوما buono per l'estero من بادوا Padua لا أن أكون أكثر رغبة فى أحداث جروح غائرة من معظم الجراحين الشباب الذين درسوا الطب دراسة نظامية ، وقد « انتهوا » قبل أن يبدءوا لأنهم صبروا أنفسهم فى قالب جامد كالعساكر البريطانيين .

وبعد شهر من العمل الشاق فى الاستكندرية: اتخذت إستعدادى لتقمص شخصية درويش متجول بعد أن غيرت لقبى من ميرزا Mirza الى الشيخ عبد الله . فقد أدرجنى أحد الرجال المبروكين الذى لم أهتم بتدوين اسمه - منذ فترة - فى طريقته الصوفية وهى الطريقة القادرية مديشنا: انضمامى بالكلمة الجليلة « بسم الله - شاه » (٢٠) وبعد فترة

(٢٠) أسقط الآن أصحاب الطرق الصوفية الالفاظ الفارسية من أروادهم وطقوسهم ، لكن اثبات بيرتون وغيره لها ، ربما يؤكد تأثيرات شيعية أو فارسية علم الطرق الصوفية فى العالم العربى - وهذه حقيقة مهمة لها أبعادها - (المترجم)

تدقيق واختيار رقائى الى درجة رفيعة فى الطريقة (طريقة القادرية)
هى درجة المرشد . وبذلك أصبحت عارفا بدرجة كافية بعقائد هذه
الطريقة الشرقية وممارساتها . وليس هناك شخصية فى العالم الاسلامى
ملائمة تماما للتذكر من شخصية الدرويش ، فهى شخصية تتقمصها كل
الطبقات وكل الأعمار وكل المذاهب . يتقمصها الشخص ذو المقام الرفيع
الذى يتعرض للخزى فى مجالس الحاشية ، ويتقمصها الفلاح الذى وصل
مستواه للحضيض ، ويتقمصها (الصايغ) الذى أزهقته الحياة ، ويتقمصها
المبتلى بمرض بغيض والذين يتسولون رغيف الخبز من باب الى باب .
وأكثر من هذا فالدرويش يحل له مالا يحل لغيره ، فمن المسموح له ان
يتخطى قواعد اللياقة والأدب باعتباره شخصا ليس من أهل الدنيا
(تخلص عن الدنيا وما فيها) فقد يصلى وقد يمتنع عن الصلاة ، وقد
يتزوج أو يبقى عزبا كما يشتهى ويهوى . وهو محترم سواء ارندى
ثيابا من صوف غليظ أو ثيابا موشاة بالذهب ، فلا أحد يسأل هذا
(المتشرد ذا الحصانة) لم يأتى هنا ؟ أو لم يذهب هناك ؟ وقد يقطع
طريقه وحيدا سائرا على قدميه ، وقد يركب بغلة عربية يتبعها اثنا عشر
خادما . وهو يبعث على الرهبة دون أن يحمل سلاحا ، وقد يختال فى
المطرقات مدججا بالسلاح . فهو أعلى الناس مقاما وأكثرهم اتساما
بالعدوانية ، وهو يحظى باحترام من الناس أكثر مما يحظى به الآخرون .
وهذه المزايا مطلوبة للرحالة ذى المزاج الحاد ، ففى ساعة الخطر الوشيك
ما عليه الا ان يصبح ممسوسا (به جنة) فيصبح آمنا ، فالمجنون فى بلاد
المشرق يشبه الشخصية غريبة الأطوار فى بلاد الغرب ، ان يسمح له أن
يقول أو أن يفعل ما تمليه عليه الأرواح . فاذا أضفت الى شخصية
الدرويش قليلا من المعلومات الطبية ومهارة متوسطة فى السحر ، وشهرة
بأن همك الوحيد هو قراءة الكتب ، بالاضافة الى رأسمال كاف لينقذك
من الموت جوعا - فانك بذلك تصبح ذا مزايا خاصة فى بلاد الشرق .

والخطر الوحيد فى الاندماج فى سلك الطرق الصوفية هو أن ثياب
الدرويش الممزقة لا تغطى تماما العورة (٢١) ، فاذا حوصرت فى جماعة
من مثل هؤلاء « الاخوة » فقد تصبح على كره منك شريكه « تحت العصا

(٢١) استخدم بيرتون الاسم الشعبى المباشر للعورة Cut-thorut ويعنى
حرفيا « الزغيم » (بضم الزاى وتشديدها وفتح الغين وتسكين الياء) وهو طائر أحمر
صغير ، كما تعنى السفاح . غريب أمر الفكر الشعبى فهو يتشابه فى نقاط بعينها فى كل
مكان ، لهذا الشئ نفسه يسمى فى مصر « حمامة » أما فى شبه الجزيرة العربية فيسمونه
« بلبلا » . انه طائر فى كل الأحوال - (المترجم)

أو فوق الموتد « (٢٢) لأنه من المعلوم أن الدراويش على نوعين : الدراويش الشرعيون أى الذين ينفذون تعاليم الدين ، والدراويش اللوطيسون Luti or Bi-sharai ويشيرون لممارساتهم بأشاراة باطنية مؤداها « أننا وهو » مظهر لشيء واحد ، وقد حدث وانضمت اليهم لفترة أسبوع وفى نهاية هذه المدة غادرتهم وأنا فى حالة رعب وتقزز وعدت من حيث أتيت .

(٢٢) المعنى الدال على الانحراف وأصبح من خلال هذه الكناية القوية التى ساقها بيوتون . (المترجم) .

الفصل الثانى

مغادرة الاسكندرية

التكيف وخواص الرحالة البارع - مشاكل الجوازات - القواس

- الرشوة - الرأى فى تحضر مصر - النشالون - الموظف الشرقى .

اقترح ان تكون خصائص الرحالة البارع ، موضوعا لما يطلق عليه علماء فراسة الدماغ « القدرة على التألف » « واكتساب المصنفات المحلية » وقد تطورت دراسة هذين الموضوعين - على نحو «سواء» - واتسعت . فبعد مسير طويل وشاق نوعا ما ، وبسبب وعناء السفر - يلقي الرحالة بنفسه فى اقرب مكان للمراحة ليبدو كواحد من اهل البلاد . ويدخل لفترة الشيشة (الغليون العجمى) بتلذذ لا حد له ، وينعم باكثر من قيلولة اثناء النهار ، وينخرط فى نوم عميق ليلا وينعم بالغداء فى الوقت المحدد له . ويعجب للأشياء المخالفة للعقل ، فليس لديه طريق آخر يتسلى به من ثثرة أو اقاصيص أو صحف . لكن سرعان ما تمر نوبة المتأثر فتشتت وطأة السأم ويمر الوقت وتبدأ ويفقد المسافر شهيته ويمشى حول غرفته ليلا ويتشاءب اثناء الحوار معه ، ويكون تأثير الكتاب عليه كتأثير المخدر . فالرجل (الرحالة) يريد أن يتجول ، ولا بد له من ذلك ، والا فانه سيموت كمدا .

وبعد حوالى شهر قضيته فى الاسكندرية بسعادة فائقة ، أدركت اقتراب العدو (*) فأستسلمت فلا شئ يعوق غدوى ورواحى . لقد كان العالم كله أمامى ، وكان ثمة اثارة لذيدة فى أن أغمس يدي فى أعماقه الفاترة - وكان شيخى المسكندرى - الذى وقع ضحية اعجابه « بجبة » جديدة حصل عليها مقابل « زعبوطه » البالى الذى قدمه لى بسبب راتب شهرى كنت أقدمه له رمزا للأخوة فى الله - قد اقترح على أن يرسل زوجته لأبيها وأن يصحبنى الى آخر العالم بكل قواه ، كما يفعل القس الخاص (المرافق لشخص ما) وقد قبلت بأدب « زعبوطه » لسكن أسبابا عديدة دفعتنى لرقص صحبتته وخدماته . ففى المقام الأول انه كان يتحدث بلهجة

(*) يقصد وقت الرحيل غالبا - (المترجم) .

مصرية بغیضة ، وثانيا أنه عاقل متدبر (١) لدرجة أنه لا يعرف الطريق من القاهرة للسويس ، وثالثا فقد كان « أخى فى الطريقة ذا عينين متحولتين (من مظاهر القلب) يغلقيهما معا (دلالة المكر والدهاء) وله رأس مسطح من أعلاه ، وله شفتان ممثلتان غير متناسبتين ، وعلامات أخرى أدت بى الى الشك فى أمانته وجديته وشجاعته (٢) . ان علم فراسة الدماغ وعلم التشريح (الفسيولوجيا) - كما هو ملاحظ - يخيبان أملك غالبا اذا طبقتهما بين الشعوب المتحضرة لأن الطبائع البشرية فى هذه الشعوب المتحضرة قد صقلت تحت ضغط التربية والحوادث والخبرة والعادات والضرورة ، الا ان علم فراسة الدماغ وعلم التشريح يشيران بوضوح ويدلان دون خطأ عند تطبيقهما على انسان الشعوب التى لاتزال تعيش على الفطرة أو على الانسان الذى يتصرف باندفاع ، أو الذى تحركه الغريزة أكثر مما يحركه العقل ، أو الذى يكون فى مرحلة تطورية تماثل مرحلة الخادرة (الحشرة فى الدور الذى يعقب اليرقانة) .

وعلى أية حال فقد كان على أن أقوم بأعمال كثيرة قبل مغادرتى الاسكندرية ، فأرضى الفراغة تصبح الآن متحضرة ، وهذا مما يؤسف له فلا شيء يمكن أن يجلب القلق سوى وضعها الوسطى هذا ، فهى عوان بين المتخلف والتحضر ، فحظر حمل السلاح صارم كما هو فى ايطاليا ، وتتم مواجهة « العنف » بالعنف بما فى ذلك قطع الرقبة وهو إجراء قاس ، ومعظم الجرائم الشنيعة - مثلها فى ذلك مثل الاعتراضات السياسية البسيطة ، والتى كانت - الجرائم والاعتراضات - تؤدى أيام الممالك الى البكوية أو وتر القوس ، أصبحت الآن تواجه بعقاب أكبر أضعافا مضاعفة بالترحيل الى فايزوغلو Fayzoghlu . واذا أمرت بضرب فلاحك بالسياط تجمع أصدقاؤه بالئات مهدين عند بابك ، وعندما تشتم صاحب المقارب الذى استأجرته يشكوك لقتل بلادك ، والمرشدون يؤثرون فيك بما يقولونه بشكل فيج عن الأمانة ، وأوامر الحكومة تمنعك من استخدام لغة السباب مع أهل البلاد بشكل عام ، والصبية الأشقياء مطلعون على حق الانسان فى أن يبقى بعيدا عن الفلكة . ومع هذا فلا زالت الخميرة القديمة كامنة فى اللاشعور Still the old leaven remains behind . وهنا - كما فى كل مكان من « أرض الصبـاع » لا تستطيع أن تحصـل على حقك دون استعمال العنف the Voie de fait . ونظام جوازات السفر

(١) السخرية واضحة . (المترجم) .

(٢) الربط بين شكل الدماغ أو الملامح والتكوين الجسمى من ناحية والصفات النفسية والخلقية من ناحية أخرى ، من النظريات التى شاعت فى القرن ١٩ ، ولم تعد هذه النظريات علمية تماما الآن . (المترجم) .

الذى ينقرض الآن فى أوروبا - يبعث من جديد فى مصر ويتم تطبيقه بحماس زائد . ولازلنا لا نملك شيئا سوى النواح على مساوىء هذا النظام فنحن ، وأعنى بقولى نحن : الشرقيين الحقيقيين والغرباء حتى الذين اشتعلت لحاهم شيبا - لا ندرى شيئا البتة عما لا بد أن يعانى منه أهل البلاد ذوو الحظ المعثر ، لذا فاننى أجد اغراء يحفزنى على اضافة موجز عن مغامراتى بحثا عن المتذكرة أو جواز السفر فى الاسكندرية . ورغم الجهل الذى كلفنى كثيرا الا أن « وزن » الصديق لارنج *larnge* مع السلطات المحلية قد حل لى بعض المشاكل ، فقد أهملت أن أحصل فى انجلترا على جواز سفر ، ولم يكن من اليسير تعويض ذلك رغم كل محاولات التقمص من لبس الملابس القذرة جدا وانفاق مصاريف كثيرة والحديث بنجليزية مضعضة (غير فصيحة) ، وقد حصلت من القنصل البريطانى فى الاسكندرية على شهادة تفيد اننى من الرعية الهندية البريطانية ، وأن اسمى عبد الله ، وأننى طبيب أبلغ من العمر ثلاثين عاما ، دون صفات مميزة فى العيون والأنف والوجنتين - أو على الأقل لم يدون شيء فى الخانات الخاصة بالصفات المميزة . وقد دفعت دولارا مقابل هذه الشهادة وهنا دعنى أسجل سخطى ، فبريطانيا العظمى سيدة البحار وحاكمة سدس الجنس البشرى . يتحتم أن تحصل خمسة شللات من كل من يريد الاحتماء تحت جناحها ، فانا لا أستطيع الحديث باسم حضارتنا الرومانية الحديثة دون أن أضع يدى فى جيبي ، يا الحقارة مهابتنا ! ويا الصغار عظمتنا !

وجواز سفرى لا يجيز لى السفر دون توقيع المضابط المسئول كما قال لى القنصل البريطانى . وفى اليوم التالى ذهبت الى المضابط الذى أحالنى الى مدير (محافظ) الاسكندرية ، وعلى بابها تشرفت بالانتظار ثلاث ساعات على الأقل حتى تفضل كاتب أكثر رحمة باخبارى أن الجهة التى يتعين على مراجعتها هى ديوان الخارجية وهكذا ضاع اليوم التالى عبثا . وفى صباح اليوم الثالث بدأت - كما وجهونى - بالذهاب الى القصر فى رأس الطين (رأس التين) . انه مبنى ضخم كموقعة غير مصقولة على شكل متوازى أضلاع يضم كل المكاتب (الاقسام والادارات) فى فوضى هائلة ونظرت الى جدران الباحة الوسطى المطلية بالطلاء الأبيض ، لقد كان ثمة اشجار قليلة عارية لفحتها الريح ، وتبدو وكأنها تكافح لتبقى على قيد الحياة فى هذا الجو المترب دائما والذى يشع نارا بفعل الشمس الحارقة .

لقد كان « القواس » (٣) وهو ضابط شرطة هو أول شخص تعاملت معه ، وكان ينعم بالبرودة فى الظل ، وكان فى حالة « انسجام » تام . « وكيفه » الاسيوى على ما يرام . ولما تقدمت اليه بالشهادة القنصلية التى أحملها وعرضت بإيجاز طبيعة عملى وشرعت فى السؤال عن الطريق الصحيح الذى يجب أن أسلكه للحصول على التأشيرة - ويبدو أنهم فى الاسكندرية لا يحترمون الدراويش كثيرا كما ظهر - حتى زار « الرجس المسئول » قائلا : « ما أدرى » دون أن يحرك شيئا الا القدر اليسير من لسانه بما يكفى لإخراج الصوت .

والآن فان هناك ثلاث طرق للتعامل مع الموظفين الآسيويين وهى الرشوة ، أو التزمز (التهديد) أو بازعاجهم والمثابرة مثابرة لحوحة بمداومة حضورك مصحوبا بمعارفك . وهذا الأسلوب الأخير يبرع فيه الفقراء . وقد اعتزمت لأسباب أخرى أن أكون صبوراً . فحدثت أكرر استفسارى بالكلمات نفسها غالبا فكان الجواب الذى كنت أحصل عليه هو « رح » أو « روح أى اذهب » . لكن المسئول الذى وجهت اليه السؤال فى هذه المرة ذهب بعيدا ففتح عينيه عن آخرهما ناظرا بحدة ، ولأننى ظلمت واقفا أقلب الورقة فى يدي ناظرا اليه بذلة والحاح فقد اتانى الجواب بصوت عال « رح يا كلب » « روح يا كلب أى اذهب » ، فتلاشى الكلام القليل الذى كنت قد أعدته عن الاخوة فى الاسلام ، وواجبنا نحو مساعدة اخواننا فى الدين ، فانسحبت عندئذ مبتعدا ببطء وغضب مخافة أن أتعرض لما يمكن أن يحدث بعد ذلك وهو الضرب بالكرباج ، فاللحم الانجليزى والدم الانجليزى لم يألفا ذلك .

لقد جربت اثنتى عشرة محاولة أخرى مشوشة ، جربت مع رجال الشرطة وسائقى الخيول والكتبة والصبية الأشقياء والأشخاص التافهين ، بلا جدوى . وأخيرا تحليت بالصبر وقدمت لأحد العساكر حفنة من دخان « تمباك » ووعده بخمسة مليمات « نصف قرش أو تعريفة » اذا أنهى المعاملة « الأوراق » الخاصة بى .

وكان الرجل مشوقا للتمباك ونصف القرش ، فأخذ بيدي واستعملنى برهة وقادنى من مكان الى مكان وصعد معى السلم حتى أوقفنى فى حضرة عباس أفندى نائب المدير .

(٣) ظل هذا المصطلح مستعملا لفترة طويلة بعد ذلك . يقول أحمد لطفي السيد فى « قصة حياتى » نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة المواجهة « وقد وقف اثنان من القواس يحملان الكرباج والمعلقة لضرب الخمد الذين يتأخر أهالى قراهم لى دفع الأيجار . . . » (المترجم) .

لقد كان عباس أفندى تركيا صغير السن ، له وجه كالقشدة ولحية سوداء ، وكان ملتقا ومتكورا فى جلسته وفقا للجلسة التقليدية للاتراك ، وكان قابعا فوق ديوان « كذبة » مغطى بقماش الكاليكو - فى آخر غرفة عارية من الأثاث ذات نوافذ واسعة • ودون أن يتنازل حتى بالأياماء يرأسه المعلق فوق كتفيه بفتور متعجرف وادعاء للعظمة - قلم يرد على سلامى ودعائى له ، ورمقنى بعينين ذابلتين وقذف فى وجهى بكلمات واهنة قائلا : « مين انت » أى « من أنت » وعندما سمع أننى درويش وطبيب زفر شخيرا راشحا بازدرء ، وأردف متعلفا أن اذهب « تحت » - لا بد أن يكون هذا التركى الضئيل عثمانيا •

وهذه الكلمة « تحت » غير كافية من الناحية الطبوغرافية لغريب مثلى ، وعلى أية حال فقد اكتشف أخيرا العسكرى المصاحب لى أن الغرفة الكائنة فى مصلحة الجمارك تتشرف بحمل اسم (وزارة الخارجية) (٤) ، وعلى هذا فقد ذهبت الى حيث أشاروا وبعد أن جلست « زوجا » من الساعات على الأقل عند باب مغلق فى شمس الظهيرة أخبرونى بفظاظة جعلتنى أظن أننى ارتكبت اثما أن الضابط المسئول عن القسم كان ينعم بالراحة منذ الصباح وبالتالي فلا عمل فى هذا اليوم ، ووصل الرد الغاضب لأعداد كبيرة من الأناضوليين والقرميين (من القرم) وأتراك الرومىلى (البلقان) الذين لا يعرفون الاستسلام ، وكانوا أقل من الحجم العادى لأقرانهم ، وسيقانهم عارية وأكتافهم عريضة وأقدامهم مسحاء وقبضاتهم قرنية ، وحواجبهم سوداء ، وكانوا جبليين يدل مظهرهم على الأمانة ، وكانوا يتسكعون حاملين معهم بنادقهم الطويلة ويطغاناتهم (سيوفهم المعقوفة) مثبتة فى أحزماتهم العريضة ، وأغطية رؤوسهم تتكون من الطرابيش الضخام ، وقد لفوا حولها شيلان ، لتكون عمائم متناسبة ، ويحمل الواحد منهم رداءين أو ثلاثة من القماش الفاخر فوق كتفه رغم الحرارة الشديدة فى هذا الفصل • وقد كانوا قد انتظروا مثلى عدة ساعات لكنهم لم يكونوا صبورين مثلى ازاء هذه الأحوال المخيبة للآمال فقالوا للموظف الغاضب ذى الحس المتبدل انه ورئيسه لا قيمة لهما ، انهما « زوج » من التافهين • وكانت الشتائم واللعنات التى يقععون بها والمنبعثة من حناجرهم الوعرة ، وهم منفرجو الساقين أمام الباب - كأنها مسدير الوحوش ودمدمتها ، وهكذا ضاع يوم آخر بطريقة شرقية • وفى اليوم التالى - على أية حال - حصلت على الاذن - باعتبارى الدكتور عبد الله - بزيارة ما أرغب فى زيارته من أماكن مصر وإن احتفظ بخنجرى ومسندساتى •

(٤) مصطلح العصر : ديوان الخارجية • (المترجم) •

والآن يتعين على أن أشرح ما دفعنى لتكبد هذه الصعاب الجمّة للحصول على جواز السفر . فمن الطبيعى أن يتساءل القارئ فى بلادى لم لم تسافر باسمك الانجليزى ١٩

يرجع ذلك للسبب التالى . انه فى البلاد غير المتحضرة عموما ، يتعين عليك اما أن تنهج النهج الذى اتبعه بروس Bruce محتفظا بالمكبرياء الرجولى ، وتنفذ ما تريد من منطلق القوة (وانت ذو يد عليا) أو أن تشق طريقك متمعجا كالدودة بحذر وخنوع ، وهذا يعنى فى الحقيقة أن تصبح حيوانا تافها خسيسا كئشدا ما تكون التفاهة والخسة ، وأن تسلم نفسك لتكون عرضة للاهمال والاهانة . لكن لكى تمر عبر الأراضي المقدسة فلا بد لك اما أن تكون قد ولدت مسلما أو تسلم بالفعل ، وفى الحالة الأولى فإن لك أن تحط من قدر نفسك كما تشاء . أما فى الحالة الثانية فالطريق مهياة لك . لكن روحى لم يكن فى مقدورها أن تستسيغ أن أكون واحدا من البرم أو « البرما Burma » (٥) وهو الاسم الذى يطلق على المتحول للاسلام ، فانا بذلك ساكون موضع شك من كثيرين ، بل وموضعا للاحتقار إذ سيختبرنى كثيرون بطريقة السؤال والجواب ، ويتجنبنى آخرون وسيبتطوع بعضهم بتلقينى الدين أو تعليمى ، وأكثر من هذا فإن ذلك قد يشكل عائقا يعوق تحقيق أهدافى فى الرحلة والتجول ، فالمتحول للاسلام يراقب دائما بعيون متسائلة ، والناس لا يرحبون بتقديم معلومات لمسلم حديث الاسلام خاصة اذا كان أوروبيا ، فهم يشككون أن تحوله للاسلام تم تظاهرا أو تحت ضغط فينظرون اليه كجاسوس ولا يدعونه يعرف عن حياتهم الا اقل قدر ممكن . ولأننى بعون من الله كنت قد عقدت العزم على السفر لشبه الجزيرة العربية ، فقد كنت راغبا فى اتمام هذه الرحلة التى طال انتظارها على خير وجه بدلا من الاكتفاء بنجاح جزئى أو مشكوك فيه ، لذلك لم يكن لدى خيار الا أن أظهر كمسلم بالمولد فهذا يعطينى وضعية محترمة ، وهذا هو السبب فى تكبدي المتاعب للحصول على التذكرة Tazkirah (جواز السفر ، باعتبارى عبد الله) .

وكان على أن اتزود بضروريات معينة لازمة للطريق . وكانت هذه الضروريات متعددة . حقيقية مغطاة بقماش فضى تحوى كيسا به مسواك وقطعة صابون ومشطا خشبيا . وليس من العظام أو ظهور السلاحف

(٥) لازال هذا المصطلح مستخدما فى الفكر الشعبى لوصف الشخص « غير المستقيم » سواء كان ماكرا أو لثيما أو أكثر من ذلك . وبيرتون يوضح لنا هنا اصلها التاريخى واستخدامها الاول « الشخص الذى تحول للاسلام كذبا ورياء » - (المترجم) .

فهما ممنوعان من الناحية الدينية كما يقال (٦) . وكانت الملابس التى اصطحبتها معى بسيطة بساطة الحاجيات الآتية ذكرها فلم تكن تزيد عن بديل أو بديلين (غيار أو غيارين) . انه لخطأ جسيم الا تحمل معك ملابس كافية ، والذين يسافرون كشرقيين يجب أن يكون معهم دائما حلة (ثوبا) فاخرة واحدة على الأقل لارتدائها فى المناسبات المهمة ، ففى بلاد الشرق ينظرون للشخص الذى يرتدى ملابس سيئة على أنه مسكين (عالية على غيره) اذا لم يكن ينتمى الى جماعة تعطيه الحق فى ان يرتدى مثل هذه الملابس ، فينظرون اليه باعتباره غدا . والشئ الوحيد الضرورى من أدوات الشراب والطعام فى صندوق المسافر هو الزمزية وهى قرية صغيرة من جلد الماعز وهى تنضج على محتوياتها من ماء وغيره فتعطىها لون صدأ الحديد خاصة ان كانت جديدة . ولا ضرر من ذلك على الصحة . رغم انه يعطى مذاقا يستساغ بالكاد بسبب طعم الجيلاتين المدبوغ . لقد كانت الزمزية شيئا ضروريا لا تمكن من الشرب دون قدح يمكن أن يكون قد شرب منه للتو خنزير شره . وبالنسبة للوازم النوم وغيرها من الأثاث فقد كان لدى بساط عجمى خشن يصلح للاضطجاع واستخدامه كمقعد ومنضدة وسجادة صلاة ، ووسادة مغطاة بقماش قطنى وبطانية تغطىنى اذا اشتد البرد وملاءة تقوم مقام الخيمة وستارة تبعد عنى المبعوض فى الليالى الحارة والمظلة القطنية الضخمة ذات اللون الأصفر غير الداكن والمصنوعة فى بلاد الشرق وحيدا لو كانت مكسوة بالقטיפه تعد من الأشياء الأخرى الضرورية ، فليس الظل متوفرا دائما . وكان لدى أيضا علبة لأدوات الحياكة ، وهى من الأشياء الضرورية وكانت قد أهدتنى أياها قريبة لى رقيقة هى الأنسة الميزابيث ستسد ، وكانت عبارة عن لفة من نسيج غليظ متباعد (كنفا) محكم وزخرفت بالابر والخيوط واستخدم فى عملها شمع الاسكافيين والأزرار وما شاكل ذلك . ان هذه الأشياء من أكثر الأشياء فائدة فى بلاد قد لا يوجد بها حائكون ، بالاضافة الى أن رتق الشخص لمعطفه وخصفه لنعله ، يعطى انطباعا لمن يرونه انه انسان متواضع ، بالاضافة للخنجر والمحبرة النحاسية وحافظة القلم المقروسة فى الحزام ، والمسبحة الضخمة جدا التى يمكن عند الضرورة استخدامها كسلاح هجومى . وبذلك تكون عدتى قد اكتملت . ويجب الا اغفل الطريقة المفضلة لحمل النقود .

ففى هذه البلاد يجب ألا تحول على الصندوق أو الحقيبة ، فالأكيس القطنى الشائع والذى يحفظ فى جيب الصدر كان يحوى عملات فضية وأخرى صغيرة (لأن مصر الآن مليئة بالنشالين) أما ذهبى الذى كنت قد

(٦) هذا طبعا غير محرم شرعا - (المترجم) .

حملت منه خمسة وعشرين جنيها والأوراق فقد أودعتهما فى حزام جلدى جيد مصنوع فى المغرب ، وقد صمم هذا الحزام ليلىف حول الخصر تحت الملابس لحفظ الأشياء الثمينة وأخفائها . وفى القرن الماضى كانت هناك طريقة أكثر تحضرا من طريقتنا إذ قام روديريك راندوم Roderic Random ورفاقه بالحياسة فوق نفوذهم بين بطانة الثوب وحزام السروال القصير ولم يتركوا فى متناول أيديهم سوى بعض النقود الفضية (الفكة) لشراء الضروريات أثناء الطريق ، والعيب الواضح للحزام الذى وضعت فيه ذهبى وأوراقى أنه ثقيل خاصة بعد وضع النقود الذهبية فيه ويسبب حكة وفلقا فى الليل (عند النوم) . وأكثر من هذا فقلما يكون وسيلة مأمونة فى البلاد الخطرة يتخذ المسافرون الحذرون احتياطات أنجع (٧) .

وضم الخرجان Khurjin (مثنى خرج) المعروفان لأهل البلاد ، حقائب ملابسى ، ولففت وسادتى ، واشترت صندوقا ذا لون أخضر فاتح مزين بورود صفراء وحمراء ، لأضع فيه أدويتي وذلك لحمايتها أثناء سقوطها من فوق الجمل مرتين يوميا .

وكانت الخطوة التالية أن أعرف ميعاد اقلاع الباخرة النيلية الى القاهرة فلجأت الى مكتب السفريات فلم يكن هناك اعلان عن أية سفينة . وأخبرونى أن أحضر للسؤال كل مساء حتى اذا ما أتاحت سفينة ركبتها ، وأخيرا وقع الحادث السعيد ، فالاقلاع الذى يحدث مرة كل اسبوع ، سيحدث فى اليوم القالى . والشئ بالشئ يذكر فان هذا الاقلاع الذى من المفترض أنه يحدث كل اسبوع لا يحدث فى الواقع الا كل أسبوعين أو نحوهما . وقد هرعت الى المكتب ولم أصله الا بعد أن كان الظهر قد ولى ، فوجدت فيه رجلا ضئيلا داكنا ، وقد ارتدى ثيابا واتخذ هيئة تجعله يشبه كلب الصيد تماما ، وكان يجلس مع رفاقه التافهين على المنضدة - يشرب ، وقد وضع السيجار فى فمه ورفض - بعد أن امتنع لفترة عن الرد على تماما - أن يسمح لى بالمرور الى السفينة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر . فسألته عن ميعاد اقلاع السفينة فأحالنى الى اللافتة لأننى كنت أحدثه بايطالية مهشمة ، فتظاهرت بعدم قدرتى على القراءة والكتابة ، فصاح قائلا بالايطالية : فى التاسعة . فى التاسعة ! Alle nove ! Alle nove ! ولما ظلمت مظهرا عدم تأكدى جعلته يترك مقعده ليقرأ اللافتة بنفسه ، فلما رفع رأسه اليها صب اللعنان وقرا : فى الثامنة . ان المسافر الشرقى الميأس اذا ما اعتمد على ما يقال له فسوف يحضر متأخرا عن الميعاد ساعة بالتمام .

(٧) وضع الرحالة بوركهاتر نفوذه داخل تعويذة (حجاب) وخاط عليها . انظر رحلات فى شبه جزيرة العرب . بيروت ، دار النفائس (ترجمة د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ وعبد الرحمن عبد الله الشيخ وعبد العزيز الهلبى) - (المترجم) .

وهكذا انحدرنا الى أسلوب الهنود الشرقيين القديم « الجيد » فى أداء الاعمال فالهنسدى البريطانى يأمر كاتبه الاول بتنفيذ بعض المهام ، فيجد هذا المكاتب (السنيور) أن لديه بعض « الأعمال » وأنه « مشغول » فيرسل آخر تحت إدارته ، فيجد هذا الأخير أن الجو قائل ، فيرسل بدلا عنه الساعى (البيون) فيقوم الساعى بتكليف البواب بعد تزويده برسالة شفوية ، فيجلس البواب بهدوء فى مكانه واثقا من أن المقدس سيهيىء له مخرجاً من هذه الورطة ولن يتحرك بركة واحدة من مكانه حتى ولو سقطت الكرة الأرضية . (حتى لو هدمت الدنيا) .

ان المقارئ - كما آمل - سيعذرني لهذا الوصف المسهب ، إذ أن هدفى أن يعرف كيف يتم انجاز الأعمال فى هذه المناطق الحارة . كل الأعمال . وإذا لم أكن أنا الدرويش عبد الله ، وإنما تاجر ثرى من أهل البلاد ، فإن الأمور - بالنسبة للسرعة والدقة فى انجاز المعاملات - ستسير على النحو نفسه الذى سبق ووصفته . فكم سمعت من شكاو كثيرة من المعاملة التى واجهت مثلها بمناطق مختلفة فى بلاد الشرق ! وليس من سبيل للتحقق من هذه الشكاوى الا بخوض التجربة الاليمة . وفى المستقبل ، سوف لا أرى أبدا شخصا مهما قل شأنه جاثما فوق الأرض ليضيع هباء ست ساعات تحت الشمس المحارقة ينتظر فى صبر حضور مسئول أو انجاز معاملة - دون أن أتذكر تذكرنا عامرا بالتفاصيل موقفى عند مبنى جمـارك الاسكندرية .

وأخيرا فى حوالى نهاية شهر مايو سنة ١٨٥٣ كان كل شىء جاهزا . وغادرت غرفتى وأنا أشعر بالأسى بين زهور الآس البيضاء وزهور الدفلى الوردية ذات الرائحة اللوزية . وقبلت بتباه متواضع يد مضيئى الطبيب بحضور خدمه ، وقد كان مضيئى قد اعتراه قلق حزين منذ عهد قريب لأنه بث فى روعى الشاعر الشرقية الحقيقية لمن يضرب بالفلكة . وودعت مرضاى الذين كان عددهم قد بلغ حوالى الخمسين فصافحونى بامتنان باعتبارى طبيبهم . وباعتبارى أخا لهم فى الدين ، وركبت عربة كالفخ أو المشرك تبدو عوانا بين عربة اليد (العربة التى يجرها المبانعون المجانطون) والكليبة (العربة التى يجرها حصان أو كلب) ، وكان يجرها بغل كثير الرفس ، عنيد ، عضاض ، وبدأت رحلتى فى الباخرة النيلية باصابتى برىو خفيف .

الفصل الثالث

السفينة النيلية التجارية

« أصابتنى بربو خفيف »

وصف المناظر على جانبي النيل - الدرويش لا يأكل اللحم -
وصف شرطيّين هنديّين - مهمة لشراء الخيول ملك سردينيا - عمال
الطلاء - خدائش - عزلة الأوربي - رأى الهنود فى الانجليز -
طبيعة كرم الشرقيين - التحامل على الهنود - الأفغان *

فى أيام بيتس Pitts (١) كانت لنا علاقات دائمة مع المسافرين
المصريين الذين كانوا يترددون على ميناء رشيد على نهر النيل *
والمتجولون (المسافرين) فى أيام بروس (٢) Brucean age كانوا ميالين
لتسجيل انطباعاتهم اثناء رحلاتهم عن الأهالى بين الاسكندرية والقاهرة
وبعد ذلك بقليل وجدنا كل شخص (رجلا كان أو امرأة) يكتب القصائد
الشعرية عن « بهيته » أو سفينته فى القناة (المقصود ترعة المحمودية) *
وبعد ذلك حلت السفينة البخارية محل « المدمية » ، وبعد الباخرة ،
سيأتى دور القطار الذى قد يخيب أمل السائح المؤلف ، ولكنه سيكون
مبهجا للرجال ذوى الحس الذين يرغبون فى قطع مسافات طويلة بأقل
قدر من الازعاج لأنفسهم وللآخرين * وسوف تكون ترعة المحمودية
- اقبح الترع وأكثرها ازعاجا - مخصصة للسفن المحملة بالقطن والقمح ،
فتجهزها المذكرات ، ولا تكتب كعنوان فصل بتاتا *

لقد رأيت هذه الترعة فى أسوأ حالاتها عندما كان الماء فيها منخفضا
ولم أرها مرة وهى ممتلئة * لقد وصلنا للقاهرة بعد ثلاثة أيام بلياليها ،

(١) رحلة انجليزى زار مصر والحجاز فى القرن السابع عشر * يذكر أنه كان فى
مصر على أيامه (١٦٧٨-١٦٩٣) خمسة آلاف أو ستة آلاف مسجد ، وقد صحح جوزيف
بتر كثيرا من معلومات من سبقوه * (تعليق بيرون ، ص ٩٦) * (المترجم) *

(٢) رحلة اسكتلدى وصل الاسكندرية ١٧٩٨ ومنها للقاهرة فبقنا بالقصير فجدة
فالحبشة (١٧٧٠) * شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ،
الانجلو ، ١٩٨٠ ، ص ٨٤ - (المترجم) *

كانت مضجرة ومملة ، وكان المفروض أن نصلها فى ثلاثين ساعة ، وكنا قد رسونا بانتظام مؤلم أربع مرات أو خمس بين شروق الشمس وغروبها قبل وصولنا . أما المشهد على الشاطئين فان الرسامين والكتاب قد جعلوك لا تهتم بالنظر اليه فمن عمود بمباى حتى Maison Carré, Kariom ومصانع الفخار بها ، وبركة طيور الليل (٢) وبسطة Bastarah والممرات المحفوفة بالأشجار ، بل وحتى عطفة . . . Atfah ، كل ذلك معروف تماما لنا ، وكان موجودا لسنوات عديدة قبل أن يراه الرحالة فعلا . والفيل المبارك نفسه كان منخفضا فى هذا الفصل . انك لا ترى شيئا سوى المياه المليئة بالطين والشمواطىء المتربة ، والضباب الرمالى والسماوات ذات اللون الشبيه بالجليب والشمس المحرقة ، وأنت لا تلقى بالا سوى للنسيم الذى يهب حارا كلفحات النار من فرن اعداد الفخار . ويمكنك أن تميز فقط من خلال حجاب الضباب المترب قرية شبراخيت من قرية كفر الزيات (٤) ، وأن تسافر بعيدا جدا من مدينة وردان Wardan لتتسلى بسخط رجالها عندما يقولون « هيكل ، يا ابن هيكل » (٥) وتكاد ترتطم سسفينتك عند البراج Barrage (٦) ، وأنت بالتأكيد تصفق بشدة عند رؤية فتحاته القليلة الضيقة ذات الطراز القوطى ، وهما خوفو وخفرع يشمخان برأسيهما الجليلين فوق حافة الصحراء ، وهما الملمحان الوحيدان اللذان قد رسما بعناية لذا فانت تستمر بمشاعر رضى حقيقية حتى تحاذى بولاق - الضاحية القديمة المتدهورة .

(٣) البركة Al-Birkah ، مجموعة قرى بهذا الاسم مشهورة بزحها ذى للطابع المصرى (كذا) وهى اثر يعود للعصور الطيبة الاولى - بلا شك - عندما كان معظم المتدينين يجدون متعة فى الاحتفال بذكرى ايزيس وأوزوريس . (ملخص تعليق بيرتون)

ولا شك أن اشارات بيرتون هذه تحتاج الى تحقيق وتدقيق من قبل المتخصصين - (المترجم)

(٤) شبراخيت كما هو معروف من مدن (قرى فى ذلك الوقت) البحيرة ، وكفر الزيات من مدن أو قرى مديرية الغربية . والمقصود أن بيرتون لا يميز المعالم على البر الا بالكاد - (المترجم)

(٥) اسم شخص وصفه بيرتون بالخرف كان يداعب بعض اهل وردان (عن بيرتون)

(٦) جسر أو كبرى وضع تخطيطه الاول لى أيام الحملة الفرنسية على مصر .

وبالنسبة لى فلم يكن المنظر مثيرا ، فقد بدا كمشاهد السند التى
الفتها - نفس الصباح الضبابى ، ونفس وهج الظهيرة ، والرياح الساخنة
والغروب الحار وحرارة المساء ، ونفس اعمدة التراب وشياطين الرمال
تعالى خالجان فوق السهل ، ونفس المياه المعكرة والفنوت المائية الضحلة
التى تحفها شواطىء رملية ، والجزر ذوات الشكل اللوزى ، ذات المنزلاقات
الترايبية المنهارة المتداعية فوق نوع من الجروف نحرتها المجارى المائية
بالسند شرسة ، وعلى الشاطئ ارض ملحية تتلألا ويلمع طريقها كالسندى
المتجمد فوق سطح بارد المقت الشمس بأشعتها عليه ، وتناثرت هنا وهناك
قرى شيدت بالمطين ، وأكواخ متفرقة وأبراج حمام أو أبراج زينة من ذلك
النوع الذى يشيد فى أحد اركان البيت ويختبىء صببة داكتر. اللون خلفه
ليقذفوا الأخجار على الطيور التى تصىء بين جريد النخيل الأخضر وأشجار
الطرفاء والسند والذرة والتمباك وقصب السكر ، وخلف الشريط الضيق
على شاطئ النهر تقيع الصحراء الصفراء المحرقة بتلالها المنخفضة
ومنحدراتها الرملية محاطة بما لا يحصى من أهرامات صممها الطبيعة (٧)
والقوارب بقيدوماتها (جمع قيديم وهو مقدم السفينة) المدببة ومؤخراتها
غير المعقولة وأشرعتها المثلث شكلها ، تشبه تماما ما فى نهر اندوس
Indus والفلاحون جلودهم داكنة كالشيكولاته وثيابهم زرقاء ،
والنسوة يحملن أطفالهن فوق ظهورهن ، والجرار فوق رؤوسهن ، وينام
الرجال فى الظل أو يتبعون المحراث الذى يحتفل أن يكون أوزوريس أول من
وضع يده عليه . أما الحيوانات سواء الراقية أو الوضيعة فجميعها عجفاء
هزيلة : الجمال الجريء والجواميس الملطخة بالمطين والحمير البائسة وابن
أوى المتسلل ، وكلاب كالثعالب .

وحتى الطيور كانت مألوفة لعيني تماما - طيور الأوز ، والبجع ،
الكراكي (جمع كركى) العملاقة ، والطيور المائية البوية .

لقد ركبت السفينة فى الدرجة الثالثة أو فى الممرات على ظهر السفينة ،
مع رعاى الرحلة الذين كانوا يبدون سخطا وغضبا . فالشمس الحارقة
تخترق الظلة المصنوعة من قماش القنب كما يخترق الماء الساخن قماش
الشاش ، أما فى الليل فالسندى المبارد يتساقط بقطرات سميكة لم يتبخر منها
شئ كالضباب الاسكتلندى . أما الطعام فكان بغيضا ، وحالت عظيمة
الدرويش ووقاره بينى وبين الجلوس أمام مائدة عليها لحم مع (الكفرة)
أو تناول الطعام الذى لوثوه بأثامهم . فقام الحاج بالانتجاع جانبا جالسا

(٧) . المقصود : التلال والكوام الرمال - (المترجم)

المقرفصاء ، وراح يدخن باستمرار لا يقطعه الا لأداء صلواته فى مواقيتها ، ولييث مسباحه الضخم تسبيحاته ، وقد شرب ماء التربة المعامرة بالطين ، من زمزميته الجلدية ولاك خبزه وثومه (٨) مرأيا بالتقشف والتقوى (٩) . وكان البالغ الخفيف الذى أصابنى قد تفاقم . وكان الجو فاصا بذرات الأتربة بدرجة تعوق الرؤية من موقعى فوق ظهر السفينة ، ولم يكن النظام على السفينة يساعدى على التدقيق فى أماكن معينة ، بالاضافة الى ان المناظر من فوق ظهر السفينة كانت مختلطة الألوان غير واضحة .

وكان هناك شرطيان هنديان يتجاذبان أطراف الحديث معا ، ومن الطبيعى الا ينخرطا فى حديث مع الآخرين ، وكانا يحتسيان شاي من النوع الرديء ، ويدخنان السيجار الانجليزى ، وكان تدخين السيجار قصرا عليهما . كما كانت هناك فرقة من الفواسين الاكراد the Kurd Kawwas ترافق خزانة تضم أموالا ، وكان يتحلق حولهم جماعة من اليونانيين المزعجين ، بفكاهاتهم العملية اللفظة التى تتناول أى شئ ، ومع هذا فقد كانوا مبعث سرور للمسلمين الوقورين الذين كانت اخراجهم (١٠) وما معهم من فرش تتعرض للتلوث كل لحظة من المشروبات الرديئة (المحرمة) ، وماء الشيش الذى مر دخان التبغ عبره . ولم يكن من الجنس اللطيف على ظهر السفينة الا فتاة إسبانية جميلة ، كانت تبدو فى موضع غير موضعها ، كزهرة فى حقل شوك . وجلس بعض الايطاليين الصامتين مع مترجميهم الذين أحدثوا جلبة - برصانة فوق الدكاك (١١) ، وسرعان ما اكتشفنا - من خلال ثرثرة مترجميهم - أنهم كانوا فى مهمة لشراء الخيول لحكومة سردينيا . لقد تعرضوا لوابل من الأسئلة من تجار فرنسيين عائدين الى القاهرة ، الا أنهم (أى الايطاليين) تهربوا ، وتجنبوا الاجابة بحذق ميكافيللى . وبالإضافة لهؤلاء ، كان هناك ألماني يستقبل الصباح بشرب زجاجة من الجعة (البيرة) ويودع النهار بشرب زجاجة من الجعة فى المساء ، وكأنه استعار صفات الأمة الألمانية . وثمة تاجر سورى وهو أغنى

(٨) فى الشرق - كما هو فى الغرب يعتقد الناس فى فوائد الثوم الصحية ، وان كان من المستحب الا يتناوله الانسان وهو ذاهب للمسجد بسبب رائحته القوية ، وينطبق هذا على البصل أيضا . ويخص بيرتون الوهابيين أو السلفيين بذلك وهو قول غير صحيح . فكل المسلمين يفعلون ذلك - (المترجم) .

(٩) يتحدث بيرتون هنا عن نفسه بضمير الغائب . (المترجم) .

(١٠) جمع خرج بضم الخاء ، وعاء من شعر أو جلد ذو عدلين يحمل على ظهر الدابة ، توضع به الامتعة ، ومن الواضح أنه لم تكن هناك دواب على ظهر السفينة - (المترجم) .

(١١) جمع (دكة) مقعد ممتد يجلس عليه اثنان أو أكثر . (مترجم) .

أهل الإسكندرية وأبغضهم • وكان في السفينة أيضا عدد قليل من الرسامين وجرفيي الملاء ، لملاء قصر الباشا في شبرا وتزيينه • وكان هؤلاء الأخيرون هم أسعد من في رحلتنا وأكثرهم بهجة • فهم أطفال حقيقيون من باريس ، فقد كانوا طوال النهار جالسين يثرثرون وكانهم يغنون ، ثرثرة أو شدوا اختصت بهما أمتهم الحية ، لا يجاريا أحدا فيهما • وقد أطلقوا العنان لأنفسهم في ترديد الأمثال ، والحكم الغالية (الفرنسية) مثل :

لا تدرك الشيخوخة مطلقا لاعبا وهو يلعب table On ne vieillit jamais

والآن فانهم يلعبون الورق بغية الحب أو بلا هدف ، ثم يكونون

(ينشئون) de ponches un pen chiques ، ثم ينشدون مغامرات طيقة (فئة) الميرابولانت Mirabolant ، ثم يغنون ، ثم يرقصون ، فينامون ، ويستيقظون ليلعبوا ، وليشربوا ، وليتحدثوا وليرقصوا ، وليغنون مرة أخرى •

لقد أنشد أحدهم :

« Je n'ai pas Connu mon père

Ce respectable vieillard.

Je suis ne trois ans trop tard ...

بينما يجابوه آخر منشدا :

« Qu'est ce que je vois ?

Un Canard en robe de chambre ! »

ولأنهم كانوا من القادمين الجدد الى مصر ، فقد كانوا متحيرين من التزمتم الغربي الذي - سريعا - ما كان يصيب الأوروبيين المستشرقين (الشرقيين) Oriental Europeans - لذا فقد كانوا أشخاصا ظرفاء بالنسبة لي حتى عندما كانوا يرغبون في الاندماج معي ، أو تجريعي جرعة قوية من حيوييتهم ، الا أنني لم أكن محظوظا بدرجة كبيرة مع كل من كان على ظهر السفينة ، فقد هدد بقال كبير بقطع أصبعي لأنني قربت غليونني من سرواله ، الا انه عندما رأى المس خنجري بجسدية ، سرعان ما نسي تهديده رغم أنني لم أحرك غليونني من مكانه ، وكنت قد أخذت على عاتقي الاعتناء بطرد شخص أحد أعضاء البرلمان يدرس اللغة القبطية ، وقبيل أعيدت الطرد له علي ظهر السفينة ، ومقابل هذه الخدمة اليسيرة لم اتلق منه إلا حيلة وسبوا لا فضلا مؤداه : لم لم أعد له الطرد قبل ذلك • واحد

الانجليز وجه النقد المرير لعينى بـ لأننى لمست مرفقه ، وقد أعلن شجيه هذا بطريده عوان ، فلا هو تحدث بصوت مرتفع ، ولا هو افضى الى بسبحاره سرا ، وانما كان كأنما يتحدث الى نفسه . وقد التيمست له العبر . يا عيسى درويشا متسامحا .

وكان من المقدر أن يلعب اثنان من رفاق الطريق دورا مهما فى تمثيليتى المسخرة فى القاهرة (١٢) ، فمجرد ان بدانا الرحلة حدثت احداث صغيرة امتعتنا ببعض التسلية . فعلى الشاطئ ظهر رجل قصير نوى الهيئه مقطوع الأنفاس لفرط بدانته ، بذل جهودا مضنية للصعود للسفينة ، مما اثار ضحكنا . فقد جرى على طول شاطئ الترعه مشقت الاهتمام بين السفينة من ناحية وخرجه الذى يحمله الصبى الحمال ، فتراه الآن يتعثر فى حفرة ، ثم ما يلبث أن يجتاز عترات ، تم يفف لاعنا الشمس الضارقة التى تلهب ظهره ، حتى لقد ظننا جميعا أن أنفاسه قد انقطعت تماما . لكن لا ! فلئن يلقي حتفه أفضل عنده من أن يفوته ركوب السفينة فتضيع عليه الأجرة ، فكما قال الحكيم ، بالصبر والالاحاج تجبر زوجتك على احترامك . وأخيرا تم إركابه السفينة وسرعان ما استلقى ونام . لقد كان يبدو وكأنه هندي ببشرته التى اعتراها السخام ، وشعره الأسود المبسط وملامحه التى يبدو فيها كثير من الدهاء beaucoup de finesse أو كما يقال — وقرة من الندالة ، وابتسامة دائمية وعينين غدارتين ، وبحلقه الذهبى (١٣) ، وملابسه نوات الألوان اللافتة ، ويطنه المكتنز لحما ، وساقيه السمينتين ، وظهره المستدير ، وطريقته الخاصة فى العبوس أو الغضب والتودد أو الرضا ، وعندما استيقظ قدم نفسه باعتباره ميان خدابخش نامدار من مواطنى لاهور Lahore ، وقد كان يدير تجارة أحد تجار الشيلان فى لندن وباريس طوال عامين مكثهما فيهما ، وبعد أداء فريضة الحج نوى أن يكفر عن الخطايا التى علقت به من جراء إقامته فى البلاد المتحضرة (يقصد لندن وباريس) فاستقر فى القاهرة .

أما صديقى الثانى الحاج والى فسأقدمه للقارئ فى فصل قادم .
وقد أشرت اليه مرة أخرى فى رحلتى الى مدين Midian (١٤) .

(١٢) يقصد فى تقمصه شخصية الدرويش - (المترجم)

(١٣) يعلق بيرتون على ذلك قائلا : ان الرجال المسلمين المتسكين بدينهم لا يقتلون بالذهب لان الشريعة تنهى عن ذلك . وهو قول صحيح . (ملخص عن بيرتون)

(١٤) انظر : The Land of Midian the, Gold Mines of Midian
Revisted by ; R. F. Burton.

لقد خففت المناقشات الإضافية بالفارسية والهندوستانية من الملل الذى اكتنف الرحلة ، وعندما وصلنا الى بولاق اصر خدابخش المهدب على ان اقيم فى بيته ، ولم اكن راغيا فى قبول كرم الرجل وكياسته ، لاننى كنت اكره نظراته وسحنته ، ولكنه قدم حججا مقنعة لتغيير افكارى ، فقد قام خادمه يانزال اُمتعتى فى ادارة الجمارك وبعد دقائق من وصولنا وجدت نفسى فى منزله بالقرب من حدائق الأزبكية ارتشف كوبا من عصير التفاح اللذيذ وانا جالس فى مشربية مشيدة بشكل رشيق لتطل على حديقته ، وتهب عليها النسائم المنعشة الباردة .

ولأن الوكالة كانت غاصة بالحجاج فى ذلك الوقت ، فقد مكثت مع خدابخش (١٥) عشرة أيام أو اثنى عشر يوما . وفى نهاية هذه المدة كدت أجن ، فقد كان مضيفى قد أصبح رجلا متحضرا يجلس على المقاعد ويأكل بالشوكة ويراعى قواعد الاتيكيت الأوروبى ، وكان قد تعلم الاعجاب بالحرية ، والأفكار الليبرالية Liberal ideas ان لم يكن قد فهمها . ألم اكن قد هربت (تخلصت) من مثل هذه الأمور ؟ وبالإضافة لذلك ، فإن لنا نحن الانجليز صفات وطنية خاصة سرعان ما يفهمها الهنود بما أوتوا من ذكاء مميز ، ويسمونها بكلمات شاذة . فقد لاحظوا رغبتنا فى الجلوس معهم وتجاذب أطراف الحديث وتناول الشربات ، والتدخين . لذلك فهم يسموننا « جنجلى Jangli » وتعنى الغجر أو « البراويين » أو « الرجال غير المستأنسين » (١٦) تم اصطيانا للتو من الغابات ثم جئنا نحكم الهند . من المؤكد الا شئ يلائمنا أقل من الحياة الاجتماعية الدائمة (المجتمع الدائم) ، فالحاجة المطلقة للعزلة عندما لا يستطيع الشخص أن ينكفىء على ذاته (يخلو لنفسه) مستمتعا بالهدوء الدائم دون أن يسأله رفيقه بعض الأسئلة الصببانية أو أن ينظر فى كتاب دون أن يحدق الخادم من فسوق كتفه (١٧) - عندما يتحتم عليك أن تتحدث دائما وتصفى باستمرار من ساعة استيقاظك حتى تخمد فى منامك ويجب أن تقنع نفسك أن تنام فى

(١٥) « خدا » بالفارسية تعنى « الله » ويودعك الفارسى بقوله « خدا حافظ » أى يحفظك الله - (المترجم) .

(١٦) النص الانجليزى Wild men وقد ترجمناها بالغجر أو البراويين وهى كلمة عامية ينطقها المصريون بكسر الباء ويقصدون بها الاشخاص الذين لا يألفون ولا يؤلفون - وهذه جميعا هى المعانى المقصودة بكلمة جنجلى كما يقصدها الهنود - وقد سمعت منهم هذه الكلمة مرارا بهذه المعانى اثناء اقامتى فى الكويت - (المترجم) .

(١٧) بالنسبة للانجليز فان بيت الانسان هو قلعته . أما فى الهند فان نظام الطبقات يقسم السكان الى أسرات كبيرة يعطى لكل شخص من ذات الطبقة الحق فى معرفة كل شئ من أين طبخته (أخيه فى الطبقة) . . . (ملخص عن بيرتون) .

حجرة نوم مشتركة وأن تصغى الى غطيظ رفاقك فى الغرفة وشخيرهم
وغمغماتهم فى منتصف الليل .

وعلى أية حال فان المعنى العميق للكرم الشرقى هو ذلك الاسلوب
العائلى فى الاستقبال الذى لا يكلف مضيفك مالا ، ولا يكبده مشقة ، اننى
أتحدث عن اصقاع نادرة فكرم البرابرة المقدماء يتلاشى الآن تدريجيا . فانت
تضع قطعة طعام زيادة على صينية طعامه ، وتضع حشوية اضافية فى
غرفة النوم ، وعندما تستأذن منصرفا لا بد أن تقول ما اذا كنت تود هدية
صغيرة لمجرد الذكرى مع مضيفك واذا قدمت له الهدية بطريقة واضحة
تشير الى أن ذلك تعويض له عن استضافتك ، فان ذلك قد يضايقه ، كما
يضايقه أن تقدم مبالغ بسيطة للخدم . فان راعيت ذلك فانك تلقى ترحابا
أينما ذهبت . واذا قادتك الظروف لمثل هذا الموقف وهو ما يمكن أن يحدث
لك ببساطة كطبيب ، فما عليك - فقط - الا أن تجعل من نفسك شخصا كريها
بقدر ما تستطيع بطلبك فى كل الأحوال أشياء غير ممكنة . فالخجل ضعيف
مع شعوب الشرق . فمضيفك قد يستحى أن يصفك بقلة الحياء ، فقانون
الضيافة يجبره أن يمدك بكل ما تحتاجه حتى لو كان سجيننا (أبى المضيف)

لكن من بين كل الشرقيين ، فان الهندي الشرقى هو أكثر الأصدقاء
بغضا للرجل الانجليزى كما أعتقد ، فهو كالثعلب فى قصص الحيوانات
ينافق ويتنذل بطريقة مقززة فى البداية ، حتى يصبح بسهولة - صديقا .
ويألفك الفا كريها وبطريقة فجأة مما يؤدى الى اثاره روح الأسد البريطانى،
ولا شيء يبهج أكثر من أن تتاح له فرصة آمنة يتنفس بها عن حقدته ازاء
المنتصر عليه . فسيجلس فى حضور الحاكم أو الضابط صورة طبق الاصل
من الخضوع المتذل المتسم بالتملق والنفاق ، الا أنه بمجرد مغادرته غرفة
الضابط أو الرئيس يتحول للنقيض فيصبح قنصلا فى قاعة بعد أن كان
عارفا فى حفلة موسيقية ، أو كما تتحول شخصية قبطان السفينة وهو
قابع فى مؤخرة السفينة حيث يكون عاديا متواضعا ، الى شخصية متألقة
عندما يظهر فى ناد لتناول الغداء . وسيكتشف هذا الهندي أن الانجليزى
ليس شجاعا ولا نشطا ، ولا كريما ولا متحضرا ، ولا يساوى شيئا وأنه
مجرد وغد تافه ، ويرجع ذلك الى أن كل مسئول من مسؤوليهم (الانجليز)
يتقاضى الرشوة ، وانهم يتصرفون بعدوانية بالاضافة الى أنهم فئة من الكفار
ثم يشرع فى ارضساء نفسه باحتمال أن يأتى يوم بارثولومسو
Bartholomew Day فى الشرق ، ويتطلع الى يوم يقوم فيه شباب هندي

متنور ليطرد الغزاة الأغبياء من أرض الهند . ثم يقدم آراءه عادية مكشوفة .
بأنه يجب استرداد الهند بالعنف من الشركة (١٨) وتقديمها للمملكة Queen
أو أن تسترد من الملكة وتقدم للفرنسيين ، وإذا كان الهندي رحالة أوربيا ،
فسيكون أسوأ ما يكون بالنسبة لك فهو يخلنا He has blushed to own
على أية حال فإنه يشرح (يفسر) الفتح بالمرشسة ، ذلك ان ٥٠٠٠٠
انجليزى قبضوا على ١٥٠٠٠٠ رندى (من مواطنيه) واستعبدوهم
وأنت تعرف أن ذلك قد تم مقابل لا شيء .

ولم يعد فى نفسه أى رهبة من الوجه الأبيض وراح يفضى بما يعتمل
فى نفسه :

« الأرض ان طوقها العدو أو الصديق ،

فعلى الانسان أن يقول ما يريد »

وهو يسير على المنوال نفسه فى البلاد الأخرى حيث يكون الى حد
كبير فى المكان غير المناسب له ، وعقيدته فى الحرية والمساواة يطبقها عليك
شخصيا وعمليا فهو لا يهب واقفا اذا دخلت الشرفة ، ولا يغادرها ، وفى
المداية فأنك تجد صعوبة فى حثه على الجلوس - ولا يعيرك شيشته (أو
غليونه) ويدير وجهه بعيدا ان ناديته وغير ذلك من الالهات الصغيرة التى
لا يجيد أحد تنفيذها بتدرج غير محسوس سواء .

يقول العرب : (١٩) :

« ان كان فى عود الأرض قسوة

ففى الهندي رجولة وعزم »

أما الفرس فيطبقون هذه الحكاية الزاخرة بالمعاني . يقول الأسد
لابن آوى : « يا أخى ، اننى أحتاج الى قليل من بعض شعرك الذى يتساقط
منك لأداوى به نفسى ، فأين أجده ؟ » فيجيب ابن آوى : « والله لا أعرف
بالضبط ، فنادرا ما أغير معطفى . . اننى أتجول بين التلال ، والله كريم
يا أخى ، فالشعر ليس من السهل نزعها .

(١٨) المقصود شركة الهند الشرقية البريطانية - (المترجم) .

(١٩) فيما أعلم : هذا ليس مثلاً عربيا ولا شعرا عربيا ، ولكنها طريقة بيرتون كممثل
لحضارة مستعمرة . انه يوقع بين العرب والهنود ، وبين الهنود والافغان ، وبين عرب
الجزيرة وأهل مصر - ولا يفتأ يفتش عن التناقضات - (المترجم) .

وا أسفاه على الرجل الانجليزى التعس أو الياشا أو الجندى الخاص الذى يجب عليه أن يخدم سيذا شرقيا • فإذا كان السيد هنديا ، فذلك هو أسوأ ما يمكن أن يكون ، فالهندي يكره كل الاوربيين ، كراهية ممزوجة بالفظاظة الشرقية والغدر والاستبداد • وحتى تجربة الاتحاد معهم هى تجربة يصعب تحملها • لكن يمكن استخلاص دلالات مفيدة من هذه الملاحظات ، وربما كان لدى قليلين تجربة أعظم من تجربتى ، ومع هذا فإننى أغامر بأبداء رأى بثقة مع انه قد يكون رأيا غير شائع أو غير ملائم •

اننى مقتنع أن أهل الهند لا يمكنهم احترام الأوربيين الذين يختلطون بهم بتألف أو الذين يقلدونهم فى عاداتهم وأحوالهم وأزيائهم • فالسراويل المحكمة والصوت الأمر وعدم المبالاه واللغة الهندوستانية المفروضة عليهم ، كل ذلك قد يؤدى بهم الى التعلم والأمانة ، الا أنهم غير شجعان فهم بالنسبة للسيد (أو الرئيس) ينحنون له كالعبيد Scythian الذين يواجهسون السيوف ويفرون من السوط • وهذه الحال ليست لدى الأفغان الشجعان مثلا • ودعنا نقرأ مع هويت بلوم White Plume هندي أمريكا الشمالية : « يشكل المحارب الهندى الأحمر فى عين الفتاة الهندية (من هنود أمريكا الشمالية) كل ما يتمثل فى الجندى من بنى جنسها من حيوية وبطولة ، فمشيته وزيه وشجاعته تضارع كل ما هو عظيم وأنيق فى الرجل الأبيض » فليس هناك الا سبب واحد لهذه الظاهرة فالهنود ما زالوا مع استثناءات قليلة شعبا جبانا ذليلا مما يجعلهم يرفعون من مقام أنفسهم بالانقاص من قدر الآخرين الذين يفوقونهم فى ميزان الخلق • أما الأفغان والهنود الأحمر فلكونهم جنسا يتسم بالشهامة والفروسية (٢٠) فهم يبالغون فى قوة عدوهم لأنهم بذلك يرفعون من شأن أنفسهم •

(٢٠) ماذا يريد بيرتون من الهنود غير أن يكرهوا ويحتقروا الانجليز الذين يستعمرون بلادهم • أما مدحه للأفغان فلأن انجلترا لم يرد استعمارها لتسكون منطقة عازلة بين مناطق نفوذ مختلفة •• (المترجم)

الفصل الرابع

الحياة في الوكالة

وصف الوكالة - وكالة خان الخليلى - وكالة الجمالية -
بيرتون يتقمص شخصية الأفغانى - محمد شفيق نصاب كبير -
مساوئ الحماية والامتيازات الأجنبية - ممارسة الطب - فكرة
« الواجب » عند الشرقيين - وصفة طبية - السم - الرقيق - حال
الفلاح المصرى مقارنة بحال العبيد - دكان العطارة •

تتألف الوكالة - وتسمى فى مصر أيضا الخان أو الفندق - من
المرافق وغرف الاسكان والمخزن • والوكالة فى القاهرة - مثلها مثل
الوكالة فى استانبول (القسطنطينية) - عبارة عن مبنى ضخم يحيط
بصدن (حوش Hosh) رباعى الزوايا • وفى طابقها الأرضى غرف
كأنها كهوف لتخزين البضائع ، ودكاكين لاختلاف الأغراض : حائكون ،
واسكافيون ، وخبازون ، وبائعو تمباك ، وبائعو فواكه (فكهانية) وغيرهم •
وتفتح كل غرف الوكالة على ممر مكشوف أو شرفة مغطاه ،
يحيط (الممر أو الشرفة) بكل الطابق الأول ، وأحيانا بالطابق الثانى •
وعلى أية حال ، فان الطابق الثانى عادة ما يكون معرضا للشمس والهواء •
وتتكون الوحدة السكنية فى الوكالة من غرفتين أو ثلاث ، وعادة ما تكون
هناك غرفة داخلية وأخرى خارجية ، وتشتمل الغرفة الخارجية على موقد
للطبخ ومكان مخصص للاستحمام وغير ذلك من الضروريات • وسلم
الوكالة مرتفع وضيق وفى الغاية من القذارة ، وهو مظلم ليلا ، وغالبا
ما تعوزه الصيانة • وثمة ماعز أو حمار مربوط على منبسطات السلم

المختلفة ، وتجد هنا وهناك جلودا طرية منشورة معدة للديبغ ، تذكر رائحتها الرحالة المتمرس برائحة المراحيض فى الفنادق الفرنسية العتيقة .

والغرفة الداخلية غير مؤثثة ، فحتى المشاجب التى تعلق عليها الملابس ، قد كسرت لاستخدام خشبها فى التدفئة ، وجدرانها عارية الا من بقع ، ومساكن عنكبوت كثيفة تشكل خيوطا تتسدى من عوارض السقف الخشبية السوداء ، أما الأرضية الحجرية للغرفة فعار حتى على أى سجن متحضر ، أما النوافذ ففتحات ضخمة أحكم إغلاقها بالخشب أو الحديد ، وفى مواضع نادرة ترى بقايا زجاج أو ورق ألصق على الهيكل الخارجى . ويشترك أفقر أنواع المسافرين والعبيد فى سكنى حوش الوكالة ، حيث ينعمون بالشمس ، ويهرشون فوق أكوام بالات القطن المرتفعة ، وغيرها من البضائع .

ان ذلك ليس صورة مغرية للوكالة ، ومع هذا فهى أكثر الأماكن توفيرا لجزء التسلية ، ففيها تتتابع المناظر التى قد تبهج عشاق مدرسة الفن الهولندية ، فهى مثل باهر لتنوع المشاهد البشرية والحيوانية الخريبة مما يطلق عليه الفنانون مصطلح « المشاهد القذرة التى تستحق التصوير » the dirty picturesque

وكانت وكالة خان الخليلى العريقة فى القاهرة الوطنية غاصة فلم اجد فيها مكانا لى ، فاضطرت لتحمل النزول فى وكالة الجمالية وهو حى يونانى a Greek quarter يعج بالمسيحيين السكارى ، لذا فهو قريب الشبه بشارع اكسفورد أو حديقة كوفنت Covent Garden . وحتى بالنسبة لوكالة الجمالية ، فقد كنت مضطرا لانتظار اسبوع حتى يشغل مكان لى . فأسراب الحجيج تغص بها القاهرة ، وليس من أحد ييمون وجوهم شطره سوى حاملى المفاتيح فى الوكالات والفنادق ، وهم قسوم ماكرون وبدونهم لن تفتح أبواب الغرف ، ويرجع مكرمهم لما سألكره من أسباب كافية . فعندما تدخل الوكالة فان أول ما يتحتم عليك فعله هو أن تدفع مبلغا بسيطا يتراوح بين شلنين وخمسة شلنات « حلاوة » المفتاح Miftah . وهو مبلغ — بشكل عام — يساوى ايجار شهر . وقد وجدت نفسى مضطرا للادعاء بأنى حاج تركى لأحصل على غرفتين مريحتين ، الا أننى علمت بعد ذلك أنهما مشهورتان بامراض المسافرين الذين تصابون بامراضهم فيهما . وكان يتعين على أن ادفع ثمانية عشر قرشا « حلاوة » المفتاح ، وثمانية عشر قرشا أخرى كإيجار شهر ، بالإضافة الى خمسة

قروش للفراش الذى يكنس المكان ويمسحه . وبهذه الطريقة وصل مقدار ما كنت أدفعه طوال شهر - أربعة بنسات يوميا .

لكنى كنت محظوظا بما فيه الكفاية لاختيارى وكالة الجمالية لأذننى وجدت صديقا هناك . فقد رآنى رفيق سفرى على الباخرة - جالسا بمفردى ولأنه لم يكن يشعر بارتياح ، فقد جلس الى جوارى وفتح على وإبلاصارا من الاستفسارات فى مختلف المجالات . لقد كان فى الخامسة والأربعين ، متوسط الحجم ، له رأس كبير مستدير حليق تماما ، ورقبة ثور ، وأطراف ثابتة كأطراف السكسون ، ولحية دقيقة حمراء ، وملامح طيبة تشع رغبة فى عمل الخير . ونكاته الجافة المغربية تشع كسيل من السخرية الا أنها هادئة للغاية ووقورة وجذابة . ان له طريقة ، قلما تستطيع التنبؤ بها قبل أن توثق علاقتك به .

لقد قال صديقى اكثر من مرة بفيض من الامتنان المظاهر بعد أن اكتشف مهنتى : « شكرا لله فان معنا طبيب » ، وقد تأثرت بهتافه التقي « شكرا لله » فقد أصبحت ملاحظته حقيقة واقعة بعد انقضاء بضعة أيام .

وبعد أن توثقت علاقتنا صرح لى قائلا : « انتم أيها الأطباء ماذا تفعلون ؟! » ان المرء يأتى اليكم شاكيا الرمد فى عينيه فتصفون له مسهلا ونقطة (تشريط الجلد قرب العينين) وقطرة !! فان اشتكى الحمى ! حسنا ! فالعلاج : مسهل . وكينين Quinine (كينا كينا ' Kina kina) ! وان شكا الدوسنتاريا وصفتم له مسهلا وخلاصة الأفيون ! والله اننى طبيب أفضل من أفضل طبيب منكم . » وأضاف وهو يضحك ضحكة عريضة : « حبذا لو اننى أعرف الدرهم والبرهم وقليل من أسماء الأمراض بالملغة العربية غير الفصحى » . لقد نصحنى الحاج والى (١) بهذه المناسبة أن أكل خبزى بتدريس اللغات بأمانة . وقال لى : « انكم اطباء مسخرة » ووجدت ما قاله صحيحا . وبعد أن عشت أنا وهذا الحاج فى مبنى واحد توثقت صداقتنا ، فخلال النهار كنا نتبادل الزيارات القصيرة باستمرار ، ونتناول غداءنا معا ، ونقضى المساء معا فى أحد المساجد أو أحد مساكن الترفيه العامة ، وقد بدانا - على استحياء - فى تدخين الحشيش

(١) يقول بيوتون ان هذا الاسم اختصار لاسم اهلول هو (ولى الدين) .

المنوع (٢) ، لكن حياءنا تلاشى تدريجيا وأصبحنا أكثر وقاحة وجراة في تدخينه . وكنا نثرثر - أثناء التدخين - عن العالم الذى رأيت حينرا منه ، وقد كان رفيقى - الشيخ والى - رحالة أيضا يعود لأصل روسى . وكان فى تجواله قد تخلى عن معظم الأحكام المسبقة التى يحتفظ بها الروس . لقد كان يهتف دائما بثبات لا يعرف التراجع : « اننى أشهد ألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله . ولا شيئا آخر » .

لقد كان يرفض الاعتقاد فى الجن والسحرة . وكان - حقيقة - يعاف حكايات الأعاجيب والخرافات ، وهو فى هذا لا يمتلك ذوقا شرقيا . وعندما دخلت الوكالة نصب نفسه مرشدا لى ليحمينى - على نحو خاص - من خداع التجار والحرفيين . وكانت نصائحه هى السبب فى تركى لجة الدراويش وسراويلهم الزرقاء القضاضة وقمصانهم القصيرة أو بمعنى آخر كل ما يتعلق بفارس والفرس ، فقد قال لى الحاج : « اذا اصررت أن تكون عجميا فستجد نفسك فى مشاكل ، فسينبذوك فى مصر ، وسيضربونك فى شبه الجزيرة العربية باعتبارك مخرفا زنديقا ، وستدفع مبلغا مضروبا فى ثلاثة للشئ الذى يدفع فيه سائر الحاج ثلث ما تدفع ، واذا سئطت مريضا فقد تلقى حتفك على قارعة الطريق » وبعد مناقشات طويلة عن اختيار الأمة التى ادعى الانتساب اليها أثناء رحلتى قررت أن أكون واحدا من الباتان Pathan (٣) ولد فى الهند من أبوين أفغانيين استقرا فى الهند وتلقى تعليمه فى رانجون Rangoon وأرسله أهله للتجول والطواف حول العالم ، فأبناء هذا الجنس تعودوا إرسال أبنائهم للتعرف

(٢) يسميه الهنود بانج (بالباء الثقيلة) ويسميه الفرس بانج (بالباء المخففة) ويسميه الهوتنتوت (أحد الأجناس الأفريقية السوداء داكها Dokha ويسميه النوبيون فاسوخ Fasukh وحتى فى سيبيريا - كما يقولون - يستخدمون بذوره للنخدير باستنشاق بخارها بعد وضعها على حجر ساخن . وقد تفوقت مصر على سائر الأمم فى تعدد طرق استخدامهم (ملخص عن بيرتون) ويستمر بيرتون فى التأريخ للحشيش ، فالرجل كان خشاشا ومدمنا للأفيون كما ذكر فى أكثر من مكان فى رحلته هذه - (المترجم) .

(٣) يقول بيرتون أن الباتان هو الاسم الهندى للأفغان ، وهذا غير صحيح ، وفى باكستان الحالية باتان ، وفى أفغانستان الحالية عناصر غير الباتان ، وليس كل أفغانى باتانى بالضرورة . فالباتان مجموعة عرقية فى باكستان (الهند سابقا) وأفغانستان . ويظن بيرتون أن كلمة الباتان قد تكون مشتقة من الكلمة العربية « فاتحين » أو كلمة هندية تعنى الغزاة . ويقول بيرتون أن الباتان عناصر محترمة فى شبه الجزيرة العربية ، على عكس الخرسانيين الذين قد يظن الناس أنهم فرس (شيعة) . ويقول بيرتون أن هناك قبائل أفغانية أخرى كقبيلة سليمانى التى تذكره بالمثل « سليمانى حرامى » . وهكذا لا يكف بيرتون عن التفتيش عن التناقضات - (المترجم) .

على العالم فى شبابهم الباكر . وقد كنت محصنا جيدا من خطر أن يتضح
أمرى لأحد من رفاق السفر من أهل الباتان ، فلكى أتقن تقمص شخصيتى
هذه لأبد من معرفة الفارسية والهندوستانية والعربية وكنت أعرفها جميعا
بقدر يكفى لتجاوز أى امتحان . وأى خطأ بسيط أقع فيه قد يرجع الى
اقامتى الطويلة فى رانجون Rangoon . لقد كانت معرفة هذه
اللغات خطوة مهمة فأول سؤال يواجهك عند أى محل تجارى أو وانت
راكبا جملا أو فى المسجد هو : ما اسمك ؟ أما السؤال الثانى فهو :
من أى البلاد أنت ؟ ولا تبدو - عموما - هذه الأسئلة وقاحة أو تطفلا ، كما
لا تبدو أسئلة يقصد بها توجيهها الازعاج ، الا أنك - بوجه عام - اذا
احسست بسوء طوية السائل فيمكنك أن تسأله بحدّة : « ما اسم أمك ؟ »
وهو سؤال يماثل سؤالك للانجليكانى Anglice : « فى أى كنيسة
تزوجت أمك ؟ ! » ثم تغطى هروبك مما قد ينتج من مشاكل بعاصفة من
الغضب . الا أن هذا التصرف نادرا ما يكون ضروريا . لقد توشحت
بوشاح الأدب وتسربت بالمطباع المرنة لطبيب هندى ولبست لبوس أفندى
صغير وظللت مع هذا أهيمى نفسى لأكون درويشا وظللت ارتاد باستمرار
أماكن لا يعرف فيها أحد اسمى ، الأماكن التى يتجمع فيها الدراويش ،
وسألنى الحاج والى : « ما عمل هؤلاء الرجال المبجلين ؟ وما
دورهم السياسى ؟ وأى احصاءات يجمعون ؟ وبعبارة
أخرى ما هى المعلومات التى تجمعونها ؟ » سم نفسك متدينا جوالا اذا رغبت
ودع الذين يسألون عن هدف رحلاتك وتجوالك يعرفوا أنك نذرت للرحمن
زيارة كل الأماكن الاسلامية المقدسة . وبهذه الطريقة سوف تقنعهم أنك رجل
من طبقة تحت السحاب وسوف يعاملك الناس بلطف وكياسة - ربما - أكثر
مما تستحق » وأنهى صديقى ملاحظته بضحكة خشنة . وقد تأكدت حصافة
هذه الملاحظة ودلالاتها على تجربة واسعة لم أجد ما يجعلنى آسف على
الأخذ بها .

وقد اصطحب الحاج والى وهو تاجر سكندرى خدابخش
Khudabakhsh الهندى الى القاهرة فى تجارة وسرعان ما شرح لى
أموره ، ولأن حالته توضح بعض الخصائص الشرقية ، فاننى أقدم قليلا
من تفاصيلها بعد استئذانه .

لقد كان صديقى مدافعا فى دعوى قضائية رفعت ضده فى المحكمة
القنصلية بالقاهرة ، وكان صاحب الدعوى يدعى محمد شفيق وهو وغد
من الدرجة الأولى . لقد عاش هذا الرجل معيشة رغدة بإدارة الأعمال
فى أماكن لا يعرف فيها أحد اسمه ، وقد ورط عديم الخبرة بعروض مالية
مأكرة وبعد أن نجح فى الحصول على قرض غير محل أقامته بعد أن نقل

معه كل ما طالت يده . لكن فى البلاد غير المتحضرة يعتبر الخداع (النصب) مسألة شخصية فالقانون يعاقب المدينين غير القادرين بفترة سجن قصيرة ، لذلك فان المخدوعين يفضلون استرداد حقوقهم بالسرقة والسكين . ولهذا فان محمد شفيق بعد سلسلة من الهروب لفترات قصيرة ، اكتشف حيلة ممتازة ، فرغم أنه كان معروفا أنه من بخارا Bokhara وكان يوقع عن نفسه بهذه الصفة وكان مظهره ينبئ عن أصله - إلا أنه قرر أن يحمي نفسه تحت مظلة جواز سفر بريطاني . ولا يراعى موظفونا البريطانيون - فى بعض الأحيان - الدقة الكافية فى توزيع هذه الوثائق (جوازات السفر) وبهذا الاهمال يعرضون أنفسهم لسوء السمعة فى المحاكم الشرقية . وظل محمد شفيق يجد بعض الصعوبات فى تنفيذ خديعته . وقد اذعج القارئ ان رويت تفاصيل كل خداعه وأفعاله الثعلبية ، لكن يكفى أن أقول أنه نجح فى أن يثبت أنه غير مدان بفضل توجيه تابعيه فى القنصلية . . . وتوجه بجسارة الى جدة على ساحل شبه الجزيرة العربية مسلحا بدفاعه الجديد (جواز السفر) ودخل فى شراكة مع الحاج والى الذى وثق به لصلاته وصيامه وحجه ، ففتح معه بابا للتجارة فى العبيد بارسالهم للاسكندرية للبيع وكتب بوقاحة منقطعة النظير لشريكه أنه سيتصرف فى العبيد بشكل شخصى مخافة فقد جواز السفر البريطانى والحماية البريطانية .

وسرعان ما تسببت مغامرة غير محظوظة فى توريط هذا الرعية البريطانية الفاضل (محمد شفيق) مع فرج يوسف كبير التجار فى جدة وكان بدوره تحت حماية انجليزية . فخاف محمد شفيق من خصمه شديد البأس (كبير تجار جدة) وحزم مسروقاته ومنهوباته وغادر جدة الى مصر . وسرعان ما دخل فى نزاع مع شريكه السابق (الحاج والى) ظلما منه أنه رجل هين وأدعى أن له عنده ١٦٥ جنيها استرلينيا وأيد ادعائه بوثيقة وأربعة شهود زور كانوا مستعدين للقسم بأن الحاج والى قد وقع الايصال وختمه بخاتمه واستلم النقود المشار اليها آنفا ، فقام الحاج والى بتقديم دفاتره ليبين أن حساباته صحيحة واستطاع أن يثبت أن شهود محمد شفيق فقراء معدمون ومن هنا فان شهادتهم غير شرعية كما أن كل واحد منهم قد تلقى دولارين من المدعى (محمد شفيق) ثمنا لشهادة الزور .

والآن فلأن هذه القضية كانت قد نظرتها المحكمة التركية ، فقد ثبت - عن طريق ضرب القدمين بعد ربطهما بالفلكة - أن الحاج والى كان

تاجرا محترما ، أما محمد شفيع فمحتمل سوء السمعة • الا ان محمد شفيع كان من المرعايا البريطانيين مما أثر فى مجريات القضية بشكل ملحوظ وكى بسبب محمد شفيع لخصمه مزيدا من الازعاج فقد صعد القضية للقاهرة وبدأ اجراءاته هناك مطالبا باستلام جزء من المبلغ الذى يطالب به فبمجرد وصوله للقاهرة مارس بجرأة تقديم الرشاوى لكل من سيكون ذا نفع له فقد وزع الشيكلان (جمع شال) والقروش ببذخ واستعان بمحام قدير وليس لبوس المتقوى فقضى شهر رمضان صائما ، وضى بخروف لاطعام الفقراء •

وفى هذه الاثناء فان الحاج والى وهو رجل بسيط وصادق لم يستطع ابدا ان يكون ساخنا وباردا فى الوقت نفسه (لم يستطع اتقان فن الخداع) فحشه خدابخش - الهندى المراوغ - ليذهب للقاهرة ليتابع الأمور واعداد اياه بان يقدمه لأشخاص ذوي نفوذ كما وعده ان يستقبله فى بيته حتى يدبر لنفسه اقامة فى الوكالة • لكن محمد شفيع الذى كان شريكا لهذا الهندى المخادع (خدابخش) استطاع بالتوسل مرة وبالتهديد مرة أخرى ان يقنع خدابخش بالانفراد بلقاء الأشخاص ذوي النفوذ • عندئذ ظهر على مسرح الأحداث الحكيم عبد الله خادمكم المتواضع (٤) فالحكيم عبد الله كان قد سافر لبلاد الفرنجة وتعامل مع كثير من رجالهم ورأى كثيرا من مدنيهم ، وأصبح صديقا وناصحا للحاج والى ، واكتشف الحكيم عبد الله المسارب الشيطانية فى حياة محمد شفيع • وقد خجل خدابخش من صنيعة أو بالأحرى خاف ، فجمع أصدقاءه الهنود ونبههم • ورفع الحكيم عبد الله التماسا الى السيد والين Waive قنصل بريطانيا باسم التجار الهنود وغيرهم من المقيمين فى القاهرة - أخبره فيه عن محمد شفيع وميلاده وشخصيته الحقيقية وعمله وأنه تاجر رقيق وقدم البراهين على كل تأكيدات ، وتوسل الى القنصل حفاظا على السمعة الطيبة أن يسحب جواز السفر البريطانى من محمد شفيع ، وختم كل الهنود بأختامهم على هذا الالتماس • وعندئذ هدد محمد شفيع بضرب الحاج والى ، ولم يكن الحاج والى صخابا وإنما كان رجلا ذا ابتسامة هادئة فطلب من أصدقائه أن يبعدوه عنه •

(٤) أى الدكتور عبد الله وهو بيرتون نفسه الذى يتحدث عن نفسه كثيرا بضمير الغائب - (المترجم) •

وقد يفترض الانسان أن مثل هذه الوثيقة قد تثير بعض التساؤلات .
لكن الحاج والى كان يتمتع بالحماية الفارسية وكانت الاتصالات بين
القنصلين (البريطانى والفارسى) قبل تقديم الالتماس آنف الذكر . ان
الرعايا البريطانيين الزائرين يعتبرون كالرعايا الحقيقيين ويجب حمايتهم .
والقناصل كالمملوك قد يخطئون وان كان يتحتم عليهم غير ذلك . وعلى
أية حال فلم يلتفت أحد للالتماس المهندي (الذى قدمه الحكيم عبد الله)
ولم يجر استجواب عن الأمور المتعلقة بتجارة الرقيق لأنه قد اتضح ان
جواز السفر الممنوح لمحمد شفيع قد صدر من القنصل العام وبالتالي
فلا يمكن وفقا للأعراف الرسمية أن يسحب القنصل .

وهكذا عادت الأمور سيرتها الأولى فقد قدم محمد شفيع مبلغ ٥٠٠٠
قرش لمترجم القنصل الفارسى وقد رفضها بطبيعة الحال ، الا أن أمور
الحاج والى - على أية حال - بدأت كلها تسير فى الطريق غير الصحيح .
فقد أسيئت ترجمة تقريره وأسيء فهم حساباته ومبرراته وتم تعويق القضية
وضاعت فى متاهات التأجيل المريب . وعندما غادرت القاهرة كان الحاج
والى قد ابتعد قرابة الشهرين عن أعماله وأسرته رغم أن الطرفين أظهرتا
رغبة فى حل النزاع عن طريق التحكيم لأن الموارد المالية للمدعى (محمد
شفيع) كانت تتناقص بسرعة وعندما عدت الى القاهرة من شبه الجزيرة
العربية كانت الأمور لازالت على حالتها ، وعندما بدأت رحلتى للهند
فى يناير لم تكن اجراءات القضية قد انتهت .

هذا موجز تاريخى - لكنه شائع جدا - لحالة يجد فيها أحد رعايا
الدول الشرقية نفسه يعانى ويكافح ضد النفوذ البريطانى . ومما لا شك
فيه أنه من الشرف أن ندافع عن المتمتعين بحمايتنا ضد المظلم لكن ذلك
لا بد أن يرتكز على دعائم من الأمانة والشرف ، ان أسوأ ما فى هذه
القضية أن الطرف المتضرر لم يلق الانصاف فشعار الحماية الطبيعيين
للحاصلين على الحماية هو انتهاك القانون لارضاء غرور موظف انجليزى
تافه (٥) فبأى وجه نستخدم الشعار الوطنى عندما يريد تركى عاثر الحظ
أن يستأنف الدعوى لدى السلطات العليا ؟ كيف يصل لوزرائنا فبرلماننا ؟
فمن المنادى أن يكون أصحاب الدعاوى من طبقات اجتماعية عليا أو من
نوى الثراء حيث تفرض المرتبة الاجتماعية والثروة - الاحترام .

(٥) استشهد بيرتون فى هذا الصدد بهذا النص : *Plat injustitia, ruat Coelum.*

وبعد أن دبرت لنفسى إقامة طويلة فى الوكالة أصبح هدفى الأول أن أتجول فى العالم (المقصود أن أتجول فى القاهرة) ففى أوروبا قد يعلن طبيبك المسافر عن فقد خاتم من الماس أهدها اليه حاكم روسى مستبد أو تشغل أخباره عمودا كاملا فى صحيفة ، وربما تقاضى اجرا مجرد التوقيع ويمتلك أطباقا نحاسية كبيرة وعصا غطى مقبضها بالذهب ، ويركب مركبه بعجلات أربع ذات قعقة رتيبة ويتلقى الدعوات لاكمال عمله .

أما هنا (فى بلاد الشرق) فليس أمام الطبيب هذا الطريق الملكى (المفروش بالورود) لاكتساب السمعة الطيبة إذ يجب عليك أن تبدأ - كطبيب - بالجلوس مع البواب ذى العينين « المعصتين » الدامعتين ، فتقطر له فيهما قطرات من نترات الفضة وأنت تهمس فى أذنه بمعلومات سارة وهى أنك تعالج الفقراء مجانا . ويشقى البواب فتنتشر أقواله عنك طولا وعرضا فيزدحم بابك بالفقراء . أنهم يأتون اليك كما لو كنت خادمهم فإذا شفوا أداروا ظهورهم لك للأبد . والأطباء الأوروبيون يشكون عادة من نكران الجميل من جانب مرضاهم الشرقيين . أنه لأمر حقيقى أنك إذا أنقذت حياة انسان فمن الطبيعى أن يسألك عن وسائل الحفاظ عليها . وأكثر من هذا فليس فى لغة أى بلد من البلدان الشرقية التى عرفت تعبيرات تفيد معنى الامتنان ، كالتعابير التى نعرفها فى أوروبا باستثناء الألمان الذين لديهم أفكار يصعب شرحها بالكلمات . لكن يجب ألا ننكر على الشرقي مسلكه هذا دون معرفة السبب ، فهو يعتقد أن له حقا فيما يفيض عنك فهو يؤكد لك أن الله قد قسم الخبز اليومى بين الناس « قد قسم الرزق » فهو يأكل رغيفك ويعتبر ذلك حقا له ، وهو يشكر الله على نعمائه وعندما تزجى اليه خدمة فأنت لم تفعل سوى ما يتحتم عليك عمله وقد لا يقدم لك - لقاء هذا - الا مديحا بسيطا أو يدعو لك بايجاز بطول العمر . وهو يعبر عن شكره بقوله : « كثر الله خيرك » وإذا كان انانيا قال : « مد الله ظلك » أى ظلك الذى يحتوى به هو وأتباعه وقد يكون هذا آخر ما تسمعه منه .

أن هذا لا يدعو للارتياح فهذا البرود الميتافيزيقى الذى يصب فى قالب عقلى ، يتناقض بشكل بشع مع دفة الكرم . وانى أقول أنه من الناحية النظرية - وليس العملية - يحب الانسان أن يقابل وده بود مثله ، لكن الشرقيين لا يطبقون فكرة الالتزام (الواجب) كما نطبقها . فأى شئ أكثر ازعاجا من أنك عندما تجبر انسانا على توجيه النقد الشديد لنفسه بحصولك على شكر أسرته لك ، لتجد نفسك وقد أصبحت سيذا بعد أن كنت صديقا له ، ورجلا عظيما بعد أن كنت ندا له ؟ يجب إذن ألا تكون ودودا مجاملا إذا جعلتك هذه الاعتبارات تحول بينك وبين تقديم العون لصديق ،

وأكثر من هذا فاننى أقول رأى المتواضع بأنك ان قدمت معروفا لشخص فعليك أن تبقى خائفا من احساسه بالامتنان *

وباختصار فعندما ترفعك جماهير الغوغاء الى مرتبة الشهرة فان المرضى من الطبقات الأعلى درجة سيظهرون ببطء على مسرحك *

وبعد بعض الدلال عن الاتيكيت المتعلق بما اذا كنت اذنت البذى ستزورهم أم أنهم هم الذين سيحضرون اليك ، ويقعدون عقولهم لرؤية أحوالك وليحكموا بعيونهم على مدى الثقة فيك ، ومن ناحية أخرى فانك تبدو متيقنا من أنهم سيأتون اليك ذات مرة عابرين نهر روبيكون Rubicon « سيعبرون النهر فجأة طلبا لك » وبتعبير أقل كلاسية فانهم سيبتلعون ما تقدمه لهم من دواء . واذا زرت منزل أحدهم فعليك بالتركيز على خدم المريض الذين يحضرون اليك ، ويجب أن يقدم لك حمارا ليكون تحت امرتك حتى لو أوصلك للجانب الآخر من الطريق . كما يجب أن تراعى أن يتحتم على تابعك أن يكون مستعدا للملاجابة عن خمسين سؤالاً من أسئلة البحث والتحرى فى صالة الخدم ، كما يجب أن تنزل من فوق « بردعة » الحمار بتؤدة غير الخبير « بالبرادع » والحمير . وعندما تصل السلم ترعاه بوقار، وعند الوصول لغرفة المريض تحيى الحضور بقولك : « السلام عليكم » فيأتيك الرد : « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ثم تقول مخالفسا الحقيقة : « لا خطر ، ما فيه الا العافية » فيكون الرد : « الله يعطيك العافية » فلكل اشارة أو كلمة هنا رد . ثم تجلس وتعرف الحضور بنفسك بأن تنحنى وترفع يدك الى جبهتك وشفقتك فيرد كل واحد من الحضور بايماء كإيماءتك ثم يأتى دور السؤال عن صحتك ويسألونك عما تشرب وقصد تطلب شيئا غير موجود بالمنزل ، الا أنك - أخيرا - تطلب طلبا خشنا هو شيشة وفنجان من القهوة ، ثم تتجه للمريض الذى يمد ذراعه اليك ويسألك عن سر الألم ثم تفحص لسانه ، وتتحسس نبضه وتبدو عليما وتترك المريض يملأ الوقت بالكلام وبعد سماع قائمة طويلة بكل علله تبدأ أنت فى اكتشافها وكأنك تسير على طريق ملىء بالحصباء وبذلك ينهال عليك المديح . وأنت بذلك تكون قد فعلت كما يفعل العالم بفراسة الدماغ المتمرس - بشيء من التدريب - على الاستنتاج . والمرض - كى يكون جديرا بهذا الاسم - يجب أن يرتبط بأحد الأمزجة الأربعة temperaments أو العناصر الأربعة أو اخلاط أبقراط humours of Hippocrater . ان الشفاء يسير لكنه سيستغرق وقتا وأنت (أى الطبيب) يتعين عليك الانتباه فان أى تجاوز بسيط لتعليماتك يمكن أن تقابله بالعقاب بأن تغير حيات الدواء أو المسحوق،

فالجهل هو شرف المهنة فلن يرضى أحد باغضابك ، وإذا كان عليك أن تعالج أحد اصحاب المهن من أهل البلاد فيجب أن تنتقل أخيرا لاكثر مراحل الزيارة ازعاجا وهي مرحلة مذاقشة الأتعاب . فليس من شيء أكثر مدعاة للشك فى قدرة الطبيب من اهماله فى المطالبة بأجره . لقد عالجت ذات مرة تاجرا حصرميا ثريا من الروماتيزم وأهملت طلب أجرى فسرق أحد اقداح الشاي الخاصة بى ، وظل فى حالة تعجب مستمر ، بسؤاله : من أى البلاد أتيت؟ إذا فقد طلبت منه خمسة قروش فالتقى بها على السجادة وهو يلعن جشع الهنود . وقال صديقى الحاج والى عندما سمع بذلك : « انك سوف تسبب له مرضا آخر » والأجرة التى يدفعها مريض محترم هى عشرون قرشا ، أما بالنسبة للمريض الثرى فانك تبدأ معه بالمساومة ، فان كان يشكو - على سبيل المثال - من الزحار (الدوسنتاريا) وعرق النسا ، فاطلب عشرة جنيهات استرلينية للزحار وعشرين لعرق النسا . لكنك نادرا ما تأخذ ما تريد . فالشرقى يدفع أجر الطبيب وهو متضرر . واعلم أن مريضك سوف تتجلى له علامات مؤكدة على نقاهته فيضحك ويظل يسخر طوال النهار . فإذا ظهرت أنت له شرع فى التوجع وظهر الاشمئط على ملامحه وتظاهر بالشكوى وهو يرحب بك . وفى هذه الحال عليك أن تلقى بعض العبارات التى تحمل ايماءات أو معانى معينة كقولك : « دنيا رميم ما يجرى وراءها الا الكلاب » ثم عليك أن ترفض علاج الأعراض الثانوية أو الآلام الأخرى التى قد تعيد العنيد الى صوبه ، وعلى أية حال فثمة شجر غريب يفيد أن « كل ما يفعله جالينوس هو أنه يدل مريضه على ضرورات الحياة » . ولا بد أن يكون ما تصفه من دواء جامدا ملموسا ماديا ، وتحسن فعلا كلما جعلت العلاج يسبب للمريض بعض الألم كأن تشرط جلده أو تحكه بفرشاة تنظيف الخيل (٦) .

والشرقيون مثلهم مثل فلاحينا فى أوروبا يرغبون فى استدعاء الطبيب « ليعرفوا قيمة نقودهم » ، كما أنهم يتصورون أن العلاج القاسى المؤلم يؤدى للشفاء فقد كان طبيب الملك الفارسى يعالج الحمى بالضرب «بالفلكة» ، وكان المرضى فى بغداد « يخبزون » فى الأفران لتحقيق الشفاء ، والمصرى فى الاسكندرية يلجأ الى بعض شيوخ العرب لكيه على أم رأسه كعلاج من حمى الربيع التى تستعصى على أقوى أنواع العلاج فى أوروبا . وعندما تجهز

(٦) حدثنا الرحالة بوركهارت عن الاطباء الاوربيين فى الشرق فأسف لان عددا كبيرا من الاطباء الافاقين تزدهم بهم بلدان الشرق : رحلة بوركهارت فى شبه جزيرة العرب . ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ وعبد العزيز الهلبى .

الدواء ويصبح فى قبضة يدك ، ضع منه ست حبات كبيرة من أقراص الخبز ، وانقعها فى الصبر (الصبار) أو محللول القرفة منكهة بالحليب - الذى يعد علاجاً كافياً لسوء الهضم - وإذا كان المريض الذى يتناول هذا العلاج لا يقصد الحمية وإنما العلاج فلا بد أن يقول أثناء تناول الدواء : « بسم الله الرحمن الرحيم » وبعد تجرعه يقول : « الحمد لله الشافى المعافى » وبعد ذلك على الطبيب أن يحضر ورقاً وقلماً ويكتب « وصفة طبية شافية » كالتالى :

(٧) ١

« بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه أجمعين ، وبعد ذلك دع المريض يتناول عسل النحل والقرفة وزلال البيض album graecum ، نصف جزء من كل منها ، وزنجبيل ، جزء كامل (٨) - ويطحن الزنجبيل ويخلط بعسل النحل ويشكل على هيئة أقراص أو مضغات « بلابيع » يزن كل قرص مثقالاً Miskal ، يتناول المريض قرصاً على الريق (قبل الإفطار) . والحقيقة أن نتائج هذا العلاج مبهرة ويأكل المريض سمكا ولحما وخضروات وحلوى بالإضافة للأطعمة التى تملأ البطن Flatulent food وحمضيات من كل الأصناف . ويستحم المريض ويعيش دون توتر ، وبذلك سيشفى بمساعدة الملك الشافى ، والسلام » .

ونادراً ما أحتاج للقول أن الحمية لابد أن تكون صارمة ، فلا داعى لذلك . وليس أكثر ازعاجاً من أن تفرض نظام العلاج الأوربى على أهل الشرق دون مراعاة لطرائقهم الخاصة فى العلاج ، فالهندي عندما يتناول دواءه ، يكون قد أعد نفسه لتناوله بالحمية والراحة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة . وبعد تناول الجرعة يشرع بالتدريج فى العودة لعاداته المعتادة ، فإذا كسر الحمية أو أفطر بعد صوم (بشره) فإن ذلك يؤدى لنتائج سيئة بالتأكيد . وكان المصريون القدماء - كما أخبرنا هيرودوت - يخصصون عدة أيام من كل شهر لتناول حبوب التغيير alteratives (قد يكون المعنى تناول مسهل أو شربة أو تغيير نوع

(٧) هذا الحرف يكتب فى رأس الوصفة الطبية . إنه الحرف الأول من لفظ الجلالة (الله) أو « الحرف الأول من (الألفباء - أو الهجائية العربية) يستخدم منذ زمن طويل للإشارة لأصل الخليفة ، هاله - سبحانه - هو الأول والآخر . (بيرتون)

(٨) أى بنسبة ٢ الى ١ : نسبة ٢ : للزنجبيل ، ونسبة ١ تمثل العناصر الأخرى . (المترجم)

الطعام (أما الفرس فكانوا يغلقون على أنفسهم فى حجرة دافئة بمجرد استيقاظهم (على الرقيق) ويظلون فى هذه الغرفة عراة مع الحفاظ على أنفسهم تماما من البرد ، ويشربون فى هذه الأثناء ماء فاترا • وعندما يجد الأمراء الأفغان من الضرورة استخدام جذور الجنسنيج (أو الجذور الصينية وتسمى أيضا شوشيني Chob-Chini) وهى جذور نباتية ذات شهرة كبيرة كمطهر ومقو عام ومثير للشهوة الجنسية (فانهم - أى الأمراء الأفغان يختارون لذلك فصل الربيع فيذهبون الى أحد البساتين حيث الزهور والأشجار وحيث خريز مياه القنوات والجداول - لتهدئة أعصابهم ومشاعرهم ، ويتجنبون المتاعب والمشاكل بمختلف أنواعها ، ولا يقرءون حتى خطايا مخافة أن يحوى أنباء مزعجة •

وبعد كتابة الوصفة الطبية عليك أن تختتمها بختمك فى بدايتها ونهايتها حتى لا يتمكن أحد من حذف شيء أو إضافة شيء • وعند ارسال الدواء الى مريض من الأعيان له أعداء ، فلا بد أن تأخذ حذرك (على نحو ما أخذت حذرك عند كتابة الوصفة الطبية) مخافة فتح صناديق أو قوارير الدواء ، فان أحد الباشوات الذين عالجتهم احتفظ بصورة شمسية طبق الأصل من ختمى ليقارنه بالختم الذى أضعه على قوارير الدواء : وقد كان هذا الباشا مقاتلا شجاعا أثيرا لدى محمد على ، لذا فقد عزله خليفته • والناس لم ينسوا كيف أنه فى فترات سابقة عانى الذين تعرضوا للدولة بما هو ضار - لآلام مفاجئة مميتة فى الأمعاء • لذا فان على الطبيب أن يتخذ الحيطة والا فان كل النتائج السيئة يمكن أن تقع على رأسه أو يتعرض للانتقام أسرة المصاب •

ورغم أن القاهرة زاخرة بالمعاملين فى مجال الطب الا أنها يمكن أن تنجب مزيدا منهم • ومع هذا فلنسى يزدهر عمل الطبيب ويحظى بالشهرة لابد أن يكون هنديا أو صينيا أو من بلاد المغرب • والمصريون لا يحترمون طرق العلاج الأوربية جملة وتفصيلا كما هو الحال فى الهند • والمصريون يجهلون الطب الهندى لذا فهم يقدرونه تقديرا كبيرا ، وربما كان ارتفاع شأنه بينهم أنه بسيط ويعتمد على الحمية ، بالاضافة الى أن الهنود يتعاملون بالأحجية والتعاويذ وهى أمور بدأ الناس يعتقدون فى تأثيرها وجدواها فى كل مكان حتى فى أوربا • والرحالة الذين لا يبهرهم البرق والرعد على ضفاف نهر السين ، كما لا تبهرهم خفقات التنويم المغناطيسى أو ألعاب المائدة السحرية - يرون فى التتار المتوحشين وفى أهل التبت شيئا فوق الطبيعة وشيئا شيطانيا فى شيفا Sci-fa of the Bokte وبعض الأذكىاء الذين ينظرون اليهم أصدقاؤهم كفلاسفة يقعون فى حبال تعاويذ سحرة القاهرة ذوى العمائم واللحى • وفى مستعمراتنا بغرب أفريقيا يطلق مصطلح « الانتحاء للسواد »

أو « النمو الأسود » على الاستعماريين البيض الذين أصبحوا متشبهين تماماً بالخرافات المتعلقة بالأرض (أو الخوف اللاعقلاني من الأرض) بعد فترة من الإقامة هناك . والعناصر الهندو أوربية وهم قوم أنكياء قد سجلوا فى حكاياتهم وعقائدهم إيماناً راسخاً بأمور صيبانية يصعب حتى على الهندوس تصديقها . وقد كنت أستطيع استخدام المغناطيسية الحيوية animal magnetism كالهندود . وعلى أية حال فقد كنت حريصاً أن أعطى العلم مظهراً غيبياً خادعاً . وقد أظهر الحاج والى الذى كان من الأخذيين بمبدأ الشك الإيجابى قلقاً ونصحنى ألا أمارس التنويم المغناطيسى الحقيقى والا أصبحت يقينا « رفيقاً للشياطين » . لقد قال لى صديقى : « يجب أن تسمى ما تقوم به سرا هندياً لأنه من الواضح أنك لست من المشايخ ، وسيسأل الناس : أين الدواء الذى تقدمه ، وما شأنك أنت بالتعاونيد والرقى » ولم تكن هناك فائدة من أن أقول له أننى أتبع خطى هذه الجماعة من المشايخ ، فحتى المرضى قد يعتبرون أنفسهم من المريدين لى ومن ثم يبتهجون بتقبيل يدي كصاحب « نفس » وهو ما يعنى أننى « شيخ فى رتبة دون الرلى » . وقد كافأنى الحاج والى على انقيادى له وطاعتى إياه بأن راح يبالغ فى كل مكان واصفا إياى بأننى زينة الأطباء . وكانت أولى نجاحاتى فى الوكالة ، فقد كان يسكن قبالتى تاجر رقيق عربى سقطت جوارية الحبشيات مريضا الواحدة تلو الأخرى . انهن من جنس واهن ضعيف ، فقد عانين عند وصولهن الى مصر للمرة الأولى لتعاب صحية كثيرة خاصة من السسل والزحار (الدوسنتاريا) والدوالى وقد نجحت فى علاج الجارية الأولى التى كان ثمنها يبلغ خمسة عشر جنيها على الأقل ، وكان عرفان مالكها لفضلى كبيرا ، وكان على أن أقدم الدواء لست جوار أخريات لمعانتهن من الأنيميا والشخير أثناء النوم الأمر الذى يقلل من أثمانهن . وكانت معيشة الجوارى فى الغرفة المواجهة لى ورؤيتى لهن طوال ساعات النهار والليل قد أتاحت لى فرصة كبيرة لدراسة أحوالهن . لقد كن منالا لسلسلة الحبشيات المتأليات (ذوات الالية أو العجيزة الكبيرة التى يتراكم فيها الدحم) وكن ذوات أكتاف عريضة ونحيلات الخصور ورققات الشفاه ، أما أردافهن فمن الحجم المعتبر . وليس لأية واحدة منهن ملامح جميلة ، فالشعر قصير جعد ، يقف فى مؤخرة رؤوسهن مختفيا تحت مناديل الرأس ، وإن كن لم يعدم بعض الجمال فى حواجبهن وعيونهن والجوانب العليا من أنوفهن . ولهن شفاه متدليلة عطشى وافكاك ضخمة وأفواه بارزة ، إلا أن الواحدة منهن - بشكل عام (دون تدقيق فى ملمح معين من ملامحها) فيها مزيج من الحرافة والحلاوة . وأسلوبهن فى هز الجسم

مميز . وإذا قلت لاحداهن ولتكن مريم : « يا لك من جميلة يا مريم .
 ما أجمل عينيك !! ما أحسن . . . » فقد تجيب : « ألا تشترينى ؟ »
 عقيدتنا واحدة تحقق السعادة لكلينا لم لا تشترينى ! « فأقول : « صدقينى .
 يا مريم . . . مباركان هما القليان . . . » فتقول : « اذن لماذا لا تشترينى ؟ »
 وهكذا يستمر الحوار مما يعد غصة فى حلق كيوييد تخرس بلاغته .
 ومع أن رد مريم لم يكن مباشرا صريحا ، فانه غالبا ما يكون من قدرنا
 فى الغرب - كما فى الشرق - أن نرى فى العيون البراقة وأن نسمع من
 الشفاه الوردية تلميحا - ان لم يكن تصریحا - هذه العبارة : « لم لا
 تشترينى ؟ » بل وأحيانا : « لم لا تستطيع شرائى ؟ » .

وكان كل ما طلبته مقابل خدماتى لتاجر الرقيق أن يأخذنى معه فى
 جولة بالمقاهرة وأن يشرح لى أسرار مهنته فعرفت معلومات قد تكون مفيدة
 عندما يحين سياق سردها . ولم يشك الرجل الا قليلا فى حقيقة سائله ،
 وراح من خلال عدم ارتياحه هذا يتناول موضوع الرقيق الذى يتم
 اصطياده من مناطق الصومال وزنجبار ، كما راح يتناول كل الموضوعات
 ذات الأهمية الفائقة بالنسبة لى . وعلى أية حال ، فهو لم يذكر جديدا
 يستحق أن أسجله عن الوضع الحالى لوكلاء الرقيق فى مصر . لقد
 عرف الانجليز لتوهم أن العبيد ليسوا بالضرورة أكثر الناس بؤسا وأحطهم
 مرتبة . فهناك من لديه الشجاعة الكافية ليخبر الشعب الانجليزى أن
 الرقيق فى بلاد الشرق عامة ، يأكل أفضل بكثير من الخدم أو حتى من
 أفراد الطبقات الدنيا ممن هم ليسوا عبيدا ، وهذا أمر حقيقى . « فالشريعة
 الاسلامية تلزم المسلمين بمعاملة رقيقهم برقة بالغة ، والمسلمون - بشكل
 عام - حريصون على الأخذ بتعاليم نبيهم . فالرقيق يعد فردا من أفراد
 الأسرة ، وفى البيوت حيث يوجد الخدم الأحرار ، نادرا ما يقوم الرقيق
 بأى عمل خلا تعمير الشيشة (حشوها بالتمباك) ، واعداد القهوة ،
 ومرافقة سيدهم عند خروجه ، وتديلهم قدمه عندما يستريح فى القيلولة
 وذب الذباب عنه . وعندما لا يكون العبد راضيا بمعيشته فقى وسعه أن
 يجبر سيده على بيعه بالطرق المشروعة . والعبد فى بلاد الشرق ، لا ينعى
 هم الطعام أو السكن أو اللباس أو الاستحمام ، كما أنه معفى من دفع
 الضرائب ، ومعفى من الخدمة العسكرية ومن دفع أى مبالغ لسيده . ورغم
 عبوديته فهو فى الحقيقة أكثر حرية من الفلاح المصرى الحر » .
 اعتقد أن هذا هو الوضع الحقيقى للرقيق ، وان كان هذا بطبيعة الحال ،
 لا يؤثر مطلقا فى قضية الرق بشكلها المجرد . وقد حققت شهرة خاصة
 نتيجة علاجى الناجع للجوارى الحبشيات ، فقد قام صديقى الحاج والى
 بإذاعة خبر ذلك فى مختلف أنحاء القاهرة ، وقبل انقضاء خمسة عشر

يوما ، وجدت نفسى مضطرا الى التخفيف من مهارتى فى العلاج حتى اتخلص من تهديد الشهرة (اتخلص مما تجره على الشهرة فى هذا المضمار من متاعب) وتعتبر مشكلة الخدم من أكثر المشاكل اثارة للمتعاب للانجليز فى مصر ، وعلى نحو خاص بالنسبة للشخص الذى يسافر باعتباره شخصا محترما (ذا مكانة) من أهل البلاد ، ان يتوقع الجميع أن يصحبه عبيده .

وبعد تفكير عميق ، قررت أن يكون بصحبتى « بربرى Berberi » وعلى هذا فقد دعوت شيخا a Shaykh - ان يوجد شيخ لكل شىء بدءا من اللصوص فى « الشرق » ، وقد عرف هذا الأمر فى مصر منذ أيام ديودور الصقلى Diodorus Siculus « - وعرفته بطلبى . وفائمة الأشياء الضرورية (الأمور التى لا بد منها) Sines qua nons تعد أكثر ضرورة وأهمية من القائمة الموسعة (التى تغص بالتفاصيل) وكانت قائمة الطلبات التى قدمتها تشتمل على : الصحة الجيدة ، والاستعداد للسفر الى أى مكان ، ومهارة بسيطة فى الطهى ، والقدرة على الحياكة والغسل ، والاستعداد للدخول فى مشاجرات ، وأن يكون متعودا على أداء الصلوات فى مواقيتها . وبعد يوم احضر الشيخ لى رجلا من اختياره عريض الكتفين ، مقوس الساقين يزم عن ملامح كملامح البلدج (وهو كلب جرىء شرس كبير الرأس ، قصير الشعر) وهى الملامح المعتادة للبرابرة Berberies وبالنسبة لهذا الشخص البربرى الذى احضره الشيخ فقد كان يحرك عينيه بشكل مبالغ فيه ان كان جفناه متدليين . وكان السبب فى هذا التشوه أنه وضع فى عينيه عصيرا حمضيا ليتهرب من السخرة (أو التجنيد الالزامى Conseription) وقد أجاب عن كل أسئلتى بثبات . وكان بعض الصبية والرجال المصريين الحمقى يثيرون الضوضاء بالمكان ، فطردهم بحزم هادىء بعد استئذانى . وعندما تناول الأبرة والخيط والمنديل ذى الأطراف غير المخاطة - جلس وقبض على حافة المنديل بأصبعى قدميه (الاصبع الكبير والذى يليه) ، وأنهى حياكة أطراف المنديل بأسلوب هادىء ومتقن . ولما خرج تسليح بكرياج يستخدمه الآن استخداما رقيقا ، أما مع أى دابة من دواب التحميل فهو يستخدمه بشدة ، سواء أكانت هذه الدابة من ذوات الاثنى عشر أم من ذوات الأربع كما اثبت ذات المهارة فى أمور المطبخ ، وبعد اخذ الضمانات الأمنية منه ومعرفة اسمه وتسجيله طرف الشيخ اتفقت معه على دفع ثمانين قرشا شهريا . لكن عليا البربرى وأنا كنا نخسر الانسفال فقبل مرور اسبوعين قام بطعن تابعه الخادم - وهو صبرى من سورات Surat

كان راغبا فى العودة الى بيته ، ليجبره على خدمتى ويسبب هذه الحادثة فقد تلقى ٤٠٠ ضربة على قدميه بأمر من ضابط الشرطة كما عاقبته بالطرد من خدمتى . وبعد هذا الفشل جربت عددا من الخدم من الصمائية Saidis والبرابرة الذين يعبرون عن الشئ ونقيضه بعبارة واحدة Clean and unclean eating بتوصية من شيوخ مختلفين ، فقد كان فى كل منهم عيوب خطيرة ، فأصدهم خدعنى بطيش ، وآخر سرقنى ، والثالث سكير ، أما الرابع فقد كان دوما يتهرب من تنفيذ أوامرى (يخرق أوامر يوليوس قيصر) أما الأخير فقد كان نوبيا ذا قدمين طويلتين ، وبعد أن مكث فى البيت يومين تخلص عني بسبب تصميمى على السفر بحرا من السويس الى ينبع . وقد احتفظت برجل واحد شكنا أنه كان يعمل حتى الموت . والسبب الثانى ، أنه لم يكن لهم من عمل الا العراك ، والسبب الثالث أنهم تركونى فلم يبق الا أن أخدم نفسى كما قال قديما السيد الوزير Elwes . وأخيرا فقد قررت ان استبقى الولد الهندى فقط فى خدمتى لأننى تعبت تماما من الخدم المصريين ، كما أن خادما واحدا كان كافيا - فى الحقيقة - لخدمتى ، كما أنه مناسب لرتبتي (مكانتى الاجتماعية) المفترضة . لقد كان فى هذا الولد الهندى كل عيوب أهل الهند ، فبينما كان شجاعا فى القاهرة ، كان جبانا بكل ما فى الكلمة من معنى فى المدينة (المنورة) وكان البدو يحتقرونه احتقارا تاما (يحتقرونه حتى النخاع) لتخنثه خاصة عندما يبرك جملة للنزول من فوقه ، كما أنه لم يكن يستطيع أن يصون يديه من الاختلاس والسرقه . ومع هذا فان اختياره لم يكن يخلو من مزايا فبشرته الداكنة ، وملامحه المتلثة جعلت العرب يدعونه عبدا حبشيا ، وكان ذلك لصالح قناعى (لصالح تأكيد شخصيتى التى ادعيتها) . فلم أكن أهتم بتكذيب قولهم . لقد كان يخدمنى بشكل جيد ، كما كان سهل الانقياد لنظامى ، كما كان معتمدا على اعتمادا كليا لذا فقد كان أقل رغبة فى مراقبتي خاصة فيما يتعلق بالثروة عما اتخذه من أعمال واجراءات . وقد قمنا بالحج معا كسيد وتابعه الا أنه بعد عودتى لمصر بعد اتمام الحج تحول الشيخ نور (الذى أصبح لقبه الحاج) الى الأسوأ بعد أن وجد نفسه بمثابة صاحب (صديق (Sahib) لى . فلم يعد يعمل وكرس كل طاقته لسرقة الأشياء الصغيرة ، وامتد نشاطه هذا بشكل متهور ليشمل أصدقائى .

وقد يكون القارئ محبا لاستطلاع المصروفات الضرورية التى يتطلبها العزب المقيم بالقاهرة . ولابد أن تلاحظ - على أية حال -

فى هذه القائمة التالية أننى لم أكن مقتصدا حازما ، بالاضافة الى
أننى كنت غريبا فى القاهرة ، فالمسكان والمقيمون يمكنهم العيش بمستوى
جيد بانفاق أكثر من ثلثى هذا المبلغ .

| Faddah | Piasters | |
|--------|----------|-------------------------------|
| فضة | قروش | |
| ٢٤ | — | ايجار المنزل ١٨ قرشا فى الشهر |
| ٢٦ | ٢ | خادم ٨٠ قرشا شهريا |
| ٥ | — | افطار لى وللخادم ١٠ بيضات |
| ١٠ | — | قهوة |
| — | ١ | بطيخة (الآن ٥ قروش) |
| ١٠ | — | لفتان من الخبز |
| ٢٠ | ٢ | رطلان من اللحم |
| ١٠ | — | لفتان من الخبز |
| ٢٠ | — | خضروات |
| ٥ | — | أرز |
| — | ١ | زيت وسمن |
| — | ١ | قرية من ماء النيل |
| — | ١ | نثریات توباکو (تمباك) (٩) |
| ٢٠ | ٣ | (متفرقات) أجرة الحمام |
| — | — | |
| ٥٠ | ١٢ | الاجمالى |

واجمالى المبلغ يساوى حوالى شلنين وستة بنسات .
ومن فى القاهرة — فى هذه الأيام — لا يتبع شيخا !؟ لقد وجدت
من الصواب أن أتمشى مع العادات السائدة . لذلك فبعد أن دبرت لنفسى
خادما ، وجهت جهدى للبحث عن معلم متذعرا بأننى كطبيب هندى فلا بد
لى من قراءة المؤلفات العربية فى مجال الطب ، كما أريد أن أدرب لسانى

(٩) فى مصر أربعة أنواع من التبناك أفضلها المسمى لاتاكيا Latakia
ويعرف بالجبلى ، والعجمى والحمى (بكسر الحاء وتشديد الميم) والسورى .
(عن تعليق بيرتون) .

على النطق السليم ، وأن ازداد يقينا بالله تعالى وكانت دراستي الإسلامية في مجال مذهب الامام الشافعى . وقد وقع اختياري على هذا المذهب لسببين : أولهما أنه أيسر المذاهب الأربعة ، وثانيهما أنه أقرب المذاهب السنية الى الهرطقة الشيعية التي أدى المامى بها ، واتصالى بالفرس الى تحقيق شهرة في هذا المجال وعلى أية حال فان اختياري لمذهب من المذاهب أكد للمحيطين بى أننى زنديق أو من أهل البدع ، وذلك لأن الشيعي (العجمي) قد تلقن جيدا أن يكف عن مهاجمة المذاهب الأخرى على سبيل التقية (١٠) خاصة في البلاد التي يكون فيها التعبير الصريح خطرا ، ومن هنا فان الشيعي الذي يزعم في مواقف الخطر أنه شافعى لأن المذهب الشافعى كما قلنا « قريب من الهرطقات الفارسية » (١١) هذا بالاضافة الى خطئى الأساسى بظهورى فى الاسكندرية باعتباده « ميرزا Mirza » فى لباس عجمي ، فان ذلك قد سبب لى مضايقات صغيرة كثيرة فى القاهرة رغم كل الاحتياطات والتحايلات . وخلال رحلتى فى شبه الجزيرة العربية كنت مذبوذا لأن الشهرة السيئة علقت بى كقميص نيوسوس Nessus — رغم أننى كنت أسحب سكينى فى كل وقت كاشمارة هجومية .

ولم يمض وقت طويل حتى اهتديت الى مدرس ممتاز هو الشيخ محمد العطار ، وكان عطارا بالفعل . وكان معروفا بالثراء وكان فى يوم من الأيام خطيبا فى أحد مساجد محمد على ، لكن الباشا الراحل طرده من الخطابة ، وزامن طرده من الخطابة حادث سيىء وسلسلة من المتاعب فقد تزوج فى هذا اليوم الأسود وتحدث معها خارج البيت باعتباره سيدا صارما يتعامل مع جارية غير مطيعة وبالنظر الى سحنته فاننى أعتقد أنه — داخل البيت أيضا — من النوع المتسلط . وكان طرده من وظيفة الخطابة هو السبب لرجوعه الى مهنة العطارة التي تعد ملجأ لمن كانوا أثرياء يوما ما رغم أن العطارين يعتبرون الآن حكماء مصر (أطباء مصر) ويقع دكان محمد العطار فى حى الجمالية، وهو دكان صغير لا يتعدى خمسة أقدام

(١٠) التقية هى أن يظهر الانسان غير ما يبطن — وهى مبدأ خطير جدا خاصة اذا امتدت لساثر مظاهر الحياة الاجتماعية ، وهو ما حدث بالفعل فى بعض المناطق . وربما أدت الظروف السياسية منذ عهد الدولة الأموية الى استئراء هذا المبدأ الخطير . ولا علاقة للمذهب الشافعى بالشيعية والتشيع كما سيتضح من الحاشية التالية . (المترجم)

(١١) لا علاقة للمذهب الشافعى اطلاقا بما يسميه بيرتون الهرطقات الفارسية فالمذهب الشافعى لم يتعرض لاحقية لامام على رضى الله عنه بالخلافة بعد الرسول ، ولا يجمع الصلوات من غير سفر ، ولا يضيف للأذان شيئا وإنما كاذان السنية الأخرى ، وكتاب « الام » للامام الشافعى لا يوصى « بالتقية » . الخ ولا ندرى من أين أتى بيرتون بهذا الكلام — (المترجم) .

عرضا وستة أقدام عمقا مخترقا جدار بعض البيوت وهو مقسوم الى قسمين مستقلين يفصلهما فاصل خشبي رقيق ويتصلان بنوع من العقود (فتحات تتخذ الواحدة منها شكل قوس) فى هذا العازل الخشبي .

وثمة صندوق فى خلفية الدكان بمثابة ردة تستخدم كمخزن حيث السلال القديمة الفارغة الغارقة فى الأتربة متناثرة على أرضية قذرة ، أما فى مقدمة الدكان فتم عرض البضائع التى يتاجر فيها : سلال من حصير مليئة بالمتمباك العجمي ، وشيش (جمع شيشة) من فخار أحمر ومقاطف أو « قفف » بها بن من النوع الرديء واقماغ سكر كبيرة بيضاء مائلة للصفرة ملفوفة فى ورق بنى أغمق من اللون البنى الذى يعترى السكر الأبيض . وعلى الأرفف والأفاريز (جمع افريز وهى الأجزاء الناتئة من جدران الدكان) توجد صفوف من صناديق خشبية قد نعمت لكثرة استخدامها ولمسها ، وقد كتبت عليها محتوياتها باهمال شديد ، فقد كتب « فلفل أسود » على الصندوق الذى يحوى « الراوند » وكتب « الزرنينخ » على الصندوق الذى يحوى « الطفل » وهو قطع من الفخار تستخدم فى حك الجسم عند الاستحمام ، كما كتب « سلفات الحديد » على الصندوق الذى يحوى « ملح النشادر » ويوجد أيضا صندوق مكعب مغلق « بالمضبة » والمفتاح به عملات صغيرة وبعض المواد مثل العطور « المضرة » وكحل رديء للعيون ومستحضرات تجميل « ضارة » خاصة تلك التى تستخدم لجعل لون الشفتين أو الوجه احمر ، ويتدلى من السقف كفتان عتيقتان صديقتان تتأرجحان بوهن ، وبالنسبة للكلايب (جمع كلاب) أو الخطاطيف فى مقدمة الدكان فهى قصبات معلقة للشيش وللشموع المصنوعة من شحم حيوانى والشموع النحيلة القذرة وأوراق السجائر « البفرة ») وقد علقت هذه المعروضات بدلا من عرضها فى واجهات زجاجية . وثمة شبكة مهترئة تمنع دخول الذباب عندما يكون صاحب الدكان موجودا بداخله وتمنع دخول اللصوص عندما يكون خارجه لتلاوة سورة يس - يوميا - فى مسجد الحسين ، والمزلاج الخشبي الذى يخلق الدكان ليلا عبارة عن جريدتين فى الغاية من القذارة ومليئتين بالبراغيث وقد وضعتا على المصطبة المعدة لراحة المشترين ، هذا هو الوصف الكامل لأثاث دكان معلمى ، وعلى المصطبة يجلس معلمى أو بالأحرى يضطجع لأننى حقيقة أعتقد أنه ينام ثلاثة أرباع اليوم وهو رجل عجوز بخيل فى حوالى الثامنة والخمسين من العمر ، له ملامح تنبئ أنها كانت وسيمة ومتناسقة ، وله وجه شاحب ورأس حليق ووجنتان مجعدتان بشدة ، وعينان غائمتان دامعتان يعوزهما الأمل ولحية شيباء لم تعرف الدهان أو المشط ، أما عمامته فرغم ضخامتها فقد اعتراها الاسوداد والبلى أما معطفه وسائر ملابسه فتزخر بالرقع والثقوب الواسعة . ويده

تبدو ان دائماً غير نظيفة مع أنه من المفترض أنها نظيفة لأنه يغسل يديه باستمرار لقيامه بالموضوء الذى يسبق الصلوات ، وانه لأمر يدعو للدهشة أن تراه فى الغاية من الشراسة والفظاظة مع الأولاد الصغار والبنات الصغيرات الذين يأتون اليه طالبين قدرا قليلا من الفلفل والسكر . ففى مثل هذه المناسبات أجلس متعجبا من رؤيته - عندما يكون منهكا - يتخذ من مكانه محورا ، فيمد يده - وهو جالس - ليصل - بعد أن يمد جسمه الى درج بعيد ، أو ليطول صندوقا وينزله من رفه المعتاد . وانى لأدهش كيف يؤدى صلاته بما فيها من ركوع وسجود على سجادة مهترئة لا تزيد على قدمين مربعين لا تكاد تكفى لنوم طفل بريطانى !^{١٩} . وهو لا يقر بجهله بمهنة العطارة وقلما يجلس احد على المصطبة أمام دكانه (يعنى لا يتردد عليه الزبائن بكثرة) . وتبدو سعادته الكبرى عندما أجلس أنا والحاج والى معه بضع دقائق فى المساء ، محضرين معنسا شيشتنا حيث يقوم باعدادها لندخنها ، ويقوم باعداد القهوة التى يقوم بتحليتها من أقماع السكر فى دكانه الصغير . ففى هذه المناسبة نجعله يتكلم ويضحك ويستشهد فى بعض المناسبات بأسطر قليلة باعثة على الاغراق فى الضحك .

لقد كنا نستثيره ليقص علينا حكايات طويلة عن الحب السدى شمله به أيام دراسته الشيخ عبد الرحمن الرجل العظيم ، وعن الكراهية الفطرية التى كان يكتنحها له الشيخ نصر الدين الرجل العظيم والصالح . ثم نناقش معه أمور العقيدة ثم نمزح معه بالتعريض على مدى فحولته ثم نمدحه واضعين تقدمه فى السن باعتبارنا بعبارات على شاكلة: « الماء من يديك كماء زمزم » أو « سألناك الدعاء ! » . وفى بعض الأحيان نحثه على صحبتنا للحمام ، وهناك يصر على دفع أقل مبلغ ويتعارك مع أى شئ وكل شخص ويسبب انعاجا لأحد له . وبشكل عام فأننى والحاج والى زائراه الوحيدان ، فمعارفه فيما يبدو قليلون وليس له أصدقاء ، ولابد أنه كان له فى يوم من الأيام أصدقاء عندما كان غنيا أما الآن فقد فر الأصدقاء من العجوز الفقير .

وعندما يجلس الشيخ محمد معى أو أقفز أنا الى دكانه الصغير لتلقى الدرس فيه يكون على راحته بمعنى أنه يقرأ عندما يريد أو يجعلنى أقرأ ، وغالبا ما يبدأ كل درس من دروسه ببعض اللوازم التى لا تفارقه كقوله : « أيوه . أيوه . استعنا بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . يقول المؤلف رحمه الله تعالى - القسم الأول من الفصل الثانى عن كيفية الصلاة . . . وهكذا » .

ويصبح ساخرا عنيفا عندما اختلف معه فى الرأى خاصة فيما يتعلق بقواعد النحو أو العقيدة التى ظل يدرسها حتى شابت لحيته ، فيقول : « سبحانه الله ٠٠ ما هذا الكلام ٠ ان كنت على حق فكبر عمايتك كالمشايخ من اهل العلم وارم عقايرك لأن الأفضل لك أن تنقذ الأرواح بدلا من أن تحطم الأبدان ٠٠٠ يا عبد الله » ٠ وهو كالشرقيين يجد نفسه فى تقديم النصائح الطيبة ، كأن يقول ! « أنت دائما تكتب يا « جدع » من اى شيطان أتتك هذه العادة ، لابد أنك تعلمت ذلك من بلاد الفرنجة ٠٠٠ استغفر الله » وهو يقول ذلك فى المناسبات القليلة عندما اغامر بكتابة ملحوظة مجانا فيقول : « أطباء مصر لا يكتبون ألف باء دون أن يتلقوا على ذلك أجرا ، وأنت لديك خادمان عليك اطعامهما ٠ لماذا تخجل ؟ فان خجلت من تلقى الأجر – فالأفضل لك أن تذهب للجبل أو الصحراء وتصلى صباح مساء » ٠ وأخيرا فانه مبذر فى الحديث عن مصاريف البيت : « خادمك لم يسجل جنهين ثمن اللحم بالأمس ٠٠ ما هذا الكلام ٠ الم تقل ليحفظنا الله من خطيئة التبذير » ٠

وهو يبتهج بشكل فظ فيقطع سياق الموضوع الذى نقرؤه عندما يحس بالملل : « والآن ، فان الموضوع على سبعة أنواع وهو ينتج ٠٠٠ هل أنت متزوج ؟ ٠٠٠ لا ٠٠٠ والآن حقيقه ينبغى أن يكون لديك ثلاث جوار ، يا عزيزى الشباب ! بقاؤك بلا زوجة ليس من الصواب فالرجال سيقولون عنك ٠٠٠ استغفر الله ، نستعين بالله ونلجأ اليه ٠٠٠ » والحق أن فمه يخوض فى أعراض زوجات المسلمين ٠

ولكنه فى بعض الأحيان يحتار فى بعض الفقرات التى يقرأها ، كما رأيت به عيني رأسى ، فيتجاوزها ، أو يقرأها أكثر من اثنتى عشر مرة بتكاسل مرح ، أو يركز على أكثر المعانى مدعاة للخجل على نحو ما يفعل صبية المدارس (مبدىا ملاحظات ذات مغزى Shot) وعندما يحدث ذلك أفقد طبعى ، وأرفع صوتى ، وأصيح قائلا : « حقا لا حول ولا قوة الا بالله العظيم » عندئذ ينظر لى ويهمس بخنوع عابر :

« خاف الله يا رجل » ٠

الفصل الخامس

شهر رمضان

الصوم فى جو حار - الكراكونات فى رمضان - مدفع القلعة -
مدفع العباسية - أمسيات رمضان - المتسولون - المقاهى - بواية
النصر - القلعة - التكايا - ميرزا والفنصلية الفارسية - حوارى
القاهرة القديمة •

يقابل شهر رمضان هذا العام شهر يونية بالتاريخ الميلادى ،
والمشكلة الكبيرة أن هذا الشهر القضىيل يجعل المسلمين غلاظ الطباع غير
متسمين باللطف ، وذلك بسبب امتناعنا عن الطعام والشراب والتدخين
واستنشاق السعوط (النشوق) ، بل وامتناعنا عن ابتلاع ريقنا عمدا -
طوال ست عشرة ساعة وربع الساعة • وقد استخدمت كلمة « امتناع »
بمعنى أن هذه الأمور « محرمة » على الصائم (١) ، رغم أن الطبقة العليا
من الترك وهى الطبقة التى توصف بين عامة الناس بأنها :

« Turco fino Mangica porce e'beve vino ».

قد تخرق هذا المنع الشرعى بشكل شخصى ، فتجاوز أحكام الشريعة
أو مخالفتها بشكل علنى لا يمر دون عقاب رادع (٢) • وفى هذه الحال
كما فى كل الأمور البشرية ينطبق قول للقاتل : المذنب فى السر برىء •

« Pécher en secret n'est pas pecher

Ce n'est que l'éciat qui fait le crime .. ?

وتراعى الطبقات الدنيا والوسطى شعائر هذا الشهر باخلاص شديد
رغم قسوتها ، فلم أجد مريضا واحدا اضطر لياكل حتى لمجرد الحفاظ على

(١) ابتلاع الريق غير محرم على الصائم ، وبيرتون هنا ينقل ما يسمعه من بعض
الجهلاء أو العامة - (المترجم) •

(٢) يذكر بيرتون فى تعليقه أن الشريعة الاسلامية تحث المسلم على الصبر وعلى الرد
على المشاغبين بالقول « اللهم ائنى صائم » وهذا صحيح - (المترجم) •

(*) يقارب ذلك معنى المثل العامى « حرامى بلا بينه سلطان » - (المترجم) •

حياته رغم المعاناة الشديدة بسبب هذا الحرمان الشامل (٣) • بل وحتى السفلة والاثمين الذين كانوا قبل رمضان قد اعتادوا على السكر والعريضة حتى في أوقات الصلاة - قد تركوا ما كانوا فيه من اثم فصاموا - وصلوا •

والأثر الرئيسي لهذا الشهر الفضيل على المؤمنين الحقيقيين هو ذلك الحزن الوقور الذي يغلف طباعهم - كما هو الحال في صيام الايطاليين والكاثوليك والانجليز واليونانيين • فاصوات المسلمين الصائمين التي لم تكن أبدا - قبل رمضان - من بين أرق الأصوات ، قد اكتسبت - خاصة في فترة ما بعد الظهيرة - بحة مفزعة ونغمة كنغمة صرير الباب • فالرجال يلعن بعضهم بعضا ، ويضربون النساء اما النسوة فيلطمن الأطفال ويستن معاملتهم ، أما الأطفال فهم يدورهم يتضرعون ويعاملون القطط والكلاب بقسوة • وكلما تستطيع أن تقضى عشر دقائق في أى حى بالمقاهرة دون سماع منازعات عنيفة فالكراكونات Karakun أو المخافر مليئة بالسيادة الذين ضربوا نساءهم ضربا مفرطا • كما أنه ملئ بالنسوة اللاتي خربشن أزواجهن بل وعضضنهم بل وجرحن أبدانهم • والمساجد خاصة بالناس العابسين المتذمرين يتريص كل منهم بالآخر مع انهم يسيرون في طريق يرضون به الله (*) • وفي الظل عند الجدران الخارجية للمسجد يسلى الأطفال الذين طردوا من المسجد انفسهم - او يتناسون بؤسهم - بانخراطهم في لعب خال من الروح • وفي الأسواق والشوارع تواجهك وجوه شاحبة زائغة البصر وكأنها في محنة كبيرة • وقد يواجه الغريب في هذا الشهر تصرفات فظة ، فعلى سبيل المثال تجد البفال عادة يقول لك في غير رمضان اذا كان عرضك غير مجز : « يفتح الله » أما في رمضان فانه سيتذمر من غشمك وسيقول لك بحدة ألا تقف هكذا مضيعا للوقت • وعلى أية حال فان الدكاكين في هذا الشهر اما ان تكون مغلقة او خالية من الباعة ففي هذا الشهر لا يشتري التجار ولا يدرس الطلاب ، وباختصار فان هذا الشهر الفضيل يعد بالنسبة لفئات كثيرة جزءا من اثني عشر جزءا من السنة لا انتاج فيه •

وفيما يلي نذكر ما يحدث في أحد أيام الصيام فبعد حوالي نصف ساعة من منتصف الليل ينطلق مدفع السحور منبها المسلمين بوجوب

(٣) « ليس على المريض حرج » وتصرفات بعض الناس ترجع لهم لا لاحكام الشريعة

(المترجم) •

(*) في هذا القول مبالغة كبيرة دون شك ، ولكن الكثيرين لا يفتنون للأسف الى المعنى الكريم للصيام من أنه مجاهد للنفس ولتدريب لها على الصبر ويظن هؤلاء أن الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب فتسوء أخلاقهم ويعطون هذا الانطباع السيء عن هذا الشهر الكريم للأجانب ولن يعرفون هذا الدين القيم - (المترجم) •

الاستعداد لتناول طعام السحور وهو بمثابة افطار مبكر . وبمجرد سماع المدفع يوقظني خادمي اذا كنت نائما ويحضر لى الماء للوضوء ويفرش السفرة وهى رداء جلدى ويضع امامى بقايا وجبة المساء (يقصد طعام الافطار الذى تناوله بعد سماع اذان المغرب) . وفى بعض الاحيان يكون ذلك قبل ان تستعد المعدة (لأنها لم تكن قد هضمت الطعام الذى تناولته بعد المغرب) ، لكن التعود هو كل شئ فالشهية وقف على التعود ، ومن دواعى الاحتياط أن يتناول الانسان فى سحوره أكبر قدر من الطعام يستطيعه . وبعدئذ نسمع « السلام » ويقصد به ترديد عبارات الصلاة والسلام على النبى (صلى الله عليه وسلم) كتوطئة لآذان الفجر (٤) ، وأظن أذن بوهن وضعف كما لو كنت أودع صديقا حميما حتى ينطلق المدفع الثانى فى حوالى الساعة الثانية والنصف معلنا الامساك (٥) . ثم انتظر اذان الفجر الذى يرفع فى شهر رمضان مبكرا شيئا ما عن المعتاد . وبعد الافصاح عن نية الصيام أودى الصلاة وأستعد للنوم . وفى الساعة صباحا يبدأ عمال النهار من الطبقات العاملة فى المجتمع ممارسة أعمالهم ، بينما يقضى الأغنياء الليل فى العريضة ويظلون فى حالة خمول من الفجر حتى الظهر .

وأول ما يفعله المرء عند الاستيقاظ هو الوضوء الذى لا بد أن يتبع النوم فى وضع الاستلقاء على الظهر (فى غير جنابة) ، وبدون الوضوء لا يجوز للمرء الصلاة ولا يجوز له دخول المسجد ، ولا يجوز له الاقتراب من أحد العلماء (٦) ، ولا يجوز له مس القرآن الكريم . وعادة يزورنى عدد قليل من المرضى والفقراء فى هذه الساعة فاتفحصهم بشكل عرضى دون تدقيق فى التفاصيل وهذا لا يسعدهم فأتلقى نتيجة ذلك دروسا طازجة . وفى الساعة التاسعة صباحا يدخل الشيخ محمد ومعه « محاضرة » مكتوبة على جبهته المجددة ، أو أن أصحابه مباشرة الى الجامع الأزهر ، وبعد ثلاث ساعات من القراءة الجادة لا يتخللها الا قليل من المقاطعة من لدن القراء الذين لا يعون ما يقرءون كالذى يتفرج على حادثة دون المشاركة فيها . وتعتبر هذه الساعات الثلاث بمثابة

(٤) نلاشى ذلك الآن ، ويكتفى المسلمون باقامة الآذان لصلاة الفجر فقط - (المترجم)

(٥) مدفع واحد للامساك فقط - هو ما يحدث فى هذه الايام ، مما يدل على تطور فى صالح التبسيط - (المترجم)

(٦) بيرتون مرة اخرى يذكر ما يسمعه من العامة على أنه حقائق ، فغير المتوضى يجوز له الاقتراب من العلماء وغيرهم ، فالمشريعة لم تحظر عليه ذلك ، وانما حظرت عليه فقط الصلاة ومس الصحف (الا لضرورة) - (المترجم)

فسحة طويلة (راحة طويلة) فمعظم الطلاب فى هذه الفترة يكونون فى بيوتهم ولا يأتون الا بعد سماع اذان الظهر ، فالاسلام لم يجعل لفترة الصباح الا القليل من العبادات لأنها فترة العمل الرئيسية فى بلاد الشرق أما فى فترة بعد الظهر وفى المساء فالصلوات يتلو بعضها بعضا وتزداد طولا (٧) ، ثم يحين الوقت المناسب لزيارة مرضاى الاثرياء وبعد ذلك أمر على محلات بيع الكتب لساعة أو ساعتين أو اتسكع فى الشوارع ببساطة • وفى الثالثة عصرا أعود لنزلى فأصلى العصر وأعد نفسى للدراسة • وتلك الفترة هى اصعب فترات النهار • وبشكل عام فان فترات ليالى الصيف وفترات الصباح منه تدعو — كما يقال — للمسرة ، أما فترة صدر النهار (من الصباح للظهيرة) فتقسم بكونها رطبة جدا ، أما فترة ما بعد الظهر فهى خطيرة Serious فالرياح تحمل الأتربة الناعمة وتنقل من الصحراء حرارة كحرارة القنور فيهبط على القاهرة وابل حرارى ، وليس من سحب أو أبخرة تكسر حدتها ، وليس من وسائل تجب الحرارة وتبعث على الراحة كالحوائل المثقبة بالهند ، ولا توجد منازل يفخر أصحابها بوجود نوافذ زجاجية لها الا قلة قليلة من منازل الاثرياء • لذا فالجو داخل غرفتك أشد حرارة وأعلى سعيرا مما عليه الحال فى الشارع ويزداد الشعور بالحرارة ثلاثة أضعاف الشعور بها فى أى وقت آخر لا صيام فيه • وغالبا ما تؤثر المعدة المضطربة فى المخ ، فكل دقيقة يحسبها الانسان ليقتطعها من هذا الثبات المضجر ليقتررب من ساعة المغرب المباركة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يقع على كاهلهم كم هائل من العمل اليدوى فى مثل هذا الفصل الحار ولا تتاح لهم الا فرص قليلة لنفسيان متاعبهم بالنوم المتقطع فى فترة ما بعد الظهر ، الا أن معظم الناس يقضون قيلولتهم بعد الظهيرة مباشرة لقناعتهم بضرر النوم حتى وقت متأخر من النهار •

وتبدو القاهرة عند اقتراب المغرب — (ساعة الافطار) — وبالبطء حلولها ! — وكأنها أفاقت من غشيتها ، فيطل الناس من النوافذ والشرفات ليرقبوا اقتراب ساعة خلاصهم • وبعض الناس يصلون ويبتهلون وآخرون يسبحون بينما آخرون يتجمعون فى جماعات أو يتبادلون الزيارات لقتل الوقت حتى يحين ميعاد الافطار •

(٧) الاسلام دين على وفترة النهار هى فترة العمل الرئيسية فى كل أنحاء العالم • والظهر أربع ركعات وكذلك العصر بينما المغرب ثلاث ركعات ، فتقديرات بيرتون خاطئة — (المترجم) •

يا للسعادة ! أخيرا انطلق مدفع الافطار من القلعة • وفى الحال
يجلجل المؤذن بأذانه الجميل داعيا الناس للصلاة وينطلق صوت المدفع
الثانى من قصر العباسية • فيصيح الناس « الافطار ! الافطار ! » وتعم
مهمة الفرخ فى انحاء القاهرة الصامتة • ولا تعدم أذنك المرهفتان لحظة
انتقال احساس الترقب المبهج للسانك الجاف ومعدتك الخاوية وشفطيك
الواهنتين • انك تشرب قلة كاملة من الماء عن آخرها مهما كانت كمية
الماء بها • وانت تصفق بكفين عجولتين طالبا المشيشة وتأمّر بالقهوة ،
وحالما تنتهى منها تجلس وتنتظر بهدوء مباحج المساء •

والفقراء يأكلون وجبتهم بينهم تام • اما الأغنياء فيفطرون بوجبة
خفيفة - قليل من الخبز والفاكهة سواء طازجة أو مجففة - ولكنهم
يفضلون بشكل خاص البطيخ والحلوى أو بعض الأطباق سهلة الهضم
كالمهلبية وهى عبارة عن حليب خفيف هلامى القوام ونشا ومسحوق أرز •
ثم يدخنون الشيشة ويشرب الواحد منهم قدح قهوة أو كوب شربات ،
ويصلون العشاء ، ويمر الوقت سريعا نظرا للمتعة المتاحة فى هذه الفترة
خاصة التدخين بعد ست عشرة ساعة من الحرمان • وبعد هذا يجلسون
لتناول طعام القطور Future (الافطار) وهو وجبة لأربع وعشرين
ساعة ، لذلك فهم يأكلون بينهم اذا أمّنوا الأمراض الناتجة عن ذلك •

وثمة طرائق عديدة لقضاء أمسيات شهر رمضان • وعند المصريين
مثل يماثل المثل الذى عندنا فى مدرسة ساليرون Salirniton
وهو :

« اتعدا واتمدى ، ولو للحظتين

واتعشى واتمشى ، ولو خطوتين »

بمعنى أن تتمدد بعد تناول غداك ولو للحظتين وأن تمشى قليلا
ولو خطوتين بعد العشاء •

وتزدحم الشوارع الآن بحشود من الحواة المثلين الفكهين (٨)
وينخرط كثيرون فى المسرات ، بينما يتخذ عدد قليل طريقه للمسجد لأداء
صلاة التراويح فى جماعة ويمشى الناس مشيا وثيدا حاملين فى أيديهم
غلايين (ربما أيضا شيش) التدخين المعتادة ويتسوقون - فالأسواق

(٨) يقصد القرهقوز والمهرجين - (المترجم) •

تظل مفتوحة حتى ساعة متأخرة - أو يجلسون متزاحمين عند مداخل المقاهى يدخلون الشيش و يشربون ويستمعون لحكايات الرواة والمغنين والوعاظ المتجولين . وتجد هنا الفتيات الحافيات يغنين ويصرخن بتهديج وانفعال ، وقد صاحب غناءهن دقائق مزعجة على (الرق) وعزف أجش بالمزامير (جمع مزامير) متنافر بغيض ، وكل هذا العزف والغناء على شرف أحد الأولياء الحمقى ، دفنت جثته داخل إحدى الدور الماهولة التى يمتلكها رجل ذو مكانة بعد أن أصر صاحب الدار على ذلك . وهذا المنظر يذكرك بشدة بجماعات السونيرز Sonneurs فى بريطانيا والزمبوجنارى Zampognari فى مرتفعات أبروزيا Abruzzia الذين يعزفون موسيقيا مزامير القرب أمام مادونا Madonna . وثمة رجل مغربى طويل وهزيل يعرض على الناس ورقة قذرة مربعة بها عدد من الخطوط والبقع يفترض أنها تمثل رسما للكعبة المشرفة ، ويجمع مقابل ذلك عملات نقدية نحاسية صغيرة ليغضى تكاليف حجه . وتجلس زمر من الذين لا عمل لهم فى ضوء القمر خلال الطرق الرئيسية المؤدية لحدائق الألبانية حيث الحى الأفرنجى ليستمعوا للفرق الموسيقية التركية واليونانية أو ليسعدوا بأكل المكع وشى المذرة واحتساب القهوة . والمشروبات المحلاة ، ومشاهدة مباهى ومزاحات القرة قوز (وهو الشكل المحلى لمشهد بنش وجودى) . والمنظر هنا أقل اتساما بالروح الشرقية مما عليه الحال فى داخل القاهرة ، إلا أن منظر الملابس الأفرنجية بين الأزياء الشرقية المتباينة تحت ضوء القمر ، بالإضافة للعممة الخفيفة التى تسببها أشجار الأكاسيا ذوات الزهور الصفراء المبيضة المنظر التى يمكن مقارنتها بشكل عام بذقن الباشا القديم - كل ذلك يشكل منظرا جديدا بأن يكون موضوعا للموحة الفنية ، ويلاحظ المسافر فى الشرق بعجب وجود بعض السيدات ليس لهن من الاحتشام نصيب سوى البرقع the Burka وتراقب الشرطة بعيون متساهلة مظاهر التهلك والانحلال ، لأن المنحلات والمتهتكات كن الى عهد قريب يدفعن للدولة ضرائب غالية .

وإذا عدت لحي المسلمين فانك تصاب بالذهول بسبب اختلاف الأصوات وتباينها ، فالكل يتحدث ، وطبقات الصوت أثناء الحديث متطرفة فهى اما همسا واما صراخا وجلبة ، ولا يستطيع الغرباء اقناع أنفسهم أن الناس هنا يمكنهم أن يتناقشوا دون انفعال ، فكل من فى الشارع يصيح بصوت عال جدا (من طبقة السوبرانو) فهذا هو ذا الفلاح يصيح متوسلا للخفير الذى يقوده لمركز الشرطة : « فى عرضك .. »

فى عرضك ، وكان يتبعهما (الفلاح والخفير) رتل من النسوة يولولن :
« ياخراشى يا حسرتى ٠ ! يا ندامتى ٠٠ ! » أما الصبية فقد اختاروا
احدهم وجعلوه « باشا » وأحاطوا به فى موكب ، وقد حملوا حزم القش
لأشعال المشاعل ، وهناك من يسبق الموكب وهم يهتفون ببهجة واندفاع
أثناء السنوات العشر ، بينما يصيح جندى مشاه يركض لاهثا أمام عربة
الباشا حاملا مشعلا ضخما :

« اوع يمينك ٠٠ ! »

« اوع شمالك ٠٠ ! »

« اوع وشك ٠٠ ! »

« اوع رجلك ٠٠ ! »

« اوع ضهرك ٠٠ ! »

« صل على النبى ووسع الطريق »

فيرد المسلمون الطيبون :

« اللهم صل وسلم عليك يا نبى » .

وينكمش بعض الناس ملتصقين بالجدران لتجنب الضرب بالعصا ،
وآخرون يندفعون عبر الطريق وكأنهم يتعمدون الوقوع فى الخطر .
ويضرب صبى شقى بغل الجندى بجريدة نخل سميقة ، وهو لا يخشى
فى هذا الموقف أن يضرب بالفلكة ، فينهره الجندى بأعلى صوته قائلا :
« يا عرص ٠٠ يا قواد ٠٠ يا يهودى ٠٠ يا ابن الأعور ٠٠ لعنة الله
عليك ٠٠ » ويغنى بأعجوبة الحبوب المشوية وهو يهز بضاعته سيئة المذاق
لتحدث خشخشة فى سلتة : « يا حمص ٠٠ يا بذر (يا لب) » ويصيح
السقائون وهم يحملون قربا مليئة بالماء : « وسع الطريق ٠٠٠ وحد الله ٠٠
مية حلوة ٠٠ انعش روحك ٠٠ ! يا عصير الليمون ! » أما عن الشيش
فان بائعها يضرب أجزاءها النحاسية ببعضها ببعض لتحدث صوتا .
ثم يأتى دور المتسولين المنتشرين فى بلاد الشرق : « عشاننا عليك يارب (٩)
عشاننا عليك يا الله ٠٠٠ مين قدم شىء بيداه التقاه » .

(٩) يبدو أن الأمور اختلطت عند بيرتون لهذا القول الذى يقوله الشحاذون فى غير
رمضان ، أما فى رمضان حيث الصيام فهم يقولون عادة : (فطر أخوك المسلم) أو (سحر
المسلم) أو (حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة) أو (شهر الإحسان) ٠٠ الخ - (المترجم) .

وأحد الباعة الجائلين الهرمين - ربما تضم سلالة (جمع سلة) بضائع أكثر من تلك التى تضمها سلال صاحب محل ذى شأن • ينادى على بضاعته •

ويرد بعض اليونانيين الموقحين على مجرد لمسة من عكاز رجل عجوز قائلين : « يلعن أبوك •• يا أخو القحبة •• » (١٠) وتغنى امرأة عمياء وهى تضرب عكازيها أحدهما بالآخر ، برفق : « القبر ضلمة والحسنة تنوره » أى القبر مظلم ومصباحه الصدقات ، فيقول العابرون : « على الله •• على الله يا بنتى •• » وذلك عندما تتشبهت « البنت » (١١) اللوح ذات الستين ربيعا بأيديهم رافضة تركها دون الحصول على عملات نحاسية صغيرة • ويصيح ألبانى ذو حاجبين مخيفين وشارب طويل ، صيحة اصطلاحية لا يفهم أحد معناها الا استنتاجا : « أحضر الحلويات » ويقصد النار وخذ الكوب « المليون » ويقصد الفارغ ، بينما يكون صاحب المقهى جالسا بين الزبائن وقد دخل معهم فى « قافية » تنساب ذكية سريعة من شفاههم • وقد تكون الاجابة على طلب هذا الألبانى الراغب فى الصدام : « هنيئًا » فيجيب : « أنت تشرب شرب عشرة » بدلا من الرد الدينى « هناك الله » • ويقول أحدهم فى المقافية : « أنا المديك وانت الفرخة » فيرد عليه المتحدث الأول : « لا أنا التخين ، وانت ابره مصدية على الكوم مرمية » • وهكذا حتى قالوا تعبيرات غامضة يصعب نقل صوت هذا مرمية •• وهكذا حتى قالوا تعبيرات غامضة يصعب نقل معانيها حرفيا للانجليزية •

وفى بعض الأحيان يعلو صوت هذا الضجيج والصخب على الصوت الشجى للمؤذن الأعمى منبعثا من شرفة المؤذنة « حى على الصلاة •• حى على الصلاة •• حى على الفلاح •• حى على الفلاح » وفى أذان الفجر تضاف عبارة « الصلاة خير من النوم •• الصلاة خير من النوم » وعندئذ يهب المسلمون الأتقياء واقفين متممين : « لبينا دعوتك يا ربنا •• لبينا دعوتك يا ربنا » •

(١٠) من الواضح أن هذا ليس أسلوبا مصريا فى الشتائم فإضافة صفة سيئة للأخت أسلوب شامى ، ويبدو أن هؤلاء اليونانيين عاشوا فترة فى الشام - (المترجم) • (١١) فى مصر تتوقع المرأة أن تنادىها بعبارة « يا ست » أو « يا حاجة » أو « يا عروسة » أو « يا بنت » رغم أنها قد تكون فوق الخمسين ، أما فى سورية وشبه الجزيرة العربية فتنادىها بقولك « يا مرة » أو « يا مرة » لكنك ان قلت هذه العبارة فى بلاد النيل أذاك الرد : « مرة فى عينك » أما ان أردت معركة حامية فقل لها : « يا عجوز » - (بيرتون) •

وفى بعض الأحيان كنت أسير مع صديقى الى القلعة ونجلس فوق سور مرتفع حيث مسجد محمد على - وهو أحد انجازاته المتميزة ، لنستمتع بالمشهد الذى يبدو رائعا بالليل عندما يكون القمر قريبا من التمام فى فصل الصيف فيعطى سحرا وفتنة تعجز اللغة فى التعبير عنهما . وفى أحيان أخرى كنت أهرب من جو القاهرة الخانق فأمر مع صديقى عبر بوابة النصر لنصل الى القفر الكائن خلف المقابر لنسيتنشق هواء الصحراء النقى ونحن جلوس فوق بعض أكوام الخرائب ، وكأننا كنا نستقبل هذا القفر بود شديد عندما يشكل ضوء النجوم ورذاذ الندى المشهد المنبسط أمامنا والذى تعتريه مرتفعات صغيرة من الأحجار المطباشيرية (أحجار من رواسب رملية) وقد غطتها طبقة رقيقة من رمال راحت تمر كاشفة عن الصخور ، بفعل الرياح التى تهب ساخنة بالنهار . وهناك على مدى ميل غاص بمختلف أنواع الحياة كلها مهجورة لم يندمج فيها انسان ، فأسوار القاهرة تبدو مفتتة يوشك فتاتها على الانهيار ، والعرائش (جمع عريشة) غير مأهولة بالبشر والممرات غير مطروقة ، فالبرية تقبع خلفك وتمتد أمام ناظريك الآن القبور بشواهدا وببياضها الشاحب المروع ، بينما تنتصب خلفها أشباح طويلة قائمة لأبراج السلاطين الممالك تطل برأسها من الأرض المنخفضة الخربة وكأنها أرواح سلاطين تحرس رعايا من الأشباح فى سلطنة من ظلال . أما الأصوات المنبعثة من هذه المشاهد فلا تقل إحياء بأفكار الموت والفناء عما تراه العين . فأصوات الضباع ونباح الكلاب البرية ونعيق البوم الذى يطير على ارتفاعات منخفضة - كل ذلك لا ينسى .

وأحيانا كنا نقضى المساء فى أحد التكايا (جمع تكية) التى يفضل تسميتها بالجلشاني Gulshani بالقرب من مسجد المؤيد خارج بوابة المتولى ذات القداسة (المباركة) وليس من شئ يلفت النظر فى مظهرها . ويجب عليك أن تصعد بخطى وثيدة وأن تدخل شرفة منخفضة حيث ضريح مخصص لأحد الأولياء . ويضم الطابقان غرفا صغيرة مظلمة يسكن بها الدراويش ، وتفتح أبواب الطابق الأرضى على الشرفة . وقلما يعقد الذكر Zikrs (١٢) خلال شهر رمضان فى التكايا . وثمة خليط عجيب من

(١٢) المقصود الذكر بمعناه الاصطلاحي عند الدراويش وهو ما يسميه الأوروبيون « رقص دينى » . انظر « العثمانيون فى أوربا » تأليف بول كولز . ترجمة د . عبد الرحمن الشيخ . ١٩٩٠ كتاب الثانى - ١٢٦ - (المترجم) .

البشر يتكون من متشردين مختارين من مختلف أمم الاسلام . وبالإضافة لذلك فإنه يجب على ألا أصف التكية وما يتم فيها لأن « طريقة » الدراويش ليست سهلة الفهم على أولئك الذين يسارعون بالتجديف أو الإنكار .

ومن المثير أن ترى بعض أمور أصدقائي الفرس القدامى ، فقد دعيت أنا والحاج والى الى بيت ميرزا حسين Mirza Hussayn الذى كان يعد - بسبب وقاره شهيندر ، وكان هو يسمى نفسه « المقنصل العام » ان كان يعتبر من بين اثنى عشر شخصا من اشباه الدبلوماسيين الصغار بالقاهرة ، وقد علق على بوابة بيته الضخمة شارة الأسد والشمس (وهي شارة فارسية فيها غطرسة) الا ان بعض الرسامين المصريين قد مسخوا الأسد الى مجرد قطة عتابية (رمادية الوبر ومنقطة بالسواد) ممسكة بسيف معقوف مع فتاة شابة مرحة ذات وجه ممتلئ وقد عقصت شعرها تماما واستراحت بشغف فوق ظهر حيوانها المدلل . لقد كانت غرفة الاستقبال فى الغاية من الفخامة مما يجعلها جديرة أن تكون قاعة . وفى مواجهة الباب توجد كنبات ووسائد مشكلة الصدر أو المكان الذى يجلس فيه نورو المكنة ، وصفوف متوازية من الديوانات Diwans فى موضع أقل ارتفاعا من الصدر ، ويوجد صف من الموائد العارية . أما أكثر المقاعد انخفاضا فمصفوفة بمحاذاة الجدار الذى به الباب . وفى الوسط ثلاث مناضد صغيرة وثلاث مشكاوات (جمع مشكاه) ضخام تناظر فى فخامتها ووقارها فخامة مالكةا ووقاره ، وتحوى كل مشكاة ثلاثا من أضخم الشموع العنبرية Spermaceti Candles .

لقد دخلت أنا والحاج والى واتخذنا مجلسنا على الكنبات الجانبية بتواضع ، وتبادلنا التحية مع الرجل العظيم الجالس فى الصدر . وعندما أخذت مراسم الاستقبال حقها نهض الميرزا وثيذا وهب الجميع وقوفا لنهوضه ، بينما كان هو يتخلص من حذائه وبكل وقار اعتلى وسادته . انه رجل قصير ونحيل فى حوالى الخامسة والثلاثين من العمر ، ذو ملامح متناسقة وعلى رأسه غطاء من فرو خروف وله لحية ، وكلاهما (غطاء الرأس واللحية) منافيان للفطرة والذوق ، وكلاهما أسود كما أنهما مخروطيان (مستدقان) ويبلغ طول لحيته وغطاء رأسه أربعة أقدام على الأقل اذا قسناها من نهايتيهما (المغطاء واللحية) الى بدايتيهما على قاعدة نحيلة لوجه أصفر شاحب . وبعد ربع ساعة من التشريفات وأحاديث المجاملة والانحناءات مع وضع كف اليد اليمنى على الصدر من جهة اليسار قدموا النرجيلة للميرزا أولا نظرا لمقامه الرفيع - وربما كان هذا الميرزا فى طهران مجرد مساعد كاتب فى إحدى الإدارات

الحكومية . وفى الوقت المناسب قدم لنا الخدم النراجيل (الشيش)
المفارسية والقهوة ، وكان المخدم ينحنون باحترام انحناءات ملكية كلما
مروا بالميرزا . كما أن أكثر من واحد من أتباعه يتمنطقون بالأحزمة
ويحملون السيوف المعقوفة يدخلون القاعة لبث الهيبة والرعب فى نفوسنا .

وكان حديثنا عن الأمور الشرقية المعتادة ، فمن المعروف أنك ترى
فى بلاد الغربه أموراً تثير دهشتك . وقال الميرزا : « الترحال انتصار »
وهو قول دارج مبتذل ومع هذا فقد أكدده وتوقف عنده وضغط على مخارجه
بطريقة ملكية مهيبه ، فتجيبه قائلاً بالطريقة ذاتها :

« اذا غادرنا ديارنا تعلمنا الحياة حتى لو كانت الرحلة قطعة من
جهنم » .

واذا كنت طبيباً فان الرد البديل هو :

« بالقليل من العلم قد يدمر الأطباء الأبدان » .

أو « بالقليل من العلم قد يحطم الكهان الأرواح »

وقد تجيب اذا أنست فى محدثك الماما بالآداب - بالمسطور المشهورة
التالية :

« حقيقة الأمر أن قدرة الطبيب فيما يقدمه من دواء ،

وقد يشفى الدواء المريض ان كان أجله لم يحن ،

لكن قصة إيماننا تروى فى حينها ،

فالطبيب أحقق ودواؤه يضلّه عن الطريق القويم » .

وبعد أن جلسنا بوقار كبقية الضيوف استأذنت فى الانصراف بعد
أن تمتعت عينى بالآثاث وغيره مما قدم لى مشهداً فارسياً حقيقياً .
ولا يتقاضى الميرزا راتباً وإنما يعيش من الرسوم التى يتقاضاها من رعاياه
الذين يفضلون الدفع على فقدانهم للحماية ولأن دليل الميرزا (أو مترجمه)
سيبيع مصالحهم دون أدنى خجل مقابل مبلغ معلوم (رسوم مقابلة
يتقاضاها من خصومهم) . والميرزا فى كبريائه كأنه نبيل من حيث دمائه
الزرقاء ووقاره المفتعل وفقره . وليس من قصاصة ورق تتم كتابتها على
القنصلية الا وأخرجها الميرزا فى عربة قديمة تجرها خيول تركض بسرعة
مجنونة مع أربعة من المرافقين الراكبين منهم اثنان يرتديان غطاء رأس
مرتفعاً أمام العربيه ، واثنان يتبعانها . ويضحك المصريون من الأعماق

عند رؤية هذا المشهد فقد كان محمد على متعودا على مثل هذه العروض
التي تستخدم فيها أزياء غريبة .

وقبل منتصف الليل بحوالى نصف ساعة ينادى المؤذن « بالأبرار »
Abrar وهو دعوة للصلاة ، ففي مثل هذا الوقت يعود الناس الذين
تعودوا السهر الى بيوتهم استعدادا للسحر . ولا بد أن تكون منتبها
لتحية كل خفير (حارس) بقولك : « السلام عليكم » خاصة اذا لم يكن
معك « فانوس » اضاءة والا كنت عرضة للمبيت فى مركز الحراس ،
ولا وجه للمقارنة بين الحارات هنا والشوارع التي يعرفها الأوروبيون
المتحضرين فالمفارق بينهما كالمفارق بين معبد مصرى (فرعونى) ومبنى
برلمانى حديث .

وثمة مناظر يعينها تفرض نفسها على الذاكرة وتظل لصيقة
بها كما يلتصق منظر السحب الرعادة فوق جبال الألب وليل الظلمة
العاصفة فى رأس الرجاء الصالح والأعاصير القمعية الأفريقية ، وربما
كانت رحلة للمصاير الرملية هى أكثرها جميعا إثارة للرهبة فى النفس .

ومن بين هذه الأمور التى تفرض نفسها على الذاكرة تجول الانسان
فى شوارع القاهرة القديمة ليلا . فكل الناس يبدوون غير نظيفين فى
ضوء القمر ، ففي العتمة لا ترى شيئا سوى الصور الظلية السلوية
(نسبة الى فن السلويت وهو الرسم بقص الأوراق) . وعلى أية حال
فعندما يكون القمر مرتفعا فى السماء ، ونجوم الصيف تمطر نورا على
أرض الله فليس ثمة منظر يعادل هذا المنظر فى بهائه . ونظرة من فوق
اطار النافذة - الذى لا يزيد عن ثلاثر اذرع - على شريط من السماء
ذات الزرقة الشاحبة ، وفى أماكن كثيرة يكون الفاصل بين كل نافذة وأخرى
أقل ، وهنا أفاريز (جمع افريز) وهناك ركائز البيوت تبدو متشابهة
(مضفرة على شكل مشبكات) ، وقد تم الآن تمييز بعضها عن بعضها
الأخر بخطوط لامعة ذوات لون أبيض يحاكى لون الثلج ثم بفيض من
اللون الفضى بالغ الروعة بينما تحت الطنفات (الكرانيش) الناقثة
والمشربيات المعلقة ذوات الأشكال الخشبية الرائعة تدعمها زوايا حاملة
ودعائم عملاقة ، وتحت الشرفات وأقواس البوابات الواسعة لدرجة تسمح
بمرور أفراس البحر ، توجد بقع كثيفة من الظلمة بسبب انطفاء مصابيح
الزيت ، وللاقواس ملامح محببة ففي مواضع ترى القوس مجرد هيكل ،
وفى موضع آخر تراه زاخرا بالأحجار المنقوشة والأشكال الزخرفية
المحفورة على الخشب . ولم تبد الخطوط مستقيمة فجدران المسجد العالية

الصماء تميل على دعائمها الضخمة وتبدو المآذن النحيلة وكأنها على وشك السقوط فى طريقك ، والطنف (الكرانيش) تنتأ بشكل معقوف من المنازل بينما تقوم الجمالونات الضخمة بمجرد تدعيم لقوة الالتصاق (١٣) وقد يكون هذا الخط الجمالى غير مطلوب فالانثناء الرشيق الذى تبديه النخلة وسعفها الكائن فى قممها يرتعش فى برد الليل ، وأشعة القمر تتلألأ خلال الهضاب الصغيرة أو خلال ظلمة البيوت اللصيقة بالأرض . وباختصار فإن المنظر برمته فى الغاية من الغرابة ، وفى الغاية من الخيال وفى الغاية من الروحانية ، لدرجة أنه يبدو من غير المعقول أن نتخيل أنه فى مثل هذه الأماكن يمكن أن يولد بشر مثلنا يعيشون فى هذه الدنيا ويطعمون دورة الحياة فيتزايدون ويتضاعفون ويموتون .

(١٣) بمعنى أن ثقلها فوق دعائمها دون روابط أخرى هو أساس ثباتها فى مواضعها .
مواضعها - (المترجم) .

الفصل السادس

المسجد

الأثر البيزنطى فى العمارة الإسلامية - المسجد النبوى -
الأروقة فى المسجد ومعابد الحضارات الأخرى - المسجد الحرام
كنموذج تحتذيه المساجد الأخرى - المساجد فى القاهرة القديمة
- تدهور العمارة المصرية - مسجد ابن طولون - مسجد السلطان
حسن - مسجد محمد على - الجامع الأزهر - مناهج التعليم
ونظامه بالأزهر - رأى المصريين فى الشعوب الأوربية *

بعد أن حطم البيزنطيون المسيحيون معابد الوثنية اعتزموا إعادة
بنائها وإعادة تشكيلها إلا أن افتقارهم للروح الإبداعية ، وجمودهم الفنى
فرضا عليهم تلفيق العناصر المعمارية والحضارية التى سلبوها من
غيرهم ، وتجميعها بشكل غير متناسق (١) * ولم تكن المواد لتعوز
المعماريين فموانئ مصر وسهول سوريا وجبالها تزخر بأعمدة من جرانيت
وصخر أسوانى ومرمر نفيس ، كما تزخر بتمائيل فرعونية وأغريقية
ورومانية - عامرة (الأعمدة والتمائيل) بكل التكوينات التشكيلية (٢) ،
فالمنزعة التوفيقية Syneretism للمعماريين والتى هى نتاج للصدفة
والاندفاع ، والغلو واللامبالاة - لاقت أعينا جاهلة غاية الجهل بحيث
لا يجرحها أن تقع على كل مخطط هجين يعوزه التناسق * لقد قام هؤلاء
المعماريون بتخليد العناصر المعمارية المتنافرة فيما يسمى بالنمط العربى
أو الاسلامى Saracenic Style مع أن جميع عناصر هذا النمط منتحلة

(١) كما تجلى ذلك فى تيجان الأعمدة على سبيل المثال * (بيرتون)
(٢) يحاول بيرتون فى هذا الفصل أرجاع كل عناصر العمارة الإسلامية الى حضارات
سابقة أو معاصرة - أو على أقل تقدير يحاول اثبات وحدة الفكر المعمارى البشرى من حيث
أن الوظيفة أو الحاجة هى التى تؤدى الى ايجاد الوحدة المعمارية أو المبانى ذات الوظائف
المختلفة وهو ما يعرف بالوظيفة * وهذا ليس غريبا على بيرتون الذى لا تخلو صفحة من
كتابه من استدعاء تشبيهات وأمثلة من حضارة الهند وأوربا وأفريقيا ، واستدعاء تشبيهات
وتمثيلات من حضارات قديمة (أغريقية ومصرية مثلا) وحضارات معاصرة * قد تختلف
أو تتفق معه ، لكن المكاره جديرة بالنظر - (المترجم) *

من الأنماط المعمارية البيزنطية (٣) ومكررة معادة فى النمط المعماري القوطي الذي هو فرع من النمط الاسلامي (٤) . وهذه الحقيقة تتجلى فى الأسلوب القوطي لتعدد عناصره المعمارية المتنافرة ، ولأن هذه الظاهرة فى أكثر حقبها كلاسية كانت مرادفة للفوضى المعمارية (عدم الاتساق المعماري) فى أوضح صوره . ولم تكن هذه الفوضى (عدم الاتساق المعماري) مقتصرة على المباني التي تم انشاؤها خلال فترات زمنية طويلة .

ان مثل هذا التذنى المعماري الذي يستخف بعنصر التناسق (السيمتريّة) ، والنتائج - فيما أعتقد - عن قصور فى الدمج أو الاستيعاب والخصوبة الفنية ، قد يجد - بلا شك - من يدافع عنه على أساس الأسباب التي أدت اليه والأثر الناتج عنه فالمعمارة فن قائم على المحاكاة والمزاج لكن الألوף المؤلفة فى كل مكان تبتهج بالتغيير ولا تمقت شيئا مقتها للتشابه الكامل والتماثل الدقيق . ومن هنا ، فلكي ننسخ نموذجا معماريا (أو نحاكيه بدقة) يجب أن نبحت عن التناظر الوظيفي العام ونجعله منسجما مع الفروق الفردية ، وفى الحقيقة فإنه يتحتم علينا أن نتجنب المبالغة فى اظهار الاتساق والنظام . ومرة أخرى فربما نؤكد أنه مهما كان عدم اتساق هذه الأشكال فإنها قد تبدو للعين التي ألقتها واعتادت عليها - جميلة متسقة ، فإننا نجد من السهولة أن نتغلب على احساسنا المبدئي بعدم الارتياح لهذه العناصر المتعارضة وربما انتهى بنا الأمر الى الاعجاب بها ، فما دمنا نحب ، فإن حبنا هذا يعوضنا عن عدم الاتساق بما فيه من تعدد وتباين وحدة فى التعبير .

وأعتقد أنه لا جديد فى المسجد العربى (الاسلامى) فهو مجرد احياء غير واع للأشكال المعمارية التي استخدمت منذ عصور ممعنة فى القدم ، فهذه الأشكال المعمارية القديمة كانت تدل بالرمز على عبادة آلهة مولدة أو خالقة . وسيعذرني القارئ اذا ألقيت مجرد نظرة على موضوع قد

(٣) يقول بيرتون فى تعليقه ان هذا الاقتباس المباشر من الأنماط المعمارية البيزنطية واضح تماما فى مساجد القاهرة القديمة . ولا ننكر تأثير الحضارات بعضها فى بعضها الآخر ، لكن انكار « خصوصية » كل حضارة فيه تجاوز شديد ، فهل أخذ المسلمون من الحضارة البيزنطية فكرة (الميضة) أو مكان الوضوء ؟ بالطبع لأن الوضوء خاصية اسلامية . وفكرة الأروقة الأربعة فرضها وجود مذاهب اسلامية أربعة ، ولو كانت خمسة لكانت الأروقة خمسة . وهكذا . ما دخل الحضارة البيزنطية بعدد المذاهب الاسلامية ؟ (المترجم)

(٤) يقول بيرتون ان الاسقف المحمولة على اقواس (عقود) تحملها اعمدة لم تعرف فى الآثار التقليدية ولا فى المساجد الاسلامية فى عصورها المبكرة .

يتطلب البحث فيه مجلدا ، كما أن مناقشته بالتفصيل ليست موضوع هذا الكتاب .

لقد كان أول مسجد فى الاسلام هو الذى أسسه محمد (صلى الله عليه وسلم) فى قباء بالقرب من المدينة (المنورة) . وقد حطم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك بوقت يسير ثلاثمائة وستين صنما كان العرب يعبدونها ، وطهر الكعبة (المشرفة) من هذه الأوثان بعد فتح مكة (المكرمة) . وربما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد لاحظ قبل ذلك فى بصرى Bostra بالشام التصميمين المعماريين المناسبين للعبادة المسيحية « (٥) ، وهما : الصليب والباسيلقا متوازيتا الأضلاع Parallelogramic Basilica (٦) ومن هنا فقد فضل محمد (صلى الله عليه وسلم) للمصلين المسلمين الشكل المربع دون رواق معمد مسقوف كما يذكر بعض المؤلفين أو برواق معمد مسقوف كما يذكر مؤلفون آخرون . وأخيرا - فى عهد الوليد بن عبد الملك (٩٠ هـ) ظهرت القبة والمحراب والمئذنة واتخذت مظهرها المعروف وظهر بالتالى ما يطلق عليه النمط العربى أو الاسلامى الذى ظل بعد ذلك نظاما معماريا أبديا للعالم الاسلامى .

واعتقد أن الهندوس هم أول من ربطوا عبادتهم برمز ، هو المثلث المتساوى الأضلاع ، فاليونى لنجا Yoni-Linga فى عمارة معابدها أصبحت اما مخروطية أو هرمية كاملة . أما مصر فقد ميزت عقيدتها بالمسلة وهى وحدة فنية اختلفت بها ، وان ظهرت فى أنحاء مختلفة من العالم ، وهى - أى المسلة - فى إنجلترا مجرد عمود حجرى ، وفى أيرلندا مجرد برج أسطوانى وقد تابع دانسرفيل D'Hancarville وبروتير Brotier بنجاح العبادات ذاتها فى مختلف معانيها ومتغيراتها عند كل

(٥) لقد بنى الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، وكذلك المسجد الحرام بمكة المكرمة ببساطة شديدة ، حكمتها مساحة الأرض المتوفرة ، فمسجد مكة المكرمة كانت تتداخل فيه البيوت مثلا ، كما حكمه المواد المتوفرة وهى الأحجار وسعف الخيل وجريده وجذوعه . ومن التنطع أن نقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاد نمطا بيزنطيا أو غير بيزنطى ، أو تحاشى تقليد النمط البيزنطى أو غير البيزنطى ، وكان مسجد الرسول بالمدينة ، والمسجد الحرام بمكة المكرمة على أيام الرسول بلا مآذن ، ولا محراب منحوت . ليس من الغريب أن يقع بيرتون - وهو بلا شك رحالة بارع وعالم قدير ، بل ومتعاطف مع العرب والمسلمين فى هذا الخطأ ١٩ - (المترجم) .

(٦) الباسيلقا مبنى رومانى فى أحد طرفيه جزء ناتئ نصف دائرى ، وقد تعنى كاتدرائية كاثوليكية . وهذا ليس المقصود هنا ، كما قد تعنى كنيسة قديمة مبنية على هذا الطراز - (مترجم) .

المشعوب ، فالرمز يوجد فى كل مكان . فالمئذنة العربية المبسكرة برج أسطوانى أملس أو مضلع بدون شرفات أو منصات ، ثم اتسع الاختلاف بين المآذن عند الأتراك والمصريين وأهل الحجاز - من ناحية الأسطوانة والموشور Prism . وقد قارن رحالة فرنسى بين أشكال المآذن وأشكال الشموع Un Chandelle Coiffée وأخيرا فالمآذن الأولى كانت صلبة مثلها فى ذلك مثل كل العناصر المعمارية القوطية ، وزودت - آى المآذن بأبراج هى نفسها القمة المستدقة والبرج الداخلى لدى أجدادنا الأوربيين .

ومنذ عصور سحيقة كان الصحن المكشوف اما مربعا او مستديرا يحاط بأروقة مسقوفة فى المناطق الحارة والمطرة - وكان يستخدم - آى الصحن - لغرضين من أغراض الكنيسة والسوق على سواء وهما عبادة الله وعبادة الشيطان ، لكل دوره . وفى بعض الأماكن وجدنا حلقات من الحجارة كمعابد النار الفارسية . وفى أماكن أخرى مبنى دائرى مقعر يمثل القبة السماوية حيث تعبد النار وغيرها من الرموز المقدسة ، وفى شبه الجزيرة العربية أروقة معمدة تعلوها قبة زرقاء بهية تشبه بستان النخيل . وقد تبنى اليونانيون هذه الفكرة فى هياكل الآلهة باخوس Creator Baccus (اله الخمر عند اليونان) وفى بوزولى Pozzuoli بالقرب من نابلس ، ويمكن مشاهدة ذلك فى المبنى الذى يسميه العامة معبد سيرابيس Serapis . وهذا التكوين المعماري معروف تماما للكلتيين kelts ففى بعض الأماكن جعلوا التيمينو دائريا وفى أماكن أخرى جعلوه رباعى الزوايا . والصحن فى مساجد الاسلام لا يختلف عن الصحن فى المباني الدينية آنفة الذكر فى الحضارات غير الاسلامية وحتى الرواق وهو الجزء المسقوف الذى يحيط بالصحن هو احياء لأفكار معمارية أقدم عهدا . فالجزء من المبنى المربع الذى يضم معبد سيرابيس ليس جزءا من الهيكل وفقا للرأى الشائع وانما هو سكن للكهنة وموضع لتقديم الأضحيات وحفظ البقايا والأدوات المقدسة ، كما أنه مصلى مكرس للآلهة الثانوية التى كانت نتاج عبادات محرفة وأكثر تعقيدا . فالأروقة فى المسجد أصبحت بمثابة خلايا تستخدم كقاعات للقاء الدروس ومكتبات لحفظ الكتب الموقوفة على المعهد . وهذه الأروقة غير متساوية فى مساحاتها إذ أن المطلوب أن يكون أحد الأروقة أوسع من غيره ، والسبب ذاته يكمن وراء اختلاف المساحات عندما يكون المبنى مكونا من أربع مساحات معمدة تنتهى الى صحن المسجد . فرواق القبلة - حيث يحتشد المصلون غالبا - لابد أن يكون أوسع من سواء من الأروقة الثلاثة الأخرى . كما أن الجناحين (الرواقين الجانبيين) عادة ما يكونان غير متساويين اما لنقص فى مواد البناء واما لأن متطلبات استخدامهما

لا تتطلب أن يكونا على درجة واحدة من الاتساع ، أما أعمدة المرواق فمن مواد مختلفة ، فبعضها من الرخام الجميل وبعضها الآخر من الأحجار الخشنة ، وتيجانها غير متشابهة ، أما أسطواناتها فنحتت بطريقة فجأة وهى مختلفة الحجم ، وتوجد قوصرات Pediment هنا وتندعم هناك ، وتقلب - أى القوصرات - رأسا على عقب حينما ثم تتصل معا من انصافها ، وغالبا ما يتم ذلك بعدم اتساق بسبب الجهل بقواعد توزيع المسافات بين الأعمدة . كل ذلك نتيجة النزعة المتوفيقية الميزنطية التى طعمت الفكر العربى بالاهمال والجهل ، فحب العظمة أو الفخامة والاعجاب بها ، بالاضافة الى ضخامة الخطئة المبدئية (التخطيط المبدئى) وطموحها ادبا بهم الى قلة الاهتمام بتنفيذ التفاصيل المجردة ، لقد أعوزتهم الفطنة فلم يدركوا الأثر الذى يتركه العمل غير المتقن والخطوط المعوجة والتوصيلات المكشوفة . . . مما سينطبع على المبنى ككل متكامل . واستخدامهم للألوان يدل على ذوق سقيم ، وهذا الذوق السقيم فى الألوان يظهر فى المباني الدينية وفى تماثيل الآلهة عند الشعوب المختلفة ، فالهندوس يطلون معابدهم متعددة الأدوار (باجوداتهم Pagodas من الداخل والخارج بأن يحكوها بصبغ كبريتور الزئبقيك (القرمزى) وكذلك تماثيل الهتهم توقيرا لها . ومعبد قيومار الفارسى وشبيهه فى طريق بلخ ، وكذلك أبو الهول فى مصر والمعابد الفرعونية على النيل - جميعها لا زال يبدو عليها آثار تعقيدات غير طبيعية (يقصد أصباغا) ، والهيكل فى المباني الاغريقية الكلاسية كانت مسبقة . وفى مباني المنتديات الرومانية العامة لازالت تحمل آثار الصبغ الأرجوانى . ونضرب مثلا أخيرا ، فى الكنائس وأبراجها فى ايطاليا الحديثة نرى أشرطة (نطاقات) من ألوان بيضاء وسوداء وكأنها قد صممت - لتعطى مظهر الأحمر الوحشية الضخمة . وأصل الزخارف العربية Arabesque يرجع الى أحد مبادئ الاسلام فالمسلمون ممنوعون بحكم الشريعة من تزيين مساجدهم بالتماثيل والصور ، لذا فقد زخرفوا مساجدهم بكتابات قرآنية وبفنون تشكيلية ميتافيزيقية معقدة للغاية (تبعث على الحيرة والارباك) وقد استخدم المسلمون أبجديتهم العربية لتحقيق هذا الغرض . وهنا ربما نشأت تباينات لا يمكن تخيلها فى النقوش المتشابهة وتباينات فى الطبقة الخارجية (القشرة) وفى الزخارف العربية وفى الورود الهندسية (التى تتخذ أشكالا هندسية) فتبتهج العين بحيرتها فيها (تضيق العين فيها) .

لقد أصبح المسجد الحرام بمكة المكرمة نموذجا يحتذى فى العالم الاسلامى ، فالشعوب التى اعتنقت هذه العقيدة الجديدة (الاسلام) قد بنت مساجدها على نسقه ، تماما كما قلدت الشعوب المسيحية المذبح المقدس . فمسجد عمرو بن الخطاب فى القدس ومسجد عمرو بن العاص فى بابلين على النيل ومسجد ابن طولون فى القاهرة ، قد تم انشاؤها جميعا - مع بعض التحسينات الطفيفة - على نسق الأروقة ذوات العقود والأفاريز المزينة بأشرطة من كتابات عربية على نسق (كسوة) الكعبة (المشرقة) . ومن مصر وفلسطين انتشر المرسوم الأفقى ichnography طولاً وعرضا . وقد تم تكييفه - كما هو متوقع - وفقا لأنواق الأمم ، فما كان فى شبه الجزيرة العربية أنيقا بسيطا ، أصبح فى اسبانيا مقعما بالزينات (V) ، وأصبح مزخرفا متمقا فى تركيا ، وأصبح ثابتا قويا فى سوريا ، وأصبح ذا طابع أنثوى فى الهند . ان اختلاف التفاصيل لم يغير من الناحية العملية التكوين الأساسى للمسجد رغم انقضاء اثنى عشر قرنا .

وربما لا توجد مدينة شرقية فى امكانها أن تقدم لنا نماذج متعددة أو نماذج متاحة لعمارة المسجده - مثل القاهرة ، ففيها ما بين ثلاثمائة وأربعمائة مكان للعبادة ، بعضها كركائز شامخة وبعضها مكشوف مخرب وكثير منها جديد ، وأكثر من الجديد تلك المباني الخربة التى ضربتها الزلازل ، ومآذنها تضارع فى ميلها برج بيزا - وجميع هذه المساجد يمكن للرحالة دخولها . وقد أمكن للأوربيين الذين اتبعوا نصائح أصحاب الفنادق التى يقيمون فيها أن يتوغلوا فى هذه المساجد ، فذلك أمر متاح . وإذا كانت عمارة هذه المساجد تعود بالفعل للعصر الذى تنتسب اليه - وهو ما أعتقد فى صحته - فإنها تدل على أقصى درجات الاحساس الفنى للشعب . وتتيح هذه المساجد مقارنة العمارة فى العهود المختلفة للملاحظة كيف أن كل دولة قد بنت مساجدها ومآذنها باطلاق اسمها عليها ، كما تتيح هذه المقارنة متابعة التدهور فى فن العمارة حقبة حقبة طوال ألف ومائتى عام حتى أيامنا هذه . وهو أمر ليس من المعتاد أن يهتم به الشرقيون . وعلى أية حال فان حدود برنامجى قد أجبرتني على أن أشير للقضايا الأساسية فقط ، وقد يدفع هذا بعض الرحالة العلماء لبحث الموضوع بالطريقة المناسبة لاهتماماتهم . فجامع ابن طولون المهم (القرن التاسع) بسيط وفخم بل ويتسم بالعظمة وبه خصوصية فى بعض

تفاصيله ، ولا يزال أحد صفوف الأعمدة الأربعة باقية ، ولا يقبع تحتها المساكن لترينا - أى صفوف الأعمدة - عظمة المبنى بعد تشييده ، أما أروقة المسجد الأخرى فمسورة ويقطنها الناس . وصحن المسجد مربع طول ضلعه مائة خطوة وفى وسطه مبنى له قبلة منبثق من موضع متوسط ، كموضع الكعبة فى وسط صحن المسجد الحرام . وهذا المسجد (الكاتدرائية) مثير للانتباه باعتباره نقطة فارقة (يمثل مجالا للمقارنة) فإذا كان مشييده يريد أن يجعل منه نسخة طبق الأصل من المسجد الحرام بمكة المكرمة سنة ٨٧٩ للميلاد ، فإن مبنى المسجد الحرام قد تغير كثيرا فى أيامنا هذه عما كان قبل ذلك .

ويلى مسجد ابن طولون تاريخيا ، مسجد السلطان الحاكم ثالث الخلفاء الفاطميين ومؤسس العقائد الدرزية الغامضة ، فالآن - هنا - تلفت النظر بأشكالها وأحجامها ، فليست مزودة بالشرفات الخارجية المعتادة كما أنها قائمة على مبنى مكعب ، وبها نوافذ يتضح بجلاء أنه لا معنى لها . وقد أخبرنى القاهريون المتعلمون أن هذه القمم المستدقة أو العساليج (جمع عسلوج) قد ابتكرها ملوك شواند لنشر دخان البخور فوق القاهرة أثناء أداء الصلوات فهى بمثابة مياخى ضخمة . أما الجامع الأزهر ومسجد الحسين فيعدان من المساجد البسيطة وأعمدهما خالية من الفن ، وهما مسجدان مشهوران بالطهارة والقداسة ، وإن كان من الملاحظ خلوهما من الأعمال الفنية . وعلى أية حال فليس هناك مبنى من المباني التى تتسم بالفخامة فى مظهرها أو توحى بأفكار أكثر نبلا عن مؤسسيتها ، أو مهندسيها - يفوق مبنى المسجد الذى يحمل اسم السلطان حسن . فالغريب يقف مبهورا أمام جدرانه الشاهقة دون ثغرة واحدة ، وأمام صحنه القاسى ذى الجمال الرجولى ، وأمام بوابته التى قد تكون ملائمة لأحد قصور التيتان (الجبابرة) ، وأمام مؤذنته السامقة التى تنم عن عظمة جبارة . وهذا المسجد (تم الانتهاء منه سنة ١٢٦٣ للميلاد) الذى يمثل حصنا فى أحد جوانب تكوينه المعماري - لا علاقة بينه وبين الجهود المعمارية التى تمت فى الحقبة الأخيرة ، إلا كالعلاقة بين كاتدرائية كانتربرى والطرز المعمارية الانجليزية «الهندية القوطية» (١١) ويعتبر مسجد السلطان حسن ، بالإضافة الى قبر قايتباى وغيره من قبور السلاطين المماليك - من المباني التى تدعو للعجاب وتعطى احساسا بالفخامة رغم تربعها على الخرائب . وقلما يرى الرحالة ما هو أكثر جمالا من الأضواء المنبعثة من الزجاج الملون والتى تلقى بنورها على الأرض الرخامية عندما يحل المساء .

ويجب على الرحالة أن يزور المساجد الحديثة في مصر ليروى العمارة المصرية في مرحلة تدهورها ، فمسجد السيدة زينب (سبتنا زينب) الذى أسسه مراد بك الملوك الذى واجهته الحملة الفرنسية يظهر حتى بعد اتمامه بعض شواهد التخلف فى الذوق المعماري . وليس هناك ما هو أكثر دعوة للغثيان من ذلك المبنى الذى يحدث كل سائح حماره ليراه (السائح وليس الحمار) ألا وهو مسجد محمد على ذو التكاليف الباهظة ، فمهندسو اليوناني قد بذل قصارى جهده فى المبالغة لجعل المسجد يضاهى عظمة مبنا الانجليزى الموسوم باسم المقصورة الشرقية oriental pavilion أما من الخارج فكما يغنى منكوتون ملنر :
« المآذن المتألئة نحيلة وسامقة »

فمآذن المسجد نحيلة جدا وتشمخ مرتفعة جدا فوق مستوى القباب المتكتلة معا لدرجة أنها (أى المآذن) تبدو كمغازل العجايز الشمطاوات ، وقد جعلت فى مواجهة كاملة ، مع مسجد السلطان حسن العملاق ، مما يظهر التناقض بكل عيوبه . أنسى المهندس القوس المستدق the pointed arch ذلك أن هذا المبنى (مسجد محمد على) ذا الطالع السيئ لا بد أن يلحقه الخزي بسبب هذه النوافذ المصنوعة من خشب وزجاج ، على هيئة متوازيات أضلاع صغيرة وكبيرة ، وضعها المهندس وشكلها ليعطى مظهرها الخارجى مظهر المسرح الأوربى بقباب شرقية ؟ وقد أنفقت النقود بتبذير على الرمر الملىء بالمشقوق والعيوب والذى يكسو بعض جوانب المسجد من داخله وخارجه . وحول قواعد الأعمدة وضعت عقد مذهبة ، وفى بعض المواضع زخرفت الجدران بخطوط لتبدو كأنها من رخام أما الأشغال الخشبية فقد كسوها بصفائح ذهبية لامعة . وبعد القاء نظرة على هذا المبنى غير الجميل ، لا يعجب المرء من قول كبار السن من المصريين من أنه رغم التعليم الأوربى ورغم النفقات التى تم انفاقها لتشجيع الهندسة والعمارة ، إلا أن الفن الحديث يقدم لهم ما يبعث على الانقباض ، مناقضا فى ذلك الأعمال المعمارية والفنية القديمة . ويقال أن صاحب السمو عباس باشا ينوى إقامة مسجد له يتخطى طموح الجيل الأخير . وأود أن أتجراً فأمل أن يشعل مهندسو « النار المقدسة » من مسجد السلطان حسن ، لا من مسجد محمد على ذى الفخامة التركية اليونانية . فمسجد السلطان حسن يشبه فى أصلته العثمانية غير الزائفة فى الأزمنة العثمانية الأولى ، أزمنة القوة والرزانة والتكوينات الوقورة التى تشير لعقل قوى - والتى تدل على عظمة الانسان وعناده . أما مسجد محمد على ففيه أناقة الأتراك وضعفهم يعد أن لبسوا البنطلونات وسترات الفراك Frock Coats (السترات

التي تبلغ الركبتين ولونها أسود) والطرابيش - لباس سقيم وأحوال سقيمة ، ونسل سقيم غير طبيعي شكلا ومضمونا (بدنا وروحا) .

وسندخل الآن الجامع الأزهر . لقد خلعنا صنادلنا وأخفافنا عند سور خشبي منخفض ، وأمسك كل منا صندله (أو خفه) بيده اليسرى بحيث يكون نعل كل (فردة) ملاصقا للنعل (الفردة) الأخرى حتى لا تتساقط منها القاذورات ، وعبرنا العتبة بأقدامنا اليمنى ونحن نقول : « بسم الله » ثم دلفنا الى الميضة Mayza'ah وهى خزان ماء للوضوء ، اذ أن الشريعة الاسلامية لا تقر دخول المسجد بغير وضوء (*) وبعدئذ فتشنا عن مكان ملائم للصلاة ووضعنا صنادلنا وأخفافنا فى موضع آخر أمامنا لنحذر المتسكعين ، وصلينا ركعتين « تحية المسجد » ولما أتممنا ذلك رحنا نجول باحثين عن المواضع والأشياء المثيرة للفضول .

القمر يسطع ببهائه على صحن المسجد المرصوف (أى الصحن) بالأحجار التى نعمتها كثرة أقدام المصلين التى تمر عليها ، فجعلتها براقة لامعة كالزجاج . وثمة ظلمة داخل مبنى المسجد ، وهو مساحة مستطيلة ضخمة تشكل غابة من الأعمدة النحيلة ذوات المنظر المتواضع . انها صفوف من الأعمدة الرخامية المائلة (أى الصفوف) التى نصبت كالأشجار المصفوفة على جانبى طريق ريفى ، وقد فرشت الأرض بحصير بال وغير نظيف . وثمة بعض المصابيح القليلة تلقى بضوئها الواهن على مجموعات قليلة يناقشون بعض مسائل النحو أو يستمعون الى الكلمات الحكيمة التى تتساقط من فم أحد الوعاظ . وسرعان ما غادروا البناء المعمد (ذا الأعمدة) وتناثروا على أحجار الصحن لينعموا بالهواء الطلق ويتجنبوا بعض البراغيث . اننا الآن فى وقت « اجازة طويلة » لذا فقد تحول المسجد الى مكان كالخان يرتاده المسافرون ، وربما كانت أم لا حصر لها تلتقى به ، فثمة خليط من اللغات فى المسجد ، وثمة ضجيج يصم الأذان فى أوقات . وحول الصحن تدور صفوف الأعمدة (فى الأروقة) جيدة البناء وقد زين طبان (محمول) (٨) هذه الأعمدة بالمرقش العربى القرمزى ، وتقضى الجدران الداخلية لغرف مغلقة الآن بأبواب ذوات ألواح خشبية سميكة ، ويحوى الأزهر أربعة وعشرين رواقا ؛ زواق

(٨) الطبان أو المحمول entablature هو كل ما فوق العمود : التاج ، والساكف والافريز (وتكون عليه الزخارف ، والطنف وهو ما فوق الافريز . عن معجم مصطلحات الفنون لعقيد البهنسى ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - (المترجم) .

(*) الشريعة الاسلامية لا تقر الصلاة بغير وضوء أما مجرد دخول المسجد فلا يشترط فيه الوضوء - (المترجم) .

لكل أمة من أمم الاسلام المعترف بها ، ومن بين هذه الأوراق لا يزال أربعة عشر رواقا مشغولة بالطلاب ، ولا نجد داخل هذه الأوراق الا الحصر وعددا من الصناديق الخشبية الكبيرة الداكنة ، كانت ذات يوم تمثل مكتبة الجامعة (يقصد الجامع) الا أن هذه الصناديق فارغة الآن ، وفقا للأقوال السائدة •

لا شيء يستحق أن يراه المرء فى مجموعة الغرف المظلمة التى تشكل بقايا الأزهر ، فحتى زاوية العميان التى كانت تخرج أعدادا كبيرة من الطلاب والأساتذة قد أصبحت مكانا ليس به ما يثير سوى تعصب النازليين فيها ، والحقيقة أننا اذا تعرفنا على ما فى هذه المعتزلات ، فسندلقى بالقفاز تحت عصى مالكيه - العميان الغاضبين •

والأزهر هو الجامع والجامعة فى القاهرة ، وكان ذات يوم مشهورا فى العالم الاسلامى كله • وقد بناه القائد جوهر الذى كان عبدا لتاجر مراكشى - كما أخبرونى - أثر رؤيا منامية تلقى فيها أمرا بأن يذشىء مسجدا يشع نور العلم على الاسلام •

واتسع الجامع الأزهر بالتدريج بفضل الأوقاف من أراض وأموال وكتب ، وعمل الحكام الصالحون على توسيعه وإثرائه • الا أن أحواله قد تدهورت فى الأعوام الأخيرة نتيجة التشتت Sequestration ونتيجة تدنى قيمة العلوم الاسلامية الخالصة فى مصر الآن • ومع هذا ففي الأزهر الآن ما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ طالب من مختلف الأمم والأعمار يتلقون العلم مجانا • بل ويقدم لهم الخبز بكميات تتقرر حسب عدد النزلاء من أمة الطلاب فى رواقهم - وبعض الملابس فى الأعياد ، وقروش قليلة مرة كل عام • أما الأساتذة (العلماء) الذين يبلغ عددهم ١٥٠ فقد لا يأخذون رسوما (أجرا) من طلابهم ويلقى بعضهم محاضرات (دروسا) إبتغاء مرضاة الله ، بينما يبغى آخرون الحصول على شرف أن يكون « أستاذا بالأزهر » • ويتلقى ستة موظفين رواتب من الحكومة هم : شيخ الجامع وهو بمثابة العميد ، وشيخ السقا (شيخ السقائين) الذى ينظم أمداد المسجد بالماء للوضوء ، والباقون هم بمثابة رؤساء أقسام •

وفيما يلى طريقة الدراسة فى الأزهر • فالولد يظل لمدة أربع سنوات أو خمس يتعلم ترتيل القرآن (الكريم) ضربا بالعصا ، وفقا للحكمة الشائعة « عصا المعلم الخضراء من شجر الجنة » دون أن يفهم معناه (أى القرآن الكريم) ، كما يدرس مبادئ الحساب ، واذا ما اعتزم أن يدخل فى زمرة العلماء ، تعلم فن الكتابة ثم يسجل اسمه فى الأزهر ،

ويعد نفسه لدراسة العلوم ذات الجذور العميقة فى الاسلام وهى النحو والفقه والحديث والتفسير .

ويقراً الشاب المصرى فى الوقت نفسه فى الصرف والنحو ، ولكن لأن العربية هى لغته الأم فليس من الضرورى دراسة الصرف بتعمق كما يفعل الأتراك والفرس والهنود عندما يدرسون العربية وإذا رغب - على أية حال - أن يكون متخصصا كفتا فان عليه أن يتابع دراسة خمسة كتب فى الصرف وستة فى النحو .

وبعد أن أصبح الطالب متخصصا بارعا فى النحو ، فانه يخصص نفسه بعد ذلك للهدف النهائى وهو الدين . وتوجد أربعة مذاهب هى مذهب أبى حنيفة ومذهب الشافعى وهما مذهبان شائعان فى القاهرة ، أما اتباع مذهب الامام مالك فيوجدون فقط فى صعيد مصر وفى بريرة Berberah . أما المذهب الحنبلى فغير معروف غالبا ، وتبدأ دراسة التوحيد والفقه بما يسمى دراسة المتن وهو نص موجز وجاف وغامض فى الغالب ، وفى الحقيقة فان المتن لا يتعدى أن يكون هيكلا للموضوع لا يضم سوى رؤوس الموضوعات ويتعلم الطالب المتن بتكرار قراءته حتى يستطيع تكرار كل فقرة فيه حرفيا ، ثم يبدأ فى دراسة الشرح وقد ألفه - بشكل عام عالم آخر غير الذى ألف المتن ، ويقدم الشرح توضيحا لبعض ما غمض فى المتن . انه مجرد توسيع للمتن ، ويعرض المسائل الشاذة أو الاستثنائية والأسباب (التعليقات) ومجرد عرض للمبادئ العامة . وإذا كان المتن صعبا زود فى بعض الأحيان بالحواشى ، لكن هذه الحواشى المعينة لا تحظى بالقبول فثمة قول هزلى شائع مؤداه :

القراءة بالحواشى ،

لكن التعليم بالصم (الحفظ دون فهم) (٩) .

وذلك يرجع لعدم تنمية قدرات الطالب على التعليل أو معرفة الأسباب بالتدريبات فهو يتعلم أن يعتمد على أقوال أستاذه أكثر من اعتماده على

(٩) النص : Who readeth with note But Learneth by rote.

ولابد أن المقابل العربى كان مسجوعا منغوما ، لكننى اكتفيت بنقل المعنى كما هو واضح - (المترجم) .

أن يفكر بنفسه • كما يؤدي هذا الى اهمال ممارسة أخرى يدافع عنها معلمو الشرق بشدة ، تتجلى في قولهم :

المحاضرة واحدة

والآراء (حول موضوع المحاضرة) ألف •

فلكى تصبح فقيها أو عالم توحيد ذا شهرة فان كنت حنفى المذهب لا بد أن تدرس حوالى عشرة مجلدات - بعضها ضخمة ، ومكتوب بأسهاب ، أما القراءة في المذهب الشافعى فليست شديدة التوسع بهذا الشكل • ولا بد من دراسة الفقه والتوحيد بتعمق لأنه يؤدي بدراسة مباشرة الى اكتساب الرزق يوميا (أكل العيش) باعتباره واعظا أو معلما ، أما العلوم الأخرى فمهملة لسبب عكس الذي ذكرناه آنفا •

وعلماء الفقه والتوحيد في مصر - مثلهم في ذلك مثل أقرانهم في سائر العالم الاسلامي • يجب أن يلموا الماما كبيرا بحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسيرته • وفي هذا المجال توجد ثمانى مجموعات مشهورة ، وان كانت الأعمال الثلاثة الاولى منها هي التي تقرأ بشكل عام •

وفي مرحلة باكرة يتعلم الأطفال قراءة القرآن ، أما في المرحلة الجامعية (عندما يلتحقون بالأزهر) فيتعلمون مزيدا من القراءات • وأسلوب التعليم في هذا المجال هو الحفظ وهو الأسلوب التعليمي الشائع في مصر ، بل والعالم الاسلامي كله • وبعد أن يتعلم الطالب كيف يقرأ القرآن الكريم ، يكون لدى بعض العلماء الطموح الكافي للرجعة في فهمه • وفي هذه الحال عليهم أن يطرقوا باب علم التفسير •

لقد أصبح طالبنا الآن بعد درس كل هذا وحفظه فقيها كاملا أو ملا (*) Mullā ، ولكن اذا لم تهيأ للطالب الفقير منحه دراسية واشراف علمي ، فليس عليه أن يتطلع لحياة رغدة • وبعد أن يكون قد أضاع سبع سنوات أو ضعفها في دراسته ، وقرأ حتى دار عقله وفقد صوابه وأصبح نصف أعمى ، فان عليه اما أن يتهالك على الصدقات المقدمة للكلية (الجامع) أو أن يجثم في دكان عطارة مثل شيوخ العجوز محمود أو أن يعط ويعلم في بعض القرى والبلدان مقابل ثمانية جنيهات استرلينية في العام • وفي ظل هذه الظروف ، يعجب المرء كيف يقدم الأزهر أى دافع للدراسة به ، لكن رجل الجنوب (ربما يقصد العالم الثالث ، أو أهل الصعيد ، والمعنى الأول هو الأقرب) عاطل كسول بشكل

(*) ملا - بضم الميم وتشديد اللام وفتحها - (المترجم) •

أساسى ، وبذلك يتخرج كثيرون من الأزهر ويصبحون علماء لا يفعلون شيئاً ، مثلهم فى ذلك مثل الرهبان الكابوشيين Capuchians . والقلة الموهوبة تصل الى درجة مدرس ومن ثم يصبحون قضاة ومفتين ، وهذا دافع آخر للالتحاق بالأزهر ، فكل طالب لم يتخرج فى الأزهر بعد وقد وضع عينيه على منصب القاضى مع أن فرصة وصوله لهذا المنصب لا تزيد عن فرصة كاهن الأبرشية فى أن يصبح كاردينالاً . وبعض خريجي الأزهر يحطون من قدر أنفسهم ليعملوا كوكلاء Wakils (محامون) أو يجربون حظهم فى الأعمال الكتابية - كمحاسبين حكوميين ، أو لدى أفراد .

وقبل أن أنهى الحديث فى هذا الموضوع أقول اننى لا أستطيع أن أتفق مع الدكتور بورنج Bowring الذى يقول - بقسوة - عن التعليم الإسلامى : « أن المقررات الدراسية التى يقدمها أساتذة الشريعة فى المدارس الدينية لأعداد علماء المسلمين - لا قيمة لها على الإطلاق » فرائه هذا يواجه بنفس القدر من الاعتراضات التى توجه لأولئك الذين يقللون من شأن الشريعة ذاتها ، فمثل هذه الآراء تتناول الوصايا الشكلية أكثر مما تتناول الأخلاقيات والمعانى الكامنة وراء الظواهر . (الشكل دون المضمون) فكلما الجانبين (العقائد والممارسات) كانا دائماً كلا واحداً - بشكل واضح - فى العقل الشرقى . فعندما يتعلم الناس أن يقدروا الأخلاق وأن يفهموا النفس ويحسوا بالجمال ، فإن الحاجة الى ذلك ستخلق الوسيلة (الأداة) . ففى الوقت الحاضر نجدهم قد تخلوا عن الفكر المجرد لشعرائهم وفلاسفتهم ، وشغلوا أنفسهم بالاستعداد للقاء الله بممارسة الجانب المادى من دينهم ، وهو الجانب الوحيد الذى يفهمونه الآن .

فليس من المفترض أن أمة فى هذه المرحلة الحضارية ، كالأمة المصرية تؤمن إيماناً متحمساً دون أن يمتزج إيمانها بالتعصب . فلسانهم الذى يسبحون به الله هو نفسه اللسان الذى يلعنون به أعداء الله . وعلى هذا فالمكافر ملعون من كل جنس وعمر وطبقة وفى كل الظروف ، وملعون من الجريين والمتحررين ، وهو ملعون من قبل صبية المدارس وخارج المساجد ودأخلها . فإذا سألت صديقك من هو هذا الشخص ذو العمامة السوداء ؟ فإنه يجيب : « أنه مسيحى - زرق الله سحنته » وأن تسأل خادمك : من هم الذين يغنون فى المنزل المجاور ؟ ستأتيك الإجابة غالباً (بنسبة ٩ الى ١٠) كالتالى : « يهود . عسى يزجون فى جهنم » . ويبدو من غير المفهوم أن المصريين الذين عاشوا كخدم لسنوات فى ظل

الأوروبيين - لازلوا يشمئزون بوضوح من عادات أسيادهم وتقاليدهم ، وأوربيون قليلون - باستثناء الذين اختلطوا بالمصريين تحت قناع شرقى - هم الذين يدركون اشمئزاز المصريين منهم واحتقارهم لهم ، وما سوى ذلك فمجرد غطاء من كياسة فطرية ، أو مجرد قشرة من الجاملة وسرعان ما تتكشف مشاعرهم الحقيقية اذا أثير نقاش عن الأديان الغريبة . لقد أتاحت لى فرصة طيبة لتأكيد صدق هذا وذلك عندما سرت الاشاعة الأولى عن الحرب الروسية فقد تنادى كل القادرين بدنيا بالجهاد (الحرب المقدسة) وكان الشئ الوحيد الواضح فى مداركهم هو التقليل بشدة من شأن أعدائهم . وبدا الجميع مبهتهجين بفكرة التعاون مع الفرنسيين فالفرنسى - بشكل أو آخر - له شعبية فى كل مكان . وعند الحديث عن انجلترا فانهم لا يكونون متساهلين بالمقدر نفسه فيلوون رؤوسهم ويمتدحون بعبارات دينية ، وأخيرا تأتي الصيحة الشرقية القديمة « الحق ان هؤلاء الانجليز شياطين » أما النمساويون فهم محترقون لأن أهل الشرق لا يعرفون شيئا عنهم منذ حصار العثمانيين لبوابات قينا . واليونانيون مكروهون باعتبارهم أنذالا (أوغادا) ماهرين يلحقون الأذى بالاسلام ، وينظر المصريون لأهل مالطا باحتقار بالغ ، أما الايطاليون فمعروفون بشكل أساسى أنهم istraturi-distruttori - أطباء وصيادلة ومعلمون . فطبيعة المصريين - كالتبيعة البشرية فى كل مكان - تتسم بالتناقض . انهم يكرهون الأوروبيين ويحتقرونهم ومع ذلك فقد استكانوا طويلا للحكم الأوربى (١٠) فهذا الشعب يبدي اعجابا باليد الحديدية والحكم المطلق الشجاع ، ويكره الحكم الاستبدادى الرعديد الذى يسحقهم سحقا . ومن بين الأجانب جميعا يفضل المصريون القيد الفرنسى French Yoke وهذا يرجع للمهارة السياسية والعظمة الوطنية لجيراننا عبر القنال الانجليزى . لكن أى دولة تضمن السيطرة على مصر ، تكون قد ربحت كنزا فمصر تحيطها البحار من الشمال والجنوب (١١) وتحيطها

(١٠) قام بيرتون برحلته سنة ١٨٥٢ أى فى عهد عباس الأول ، وكتب رحلته فى عهد سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٢) فماذا يعنى بخضوع المصريين للحكم الأوربى طويلا . فالحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١) لم تمكث فى مصر طويلا ، والقوات الانجليزية التى أدت للمساعدة فى اخراج الحملن الفرنسية تلكأت قليلا لكنها سرعان ما خرجت ، وحملة فريزر ١٨٠٧ على مصر باءت بالفشل . ربما يقصد تغلغل النفوذ الأوربى فى مصر بعد مؤتمر لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ - (المترجم) .

(١١) كانت الدولة المصرية فى عهد محمد على تضم السودان وشبه جزيرة العرب ، وفى عهد اسماعيل شملت القرن الافريقى بالاضافة للسودان . وهذا يفسر عبارة بيرتون هذه - (المترجم) .

الصحراء التى لا يمكن اجتيازها من الشرق والغرب ، ومصر قادرة على تجهيز ١٨٠٠٠ مقاتل ، وقادرة على دفع ضرائب ثقيلة ، ويمكن أن تقدم فائضا كبيرا ، فلو وقعت مصر فى أيدي الغرب سهلت السيطرة على الهند ، ومكنت من فتح أفريقيا الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عند السويس .

وليس من خوف كثير من تعصب المصريين ، فقليل من التدبير يكفى للسيطرة على المسجد . فرؤساء المؤسسات (ركائز العصب) - نظرا ليل الشعور العالم لهم - سيضعون عقبات أمام الغزاة أو الحاكم الأجنبي - أقل بكثير مما يضعه العلماء (١٢) . وباختصار فمصر هى أكثر الجوائز اغراء بحيث تجعل الشرق يبعدها عن أطماع أوروبا - انها أهم حتى من القرن الذهبى .

(١٢) يقصد بيرتون كما هو واضح أن الدراويش والطرق الصوفية لا خطر منها ، وليس لها كبير جهد فى الدفاع عن استقلال البلاد ، وإنما الخرف كل الخرف من العلماء الراعين المتعسكين بالدين بوجهه الصحيح - (المترجم) .

الفصل السابع

الاستعداد لمغادرة القاهرة

مظاهر عيد الفطر - التعامل فى مراكز الشرطة - باشا الليل -
الامتيازات الاجنبية - زنانيرى - نورى - محمد البسيوتى -
تدبير المال لاستكمال الرحلة - كيفية تخبئة النقود خوفا من اللصوص -
- رئيس رواق الافغان بالازهر - اليوزباشى الالبانى -

وأخيرا ، ولى رمضان شهر البركات ، وكم كانت أيامه طويلة ،
فغمرتنا البهجة على نحو ما كانت البهجة تغمر الرومان بعد انهساء
الكارزما Quaresima ، فانطلقت المدافع من القلعة معلنة انتهاء متاعبنا
مع هذا الصوم الكبير Lenten Woes . وقد قدم جميع الناس زكاة
الفطر فى اليوم الأخير من شهر رمضان للفقراء بواقع قرش ونصف القرش
عن كل فرد من أفراد الأسرة ، بما فى ذلك العبيد والخدم كرب الأسرة
سواء بسواء . وفى اليوم التالى وهو أحد أيام ثلاثة يقال لها أيام العيد
الصغير (أو عيد الفطر) ، استيقظنا قبل الفجر فاغتسلنا وتوضأنا ،
واتخذنا سبيلنا للمسجد لأداء صلاة العيد والاستماع الى الخطبة التى
حُتنتا على المرح لكن برزانة ووقار . وبعد ذلك أكلنا وشربنا ياسراف ،
وحملنا فى أيدينا الغلابين وأكياس التمباك ورحنا نمشى بخطوات وثيدة
لنستمتع برؤية الوجوه الباشة ومظاهر الفرح والسعادة فى الشوارع .

والمكان الأثير فى هذه المناسبة هو المقبرة الواسعة خلف باب
النصر ، وهو بوابة متينة وعتيقة تفتح على الطريق المؤدى للسويس .
وقد وجدنا فى هذه المقبرة مظاهر ابتهاج صاخبة . فالخيام والمقاهى التى
أعدت على عجل زاخرة بالرجال فى أروع ملابسهم ، وهم يستمعون الى
المغنين والعازفين ، ويدخنون ويثرثرون ، ويشاهدون الحواة والمهرجين
وسحرة الأفاعى Snake-Charmers والدراويش والقردائية (أو مدربى

القرود) والصبيبة الذين يرقصون وقد ارتدوا أزياء نسائية • وقد حفت الطرقات بموائد الطعام ، ومحلات بيع الصلوى (الكراميل) والسقائف (الشواذر) المليئة بأدوات اللعب ، والظلل التي يباع تحتها شراب الليمون والشربات ، ويتداخل كل هذا مع الأرجوحات (المراجيح) ولعب الدوامة (المدورة) merry-go-round التي هى محط أنظار الصغار والصغيرات • والمعلم الرئيسى فى هذا الزحام ، أن القاهريين ذوى الوسامة ، يحملون فى أيديهم أخواص النخيل الطويلة ليجعلوا منها زينة لقفور آبائهم وأصدقائهم • الا أنه حتى فى هذه المناسبة الوقورة ، يوجد ، كما يقولون ، حالات غير قليلة من الغزل بالحسان ، بل وممارسات الجنس love-making ، لذا فثمة فرق من الشرطة مفوضة بمنع كل خروج عن الآداب ، ويحمل أفراد هذه الفرق عصيا طويلة ، الا أن طاعتهم أقل من المسئولية المنوطة بهم • فلم استطع ملاحقة الجماعات التى تتوغل زوجا زوجا (مثنى مثنى) لمسافات غير معتادة بين تلال الرمال ، حيث كانت أصوات الضرب بالفلقة (على الأقدام) تصك الأذان • وعلى أية حال ، فان هذه السفاسف لم تكن – بأية حال – لتعكر جو السرور السائد • فكل امرئ قد ارتدى شيئا جديدا ، فمعظم الناس كانوا يختالون فى حلل مزركشة جديدة يزعمون الاحتفاظ بها خلال العام ، وياله من خيلاء (١) شخصى عارم ، ذلك الذى يعتمل فى صدور الشرقيين رجالا ونساء ، شبايا وشيبيا ، فمن القاهرة الى كلكتا قد يكون من الصعب أن تجد قلبا حزينا تحت معطف أذيق فالرجال يمشون فى الأرض مرحا ، والنساء يضربن بأرجلهن متبخترات ، ولا يغضضن أبصارهن ، معانجات (جمع : مغناجة) بكل ما فى الغنج والدلال من معان رغم رءوسهن التى يغلفها الخمار • والصغار يتباهون بشكل قبيح على أولاد الجيران اذا كانت حلة الواحد منهم أفضل من حلة جاره • والبنات الصغيرات يرمقن يلحظهن العاشق كل عابر رمق ذات النزوة الشبقة ، كما ينظرن بتحد واحتقار للأخريات اللائى يناقسنهن •

لقد تجولت أنا والحاج حول المدينة ، وتبادلنا الزيارات كما يحدث عندنا فى أوروبا بمناسبة العام الجديد • ويمكننى أن أصف الزيارات فى مصر بأنها مجرد مناقشة عن النرجيلة والقهوة فى مكان ، ومناقشة عن النرجيلة والقهوة فى مكان آخر • الا أنه فى هذه المناسبة فاننا

(١) استخدم بيرتون لفظ Vainly وقد يعنى خواء القلب أو (روقان البال)

أو ما شابه ذلك ، فى هذا السياق – (المترجم) •

إذا التقينا بصديق القى الواحد منا بنفسه بين أحضان الآخر ، واضعا ذراعه اليمنى فوق كتفه اليسرى ، والعكس بالعكس and vice versa ويعصر الواحد منا الآخر ، وكأننا مصارعان ، فى عنق غير منقطع ، ثم يلتصق خداننا برقة ، ثم نشبع الهواء بأصوات قبلاتنا .
والتحية فى مناسبة العيد هى : « كل عام وانتم بخير » ثم يأتى دور الأمنيات الطيبة الوافرة والتوقعات الطيبة ، وبالنسبة للشخص المتدين فإن المرء يتوقع منه البركة ودعاء موجزا . ولتوضيح أوجه الشبه بين الأعياد الاسلامية والأعياد المسيحية ، أذكر أننا نتناول أطباقا ارتبطت بهذا اليوم هى أطباق السمك والشريك Shurayk وكعك الصليب Cross bun خاصة الكعك العسير هضمه والذى يسمونه فى مصر الكحك Kahk الذى يعدونه حلوى الاسلام .

. the plum-pudding of Al-Islam

لمقد كان العيد هذا العام كثيبا نظرا للأحوال السياسية اذا قورنت الأحاديث فيه بأحاديث الأعياد الخوالى ، فأخبار الحرب مع روسيا ، ومع فرنسا ، ومع انجلترا التى كانت بصدد اذلال ثلاثة ملايين رجل فى السويد ، ومع دولة الكفر بشكل عام ، كلها تلقى صدى فى مصر ، فمدينة المريخ أو اله الحرب the city of Mars (يقصد القاهرة) أصبحت على غير العادة مدينة أساسية . فالتحصينات الحكومية والترسانات والمصانع ، كلها جميعا ازدحمت بالعمال المخطوفين (المسخرين) . وبالنسبة لأولئك الذين قصدوا الحج ، فقد اعتراهم خوف من الاحتجاز القسرى . فحيثما يتجمع الناس فى المساجد مثلا أو فى المقاهى ، سارعت الشرطة فغلقت الأبواب وقبضت عنوة على القادرين بدنيا وهذا الاجراء بربرى مماثل فى بربريته لقانون الاجبار على الخدمة العسكرية عندنا ، فقد ملأ الشوارع الرئيسية بكتائب من البؤساء الذين يستحق منظرهم الشفقة ، وقد ساقوهم ليجعلوا منهم جنودا ، وقد طوقوا رقابهم بالأطواق المعدنية والتفت السلاسل المعدنية حول أرساغهم . وزاد من كآبة المنظر ، زحام النسوة وهن يتبعن أبناءهن وأخوانهن وأزواجهن مولولات نائحات ، واضعات الطين والتراب فوق ملابسهن المشقوقة ، وهى أمور معتادة فى حالة الحزن والولولة عند الموت ، طريقة خاصة للتعبير عن اللوعة بسبب الفراق ، وأصل هذه العادة من السمات المميزة للناس .
وبالنسبة للنساء الشرقيات ، فإن المناسبات الترفيهية العامة ، المسموح لهن بحضورها هى الاحتفالات بمناسبة المولود الجديد ، وحفلات الزواج ، وحضور الجنازات ، فهذه المناسبات جميعا تعد بالنسبة للنساء مجالا

للترفيه أو ما يطلق عليه بشكل عام مجالا للفنتظة (أو الفنتظية) (٢) وفى حالات كثيرة ، كانت حروب أسرة محمد على الباكزة فى الشام والحجاز ، قد حرمت النساء من حقهن الأنثوى فى الزواج على الميت ، فانهن الآن مصممات الا يضعن الفرصة ، وأن يستمتعن بترف الزواج على حياة المتوفى والبكاء عند جثته .

وثة سحابة أخرى معلقة فى سماء القاهرة ، فالشائعات عن المؤامرات والمتآمرين تملأ كل مكان . فاليهود والمسيحيون هنا ، مستعدون لمواجهة الخطر (أخذون حذرهم) كالانجليز فى ايطاليا - ترتعد فرائصهم خوفا من الاستعدادات المرعبة للعصيان المسلح والسلب . وحتى المسلمون يتهامسون بأن بضع مئات من المجرمين الخطرين قد أزمعوا احراق القاهرة مبتدئين بحى البنوك ، كما يزمعون نهب المصريين الأثرياء . وعلى أية حال فان سمو عباس باشا كان غائبا فى ذلك الوقت ، وحتى لو كان فى القاهرة ، فان حضوره لم يكن يغنى كثيرا ، فالحاكم لا يستطيع أن يفعل شيئا نحو اعادة الثقة للأمة الشرقية (لشعوب الشرق) المفعمة نعرا (التى ينذر الذعر والخوف فيها) .

وعند نهاية هذه الفورة - كان ثمة رد فعل مضاد من السلطة السياسية ، فقد بدأ قادة الشرطة فى التنمر ، فصدرت الأوامر المشددة فى مدن مصر الرئيسية بأن كل من يخرج من بيته بعد حلول الظلام دون أن يحمل معه فانوسا ، سيقضى ليلته فى مركز الشرطة وان كان هناك - عادة - بعض التراخى فى تطبيق ذلك فى القاهرة فى أحياء بعينها ، كحى الأزبكية على سبيل المثال . وقبل أن أغادر القاهرة سحبوا منى الترخيص ، وقد أدت هذه الصرامة المفاجئة الى كثير من المشاهد المثيرة للسخرية .

فاذا أنت أرسلت - بالصدفة - فانوسك مع خادمك الى بيت صديق ، ثم لحقت به على سبيل المجاملة بعد الساعة الثامنة بدقائق خمس (بزيك الشرقى) فكن واثقا أن العسس (الشرطة) سيقابلونك ، ويوقفونك ويطلقونك ، ويستجوبونك ، ويقبضون عليك ، وربما أفلت من ثلاثة منهم أو أربعة ، لكنك ستجد اثنى عشر منهم (دستة) من القوة بحيث لا يمكنك الافلات ، فيمسكون بشدة أكمامك ، وذيل جلبابك ، ويطلقونك من فوق

(٢) لا يخفى على القارئ أن العامة ينطقونها بالمطاء : الفنطنلة أو الفنطنلية

Fantasia بالمعنى الذى اشار له بيرتون فالقصور اذن هنا ان هذه المناسبات مجال

(للفرفشة) أو (المسخرة) - (المترجم) .

عباءتك الفضفاضة ، فتجد نفسك طائرا فوق سطح الأرض بقرابة تسع بوصات ، فلا تجد قدماك شيئا تلامسه غير الهواء . وستجد نفسك مسحوبا وقد أمسكوا بتلابيبك بسرعة قلما تسمح لك بالاجابة عن سيل أسئلتهم عن اسمك وجنسييتك وسكنك ودينك ومهنتك وعن سائر أمورك بشكل عام - خصوصا عن الوضع الحالى لكيس نقودك . فان استجبت للطلب المغرى المتمثل فى أن تدفع قطعة نقدية فضية (كرون) سرعان ما تقل تدريجيا الى بنسين أو نصف بنس - مقابل اطلاق سراحك - فانك تكون قد وقعت فى شرك صغير ، اذ سيصوبون اليك البندقية قديمة الطراز ويستولون على كل مالك متهمين اياك بالعناد وتضييع الوقت . لكن اذا تظاهرت بأنك نسيت كيس نقودك - وهذا هو الأقرب للعقل - فانهم سيسبونك ويسحبونك بعنف متزايد الى مكتب ضابط الشرطة Zabil وهناك يدفعونك بعنف فى ممر مقنطر يؤدى الى ساحة ، وقد صف العسكر على جانبي هذا الممر ، وكلما مررت بواحد منهم أعطاك (قفا Kafa) أى ضربك على قفاك . ورغم غضبك فسيدفعونك فوق سلالم تقضى الى ممر طويل ممتلىء بكثيرين وقعوا فى الورطة نفسها التى وقعت فيها . ومرة أخرى يسألك كاتب ذو نظرات مرعبة عن اسمك ، وجنسييتك ، وأنا افترض هنا أنك متنكر أو تدعى شخصية غير شخصيتك - وتهمتك ، ويدون كل هذا بدقة فى سجل ، فاذا لم توفق فى الاجابة فانهم يدفعون بك الى زنزانة المدانين (الهاسيل Hasil ؟) لتقضى ليلتك مع النشالين أو اللصوص أو خليط من المجرمين . لكن ان كنت خبيرا بمثل هذه المواقف فانك تصر على مثولك امام باشا الليل Pasha of the Night ، ففى هذه الحال يخشى الكاتب أن يرفض طلبك فيسرعون بك الى مكتب الرجل العظيم (باشا الليل) وأنت تأمل تحقيق العدل ، والأخذ بثأرك من أسريك أو معتقلك - أى الشرطة . وهنا تجد صاحب المقام الرفيع جالسا - وأمامه قلم ومحبرة وأوراق ، وفى يديه شبيشة وفنجان قهوة - على ديوان (كنية) عريض عليه قماش قطنى. قدر فى غرفة واسعة تنقصها الاضاءة الكافية ، وعن جانبه حارسان ، وأمامه وقف - فى نصف دائرة - المعتقلون الجدد ، يصخبون بأقوالهم . وعندما يأتى دورك فانهم يطوقونك جيدا لتمثل فى حضرته - مخافة أن تنتهز اللحظة المواتية لتعتدى عليه أو تقتله ، فينظر لك الباشا نظرة ازدراء قاسية ، ويشمخ بأنفه ، ويقول بعنف : « هل أنت عجمى - أى فارسى ؟ » ويأمر باحضار الفلكة . لقد لاحظت أن مجرد ذكرك لحقيقة كونك « عجميا » (فارسيا) لم يعط بشرا حقاً فى القبض عليك وسجنك

وعقابك (٣) فتعلن مرة أخرى أنك لست أعجميا (فارسيا) وإنما هندي تحت الحماية البريطانية • عندئذ يحدد فيك الباشا - وهو رجل تعود على الطاعة - ليخيفك ، فتقوم أنت - كما هو مفترض - بالتحديق فيه ، حتى يقنعه قسمك ، فيستدير الى الشرطة ويسألهم عن تهمتك ، فيقسمون جميعا فى الحال ، بالله أنهم وجدوك بدون (فانوس) ، ثملا ، تضرب الناس المحترمين ، وتعتدى على البيوت وتنتهك الحرمات فتقوم أنت باخبار الباشا بوضوح أنهم يأكلون السحت ، فيقوم الباشا بالايحاز لأحد حراسه يشم أنفاسك لمعرفة ان كنت ثملا ، فيتقدم الحارس - وهو زميل للذين قبضوا عليك - ويقرب أنفه من شفطيك ، وكما هو متوقع ، فإنه يصيح « كخ » kich ويبدى على وجهه تقطيبات تنم عن الاشمئزاز ، ثم يجيب مقسما بلحية « أفندينا » أنه يشم الرائحة المثيرة للمياه المستقطرة (الخمير) وربما أدى هذا الاعلان الى ابتسامة شرسة تتبدى على وجه « باشا الليل » الذى يحب مشروب الكوراسو Curacao ، ويفتن بالكونياك • لذا فان باشا الليل يتدخل لصالحك ، فيسمح لك بقضاء ساعات الليل على (دكة) خشبية بالقرب من الممر الطويل ، الى جانب شلة من الطفيليين الذين لا تسعفى اللغة المهذبة فى ايجاد اسم لهم • وفى الصباح يستدعون انكشارية قنصليتك (٤) فيأتى مسئول منها ، ويطالب بك ، ويستهلون عملهم بذكر جريمتك ، ومرة أخرى تذكر اسمك وعنوانك ، واذا كانت تهمتك مجرد استحضار « الفانوس » الخاص بك ، فسيطلقون سراحك مع نصيحة أن تكون أكثر حذرا فى القادم من أيامك • ومن المؤكد أن أول شيء تفعله بعد اطلاق سراحك • هو الذهاب للحمام •

ومن ناحية أخرى فانك ان ذكرت لهم أنك أوربى فاما انهم يطلقون سراحك مباشرة ، أو يرسلونك لقنصل بلدك ، فهو الذى يحكم فى هذا الموقف فهو المحلف Jury ، وهو السجان (٥) ، فالمسلطات المصرية فقدت نصف سطوتها فى الأعوام الأخيرة • وعندما استقر السيد لين Lane للمرة الأولى فى القاهرة فان كل الأوربيين الذين اتهموا بالعدوان على المسلمين ، قد أحيوا - كما ذكر السيد لين - للمسئولين الأتراك ، أما الآن فان السلطات الوطنية ليس لها سلطة قضائية على الغرباء (٦) ، ولا تدخل الشرطة بيوتهم • واذا أردت دول الغرب أن

(٣) السخرية واضحة هنا ، والمقصود « يعطى الحق » - (المترجم) •

(٤) السخرية واضحة - (المترجم) •

(٥) المقصود : « هو الخصم والحكم » - (المترجم) •

(٦) المقصود : على غير المصريين - (المترجم) •

تقوى من عزم المسيحيين الشرقيين المشاركين لها فى العقيدة - فيمكنها أن تفرض نظاما أشد مما هو عليه الآن (٧) ، بالسماح لكل الرعايا المسيحيين الشرقيين حسنئى الاعتقاد بأن يسجلوا أسماءهم فى القنصليات المختلفة التى قد يفضلون الحصول على حمايتها (٨) . وهذا هو ما حاولته روسيا بشكل غير « مشروع ولا مبرر له » . اننا نقيد أنفسنا بعدالة منقوصة مستفاعة من أن الدول الشرقية باعتبارها دولا مستقلة ، فمن حقها أن تقبض على الأجانب - الذين استقروا تحت سيادة هذه الدول بحكم المصلحة أو الظروف - وتحيلهم للمحاكمة . بينما لا تزال ترتعد فرائصنا ازاء أى حق ادعاء لنا على السادة الاقطاعيين من مواليد الامم الشرقية . وعلى أية حال ، فما هى النتيجة اذا خولت بريطانيا العظمى لأبنائها المقيمين فى باريس أو فلورنسا ، أن يرفضوا المثل أمام المحاكم الفرنسية أو الايطالية ، والمطالبة بالألا تداهم الشرطة بيوت الرعايا الانجليز ؟ . اننى أقدم هذه التساؤلات لأولئك الذين « يثرثرون - بلا معنى - عن الحقوق النظرية » اذا كان يعنيههم مصالح الآخرين وتقدمهم ، ولأولئك الذين يتمتعون بقدر بسيط من التسامح والتحرر ، وقدر بسيط من التعصب اذا ما كان رخواؤهم وكبرياؤهم الوطنى مهددا .

وبالاضافة للمرضى - فقد تعرفت فى القاهرة ببعض المعارف الذين كانوا سببا فى سرورى . فأنطون زنانيرى Zananire شاب سورى ، أحرز تفوقا كلغوى تفضل على بأن منحنى فرصة النظر الى وجه زوجته بدون خمار (وجه حرمه) ، والسيد هاتشادور نورى Hatchadur Nury وهو سيد أرمنى - معروف جيدا فى بمبائى الذى قدمنى لواحد من مواطنيه هو المعلم (الخواجا) يوسف الذى كانت نصائحه هى الأكثر فائدة بالنسبة لى - بالاضافة لتفضله على (السيد نورى) بأفضال رقيقة أخرى . لقد جال الخواجا (المعلم) يوسف بالطول والعرض ، وجمع من كل مكان باقة من المعلومات الطريفة ، وتاريخ هذا الخواجا ذو طابع رومانسى حالم . فقد طرد من القاهرة بسبب هفوة من هفوات الشباب ، فبدأ رحلاته ، وظهر نفسه بزيارة مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) ،

(٧) يقصد الامتيازات الأجنبية . راجع مقدمة المترجم - (المترجم) .

(٨) رفض المسيحيون المصريون الارتقاء فى أحضان الأجانب ، وتجلئ ذلك بوضوح تام بعد ذلك فى الربع الاول من القرن العشرين فى ثورة ١٩١٩ التى شاركت فيها كل عناصر الأمة كما هو معروف حتى ان الاستعمار البريطانى حار فى تفسيرها . ولما عجز عن اتهامها - أى الثورة - بالتعصب اتهمها بالبلشفية ، ولكن التهمة سقطت ايضا - (المترجم)

وأصبح درويشا (٩) فى بغداد ، ودرس الفرنسية فى باريس ، وأخيرا استقر كأستاذ للغات فى القاهرة بعد العقو عنه . وقد شهدت فى بيته زواجا أرمينيا . وكانت ذكرى لا تنسى ، فقد كان على نسق حفلات زواج المسلمين من حيث الكآبة ، فلا شيء يمكن أن يبعث السعادة والسرور فى نفس المرء من وجوه النساء الجميلات غير المحجبات . وكانت بعض الضيفات نساء سمراوات جذابات بشكل رائع ، لهن عيون أروع مما يتصور الانسان ، وخصلات شعر سوداء سوادا خالصا . وكان ثمة فتاة جميلة واحدة ترتدى الزى الوطنى . وكانت كل النسوة تدخن الشيبوك ويجلسن على الكنب (الديوان) ، وكلما دخلت احداهن الغرفة ، قبلت أيدي الكاهن وكبار السن الحاضرين - ببساطة حلوة .

ومن بين عدد معارفى كان الولد المكى محمد البسيونى الذى اشترت منه ملابس الاحرام الخاصة بى ، والكفن (١٠) التى يتحتم على المسلم - عادة - أن يبدأ بها رحلة الحج . لقد كان قلقلًا - وهو فى طريقه لبلده قادمًا من اسطنبول - أن يصطحبني كرفيق ، وان كان قد سبق له السفر كثيرا بحيث يمكنه أن يكون صنوا لمرافقتي ، فقد سبق له أن زار الهند ، ورأى الاتجليز كما عاش مع نواب بلو فى سورات Surat . وكان يزورنى بانتظام حتى عالجته Nawab Balu احد أصدقائه من الرمد ، فقدم لى عنوانه فى مكة (المكرمة) وبعدها لم أعد أراه . وقد وصف الحاج والى هذا الولد وجماعته بأنهم ناس جزارين (أى مبتزين) (١١) Nas jarrar ومن المؤكد أنه لم يسهى الحكم عليهم ، ولكن ما حدث بعد ذلك سيبرهن كيف أن :

der Mensch denkt und Gott lenkt

وطالما أن الولد محمدا حدث وأصبح رفيقى فى رحلة الحج ، فسأعرض من أمره على القارئ شيئا موجزا قدر الامكان . فهو شاب لا لحية له ، فى حوالى الثامنة عشرة من عمره ، وبشرته بنية كالشيكولاته ، وملامحه بارزة ، وهى أن نظرنا إليها من الجانب

(٩) النص : شخاذا أو متسولا دينيا a religious beggar (المترجم) .

(١٠) لا يتحتم على المسلم أن يحمل كفته معه من الناحية الشرعية ، رغم أن هذه عادة متبعة - (المترجم) .

(١١) أن على حد التعبير الشعبى « ناس نحيتة » أى ينحتون منك حتى يجعلوك مفلسا ، والنحت هنا يعنى الاستيلاء على كل شيء منك بصبر وهذوء . وهو المعنى المقصود - (المترجم) .

قوية جسورة ، وعظام وجهه وملامحه المكينة المؤكدة تضيؤها عينان ذوا
خاصية مصرية يبدو أنهما انحدرتا اليه جيلا من بعد جيل وهو قصير
وعريض يميل للسمنة نتيجة قوة معدته وقدرته على النوم فى وقت الحذر،
وهو يستطيع القراءة قليلا، كما يستطيع كتابة اسمه، وهو ماهر فى المساومة
مهارة غير مألوفة . وقد علمته مكة (المكرمة) أن يتحدث العربية بشكل
ممتاز وأن يفهم الأساليب الأدبية ، وأن يكون فصيحاً وأن أساء استعمال
فصاحته ، وأن يكون عميق الصوت عند أداء الصلاة ، وعند الدعاء فى
الحج . وقد أعطته اسطنبول طعم الغناء Anacreontic singing والمجتمعات
النسائية ذوات الطابع الثرثار ، وحب الشراب الكحولى القوى ، وعندما
اقتربت عليه أول مرة - مرافقتى صدم ورمقنى بنظرة مفعمة بالنفاق ،
وان كان له أسلوب مرتجل وعقوى ومتسامح على نحو ما فى التعامل مع
الموضوعات الجادة بشكل عام . وقد وجدته الابن الأصغر لأرملة وكانت
حماقته تشكل مسلكه ، فقد كان أنانيا رقيقا (حنوناً) كما هى عادة
الأطفال المدللين ، وهو متقلب من السهل استثارته ، ومن السهل تهدئته
(انه الشرقى) ويشتهى ما ليس له ، ويسرف فيما يملك (انه العربى)
وبه رزانه تنم عن جراءة منقطعة النظير (انه الرحالة) ، كما أنه صفيق
ليس أكثر من نصف شجاع ، ذكى داهية محافظ على معنى دقيق للشرف
- خاصة فيما يتعلق بذوى قرباه (انه الانسان الفرد) . وقد رأيته فى
حالة غضب شديد لأن شخصا ما سب والده ، كما أننى وهو كنا على وشك
أن يفارق أحدهما الآخر لأننى فى إحدى المذايبات أطلقت عليه لقبا (نعتا)
كنت أقصد به الأخ عالى العقل ، وان كان يعنى لدى العامة لا شىء
أو لا قيمة له . وكانت مسألة الشرف هذه هى أقوى الجوانب فى الولد
محمد .

وخلال شهر رمضان خزنت فى خزاننى استعدادا للرحلة - شايئا
وبنا وأقماع سكر وأرزا وتمورا وبسكويتا وزيتا وخلا ، وتمباك وفوانيس
وأوانى للطبخ وخيمة صغيرة على هيئة جرس ، وكلفنى ذلك اثنتى عشر
شلنا ، وثلاث قرب ماء لزوم الصحراء . ووضعت هذه المؤن فى قفف
(جمع قفة) وفى سحارة خشبية كبيرة يبلغ ضلعها ثلاثة أقدام .
ومغطاة بالجلد ومزودة بغطاء آخر صغير فى أعلاها وقد علقت هذه
القفف بالاضافة لصندوقى الأخضر الذى يضم الأدوية والخرج الملىء
بالملايس - فى أحد جانبي الجمل ، أما الصحارة فعلقت على الجانب الآخر .
فالببدو - مثلهم فى ذلك مثل البغالين يحتاجون الى مراعاة التوازن
دائما . ووضعنا فوق الحمل الشبرية بالعرض ، وجثم الشيخ نور
فوقها كالغراب الكبير . وكان هذا يستحق أن يتختر فى الشوارع

مسلحا بزواج من المسدسات وسيقف فى طول قامته • وسرعان ما رصدته عيون صبية القاهرة اللعوبين فبدعوا يصخبون ساخرين من منظر هذا المسلح حتى عاد ركضا الى خان القافلة (الخان الذى ينزل فيه رفاهه فى القافلة) • لقد لاحقوه حتى عاد كالبومة السكرى تطاردها قبرة ، انهم صبية سيئون كمتشردى باريس ولندن •

ولأننى أنفقت كل النقود التى كانت تحت يدى فى القاهرة ، فقد كنت مضطرا لتدبير أموال جديدة • وقد نصحنى معارفى من أهل بلدى أن أخذ معى ثمانين جنيه استرلينا على الأقل ، وقدروا مصاريف السفر الصحراوى بمبلغ يدا غير مفرط ، وقد وجدت بعض الصعوبات فى رفع المبلغ عندما كنت فى الاسكندرية لولا تدخل صديقى جون John Thurburn أما الآن فىؤسفنى أن أقول اننى لا أتوقع زيادة فى المبلغ ،

كما أن السيد شيفرد Shephard صاحب فندق شيفرد فى القاهرة لم يعد موجودا الآن •• وقد تفحص أصدقائى (أو أتباعى) الهنود ورقة مربعة صغيرة • وهى خطاب ضمان وتساءلوا تساءلا معقولا : « أيمكن أن تكون هذه الورقة صحيحة ؟ » وذلك بعد أن حدقوا فيها كما يفعل الغرب أحيانا عندما ينظر بطرف عينه داخل عظمة ليتبين أن كان بها مخ أم لا • وأخيرا فقد عرضوا - بأدب - أن يكتبوا لانجلترا بشأنى ، لسحب الأموال ، وارسالها بعد ذلك فى حقيبة مختومة (مشمعة) مباشرة للمدينة (المنورة) • واحتاج للقول أن مثل هذا الأسلوب فى التحويلات لا يدع أية فرصة لوصول التحويلات بشكل آمن فى حالة إذا كان المحول معان نفيسة •

وعندما انتهت الأزمة اشترت خمسين حبة بقيمة الدولارات الألمانية (ماريا تريزا) ، واستثمرت الباقي فى الجنيهاات الانجليزية والتركية • أما الذهب فقد كنت أحمله بنفسى ، وبعض الفضة جعلته فى حزام الوسط الجلى الخاص بالشيخ نور ، وبعضها الآخر فى الصناديق ، والسبب فى ذلك أن البدو عندما يشرعون فى سلب رجل محترم فانهم ان وجدوا قدرا معيناً من الأموال فى حقيبته ، فانهم لا يفتشونه هو شخصيا ، وإذا لم يجدوا فتشوه تفتيشا ذاتيا ، وإذا كان حزام الوسط الخاص به خاليا ، فقد يقتنعون بشق بطنه اعتقادا منهم أنه لابد أن يكون قد ابتدع طريقة خاصة حاذقة لاختفاء الأشياء ذات القيمة • وبمجرد ما عبرت هذه المشكلة ، سرعان ما وقعت فى مشكلة أخرى فجواز سفرى السكندرى الذى حصلت عليه بشق النفس كان يتطلب تأشيرتين : تأشيرة من مكتب الشرطة ، وأخرى من مكتب القنصل • وبعد العودة الى مصر عرفت أن ذلك من الاجراءات التى يتبعها المسافرون الذين يطلبون أى خدمة « مساعدة » من الدكتور والن Walne الذى يحيلها الى الموظفين الانجليز فى القاهرة ، ثم تحال

بعد ذلك لتحصل على « التأشيرة » أو الأمر من وزارة الخارجية البريطانية .

لم آخذ جانب الحذر ، وكان لدى من الأسباب المسببة للاعتذار عن فعلى هذا . ونظرا لفشلى (فى تحقيق ما أريده) فى القنصلية البريطانية ، ولمرغبتى فى ألا أغادر القاهرة الا بوضع قانونى واجراء سليم ، فقد كنت مضطرا للبحث فى أى مكان طلبا لهذه الحماية القانونية والاجرائية فقد حذرنى المصريون من أن الحجاج يواجهون العقبات فى السويس . وكان صديقى الحاج والى هو أول من استشرته ، وبعد مناقشات ضافية عرض أن يصحبنى الى قنصله الفارسى لنعرف المبلغ الذى يتعين على دفعه لأكون - لفترة وجيزة - أحد رعايا الشاه . وذهبنا الى مقر « الأسد والشمس » ووجدنا أن ترجمان القنصل رجل سورى مسيحي مكر ، فبعد أن سألنى بشكل فج صارم عن أحوال حافظة نقودى (لم يعر أى اهتمام لجنسيتى) قدمنى للرجل العظيم (القنصل الفارسى) لقد وصفت شخصيته قبل ذلك . وهو لا يستحق أن أفرد له ملاحظة ثانية . لقد كان المشهد - حقا - مضحكا ويدعو للسخرية . لقد عاملنا بخرسة زائدة عن الحد ، فأقصانى بعيدا عنه لأجلس فى موضع لا أكاد أسمع فيه ما يقال ، وبعد أن شمع برأسه وأدارها بصمت عميق زهاء ربع ساعة تعطف قائلا انه رغم أن أبى قد يكون شيرازيا ، وإن أمى قد تكون أفغانية ، الا أنه لم يتشرف بمعرفتى . وقد وجه الى رفيقه وهو رجل فارسى عجوز مهيب ذو حاجبين كثين ولحية أرجوانية داكنة - بعض الأسئلة الغظة وغير المشجعة . لقد اقتبست هذه الأبيات الشعرية :

نعم الصديق فان طلبت معونة

طرحت أمامك دون معرفة السبب

ولم يقبل عوضا ولا مالا طلب

« He is a man who benefits his fellow men.

Not he who Says «why» an «wherefore» and «how much»

(١٢) السخرية واضحة - بطبيعة الحال فى هذا الاستشهاد الشعرى كما لا يخفى على فطنة القارئ . وربما كان بيرتون يشير الى البيت الشعرى المشهور :

لا يسألون أخاهم حين يطلبهم

فى النكبات على ما قال برهان

(المترجم)

وبناء عليه وجهتني ذراع متعجرفة كالموجة القاسية لأعود للترجمان الذي كان لديه من الوقاحة ما جعله يطلب مني أربعة جنيهات استرلينية مقابل حصولي على جواز سفر فارسي . فقدمت له جنيها واحدا ، فسخر من عرضي ، فأنصرفت محتارا مرتبكا . وعند عودتي للقاهرة بعد ذلك ببضعة أشهر أرسل لي يقول انه كان يعرف أنني رجل انجليزي ، لذا فقد كان ينبغي أن أحصل على الوثيقة مجانا - وهو لطف منه كان يستحق عليه الشكر في حينه (لو أنه فعل ذلك) .

وأخيرا فإن شيخى محمدا ، طرق على الخطة وهى ساخنة فقال لى : « انك أفغانى ، وسأبحث لك عن رئيس رواق الأفغان فى الأزهر ، وهو سيكون صديقك اذا أكرمتك » (قال لى ذلك همسا) . لقد كانت الحالة تبدو ميؤوسا منها ، فأجبرت معلمى ألا يضيع الوقت .

وسرعان ما عاد الشيخ محمد بصحبة رئيس رواق الأفغان فى الأزهر ، وهو رجل ضئيل الحجم نحيل ذو لحية مهوشة ، أعور ، ذو شفتين مشقوقتين ، يرتدى ملابس فى الغاية من القذارة من طراز يصعب وصفه لفرط غرابته . ولد فى مسقط من أبوين أفغانيين ونشأ فى مكة (المكرمة) وله طابع عالمى ، فهو يتحدث خمس لغات بطلاقة ، ويعج بالذكريات والخبرات نتيجة ترحاله ، وكندحه . وقد رفض تناول القهوة أو تدخين الشيشة متظاهرا بالزهد ، ألا أنه أكل أكثر من نصف غذائى ، لدرجة أننى خفت من « زهده » هذا على صحته . ثم تحدثنا بغير كلفة بعدة لغات ، وقدمت له بعض الكتب كهدية ، لكنه رفضها (فمثل هذه الهدية لا قيمة لها) وقد عبر الشيخ عبد الوهاب - وهذا هو اسمه - عن رضاه عن حذرى واهتمامى بأمور نفسى ، وأخبرنى أن أقابله فى الجامع الأزهر فى صبيحة اليوم التالى .

ولذا ، وفى الساعة السادسة مساء ، ذهبت للأزهر مع الشيخ محمد وعبد الله خان ، الذى استعد بلبس عمامة ضخمة ثبتت شالها . بدبابيس ، لمقابلة طالب التوحيد . ومررنا عبر صحن المسجد المربع ، دخلنا ممرا كبيرا يشكل البناء الرئيسى للمسجد . وفى الجدار الشمالى كان يوجد باب صغير يؤدى بالصعود على درجات خطرة الى غرفة « كينية » الحمام هى الحجرة التى يدرس فيها الشيخ الأفغانى . وقد وجدناه غارقا وراء أكوام من المخطوطات العتيقة ، ويحيط به الطلبة والنساخون . ولم يكن لديه كثير من الأعمال لانجازها ، ولكنه لم يتفرغ لنا الا بعد وقت طويل ، وقد دفعنا الجو الخائق الى الخروج من غرفة

الدراسة وتوجهنا لمساحة المسجد ، وسرعان ما لحق بنا الشيخ الأفغانى ،
وركبنا جميعا الى القلعة ، وانتظرنا فى المسجد حتى انتهت ساعات
العمل . وعندما فتحت الأبواب ذهبنا الى « الديوان » وجلسنا صابرين
حتى وجد الشيخ فرصة للحديث . ولم يكن هناك الا موظفان فقط ، كان
احدهما عجوز معتل نحيل ، يرتدى لباسا على النسق التركى الأوروبى ،
يقبل الدراويش والأتباع يده بقسوة لأنه يقدم لهم بعض الصدقات
البسيطة ، أما الآخر فكان كاتباً شاباً قويا مهمته أن ينسخ ما يطلب منه
لا أن يدع يده ليقبلها الأتباع .

وقد سألتونى عن اسمى وغير ذلك من البيانات الضرورية ، ولم
أواجه بأى اعتراض ، فليس هناك من هو أكثر بركة وصلاحا من الشيخ
عبد الوهاب بن يونس السليماني ! لقد ملا الكاتب الأوراق باللغة التركية ،
بطريقة مستعارة - بشكل واضح - من الطريقة الأوربية التى تهدف لسلب
أموال المسافرين ، ولقد صدقوا على البيانات الخاصة بى - بضم
الشيخ - باعتبارى عبد الله بن يوسف ، من كابول ، وكتبوا فى الأوراق
صفاتي ، وأعطونى الوثيقة مقابل خمسة قروش ، فاستلمتها بسعادة .

وغادرنا المكتب ، بعد أن قدمنا انحناءات الشكر ، والدعوات بالبركة
وكثيرا من التمنيات والدعوات أن يجعل الله الحج من نصيب الموظفين
فى المكتب ، وعدنا فى اتجاه الأزهر . ولما كدنا نصل للجامع (الأزهر) ،
تلكا الشيخ محمد وبدأت منه إشارة ، فسحبت نفسى بالقرب من الأفغانى
وطلبت يده ، فاستجاب للتلميح ، وتمتم : « شىء بسيط ، لم نفعل الا شيئا
يسيطا . لم نفعل شيئا » « غير ضرورى » « والله ، لا لزوم له . » ومد
أصابعه وهو يقول ذلك ، واستجمع قواه ليقبض بكل ما أوتى من قوة على
ثلاثة دولارات .

انه رجل فقير ! اعتقد انه من الضرورى بالنسبة له أن يوافق على
أن أدفع له ، فمثل هذه الأمور شائعة باعتبارها من أعمال الاحسان لدى
المسلمين ، فلديه زوجة وأولاد وهو رجل عالم (فقيه) وهو أمر لا يثمن
بكثير فى مصر .

وقد عجلت برحيلى من القاهرة بسبب حدث طارئ ، فقد فقدت
شهرتى بسبب قليل من سوء الحظ حدث لى على هذا النحو . ففى غرفة
الحاج والى فى الخان قابلت يوزباشى Yuzbashi أو قائد عسكر البانيين
غير نظاميين كان فى مصر ، قادما من الحجاز . وكان طويلا ، بارن
المعظم ، جبليا عريض الأكتاف ، فى الأربعين تقريبا ، ذو حاجبين كثيفين ،

وعينين ناريتين ، وشفتين نحيلتين ، وفك أعجف ، وذقن - كذقون بنى
 جنسه - نابتة . وكان شاربا طويلا للغاية ومفتولا ، أما بقية وجهه
 فحليق خال من الشعر كراسه ، أما فستانه Fustan (١٣) فكان فى
 نظافته لا مثيل له ، وكذلك كابه (غطاء رأسه) الذى وضعه فوق رأسه
 باهمال وجعله يتدلى على جبهته العابسة فقد كان خاليا تماما من الاوساخ
 والبقع . ولأنه كان ممنوعا من حمل المسدسات الأثيرة لديه ، فقد اكتفى
 بخرن يده اليمنى فى حزامه الخالى ، وراح يمشى متشامخا حول الخزان
 وقد بدا عليه المظهر العسكرى كأوضح ما يكون . لقيد كان على أغا
 - وهذا هو اسمه - كفارس السجادة ، وكان يظهر فى جسده كثير من
 الندوب المروعة ، وقد كسرت العظمة الرئيسية الأمامية فى إحدى ساقه
 بسبب رصاصة تركية أصابته بينما كان يناور فى التلال الألبانية مما
 أدى الى أصابته بالعرج الذى يحاول إخفاؤه باستخدام مخصرة ثقيلة (١٤)
 وصوته أجش ، وله موهبة محزنة فى التخير ، ولم أره أبدا رزينسا كامل
 كرزانة .

لقد بدأ على أغا بنوع من العاصفة التى تهب ، وتخلف بعدها طقسا
 لطيفا . لقد كنت أرى الحاج والى مسدساتى بالبراميل الدمشقية عندما
 دخل على أغا الغرفة ، فجلس أمامى بابتسامة عريضة ذات معنى واضح
 بما فيه الكفاية وكأنه يقول : « أى عمل لك بالأسلحة ١٩ » ونزع السلاح
 من يدي وبدأ يتفحصه تفحص خبير . ولما لم يعجبني منه هذا التصرف ،
 فقد نزعته منه ، ووجهته حديتى للحاج والى ، وتبادلت وهذا اليوزباشى
 النظرات ، فأمال كابه (غطاء رأسه) الى جانب رأسه باختيال وأبدى
 رغبة مثيرة فى المشاكسة والعراك ، فبرمت شاربى لاثارة عاطفة القرابة
 بينى وبينه (١٥) . ولو كان مسلحا وكنا فى الحجاز لاقتتلنا مباشرة ،
 فالأرناؤوط (الألبانيون) كما يقول الايطاليون (غضبهم ملتصق
 بمسدساتهم) *terribili Colla pistola* وهو قول يعنى أنهم يطلقون

(١٣) هو التنورة الألبانية ، وقد تعنى الكلثية ، وهى - فيما يذكر صاحب معجم
 المورد - تنورة ذات ثنيات طويلة يرتديها الرجال فى اسكتلندا والفراد الفرق الاسكتلندية
 فى الجيش البريطانى - ومن الواضح أن الفستان المذكور هنا ذو طابع البانى ، ولا علاقة
 - كما هو واضح - للفستان المذكور هنا بفساتين النساء ، وهو المعنى الذى صرفنا الكلمة
 اليه بعد ذلك - (المترجم) .

(١٤) النص *by heavy waggon* والمخصرة عصا مكسوة بالجلود يحملها
 الضابط ، وقد يكون المقصود أنه يخفى عرجه تحت ستار من العجرفة الزائدة ، وقد ملنا
 للترجمة التى أثبتناها فى النص لقربها من معنى السياق - (المترجم) .

(١٥) يعنى أن لك شاربا ، ولى شارب ، فنحن - أنا وأنت - من ذوى الشوارب ،
 فبحق شاربيننا ، لا يجب أن نتعارك - أو معنى قريبا من ذلك - (المترجم) .

أسلحتهم فى وجه الصديق أو العدو عند أول استفزاز أو غضب .
وبطبيعة الحال ، فإن الطريقة الوحيدة فى ظل هذه الظروف هى أن أستبق
الأحداث ، وحتى هذا التصرف اليائس نادرا ما ينقذ الغريب ، فالألبان
لا يخرجون إلا أزواجا (لا يسيرون فرادى) . لم أواجه أبدا ما هو أكثر
يأسا وخطرا فى نتائجه من تصرفى هذا . فالذخيرة ممنوعة على خط
كتائب الألبان المشاة ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدثت بينهم مبارزات
بالمسلاح تصل الى ست فى النهار . وهم عندما يتعاركون على أنصبتهم
قمن المؤلف أن يسحب الواحد منهم مسدسه ويضع فوهته على صدر
غريمه . لذلك فالأسلحة تبقى دائما غير عامرة بالذخيرة ، وهم نادرا
ما يخطئون التصويب ، وإذا سحب أحد المقاتلين منهم زند مسدسه مصوبا
سلاحه لمقاتل آخر ، فإن شهود الواقعة سرعان ما يطلقون عليه الرصاص .
وفى محضر فإن هؤلاء الأرناؤوط (الألبان) الذين يستخدمون كجند غير
نظاميين ، والذين ينقضون على الفلاحين البائسين إذا كانوا غير قادرين
على دفع الضرائب ، أو غير راغبين فى دفعها - فقد كانوا يمثلون بالنسبة
للسلطان رعبا . وفى مناسبات كثيرة تعاركوا مع الأجانب وأهانوا نسوة
أوربيات . وفى الحجاز طال خطرهم حتى يبدو . ويقول أهل المدن عنهم
انهم « باعة كروش ، وخدم حمامات فى اسطنبول وشراعة (٦) فى شبه
جزيرة العرب » ويسلى الأرناؤوط (الألبان) أنفسهم فى جدة باطلاق
النار على القنصل الانجليزى - السيد أوغلفى Ogilvie - عندما
يسير فى شرفته . ويبدو لهم اطلاق النار على رجل ، رياضة محببة .
وتوضح حكايات كثيرة فى القاهرة ما اعتادوه من اذاء الجمالة ، اذا
تجاسر واحد منهم ومر راكبا أمام ثكناتهم . والألبان يتبحرون بمهارتهم
فى استخدام الأسلحة ، ويتعاملون على العرب والمصريين على نحو سواء .
الا أننى لم أجدهم بارعين فى استخدام أى سلاح (باستثناء المسدسات) ،
وضباطا الذين زاروا تلال بلادهم يتحدثون عنهم باعتبارهم ذوى قدرات
معقولة ، الا أنهم بلا جدال - أفضل من يستخدم البنادق rifles .

وقد قام اليوزباشى غير النظامى ومشى بعظمة خارج الغرفة بعد أن
ابدى حزنا لأنه لم يحقق سعادته باطلاق النار على ، وبعد أن نظر لى
بحقد وغل لفترة من الزمن . وبعد ذلك بيوم أو يومين دعوته بلطف كاف
فجلس معى وشرب فنجانا من القهوة ودخن الشيشة ، وبدأنا نتحدث .
لكن لأنه يعرف حوالى مائة كلمة عربية ، وكلماتى التركية هى الغالبة ،
فإن الحديث بيننا واجه صعوبات . لكنه سرعان ما طلب منى ممسكا

(١٦) المقصود : غلاط ومتجبرون - (المترجم) .

« عرقى Araki » ، فأجبت أنه لا أحد فى الخان مما أدى الى اصدار
 شخير ونفير كنفير الحمار ، وكلمة الحمار هى الكلمة الاصطلاحية العامة
 التي يطلقها المسلمون المتمسكون بدينهم على السكير . وبعد أن قام ايذانا
 برحيله حاصرني بمزاح ، وتفحصني بعينه اللتين دلتان على أنه كان يجرب
 قوتى . لقد عرض نفسه لاحدى حركات المصارعة والتي تسمى اصطلاحا
 حركة الأرداف المتصالبة (١٨) وجعل رأسه تلامس مباشرة الأرضية
 الصخرية بدلا من سريري . ظنا منه اننى كطبيب هندى ورجل معتدل قد
 لا اكون خطرا للغاية ، ويبدو أنه لم يكن قد شرب (خمرا) لعدة أيام .
 وكان لسقطته أثر طيب فى مزاجه ، فقد قفز عاليا ، وربت على رأسي
 وطلب تدخين شيشة أخرى وجلس ليبريني جروحه ، ليتباهى بأعماله
 البطولية . ولم أستطع أن أتفحص خاتما من ذهب انجليزى يفص من
 حجر الدم (عقيق مخضر به بقع حمراء) استقر بشكل غريب فى يده
 الخشنة التى سفعتها الشمس . وقد صرح أنه اختطفه من أحد القناصل فى
 جدة ، وأرجع تاريخ اكتسابه له - مازحا - بأنه خليط من تاريخ البانى
 وتركى وعربى . وتوسل الى أن أمده بقليل من سم غير مميت لتهديته
 عدو يسبب له المشاكل ، فأعطيته خمس حبات من دواء مسهل (كالموميل)
 لهذا الغرض النبيل « !! فأخفاها بعناية فى جيبه . وقبل أن يستأذن فى
 الانصراف شدد على دعوتى للشرب معه ، ورفضت أن يكون ذلك بالمنهار ،
 لكننى رغبة منى فى معرفة الطريقة التى يضخى بها هؤلاء الناس للاله
 باخوس - وعدته - مطاوعا اياه - بأن أشرب معه ليلا . وفى حوالى
 الساعة التاسعة عندما هذا الخان أخذت شيشة وكيس تمباك ووضع
 خنجري فى حزامى ، وتسلمت الى غرفة على أغا . فوجدته جالسا
 على فراش فوق الأرض وأمامه أربع شمعات (كل الشرقيين يفضلون المشرب
 فى النور الساطع) ، وطبق كبير مليء بالحساء وطبق من اللحم المسلوق
 البارد ، وطبقان من السلطة من خيار مقطع وروب (زبادى) ، وقارورة
 عرقى نحيلة وطويلة من زجاج أبيض ، وقارورة أخرى ذات رائحة قوية ،
 وكلتا القارورتين لفتا فى خرق مبللة ، وهى الوسيلة المعتادة للتبريد .

وقد رجب على أغا بى بأدب ، ولما رأتى معجبا باستعداداته نهينى
 الى اننى كنت أظن أن الألبان لا يعرفون كيف يشربون ، وأجلسنى الى
 جواره على الفراش ، وقذف بخنجره على طول يده ، وهى إشارة
 الى أن أفعل الشيء نفسه ، وتهيأنا لبدء المباراة (المقصود مباراة الشرب

(١٧) نوع من الخمود - (المترجم)

(١٨) النص : "Cross-buttock" وهى ترجمة اجتهادية - (المترجم)

(والأكل) - وأخذ كأسا صغيرة من النوع الذى يستخدمه الجوزيون (المروجية) الفرنسيون لشرب الجوت *la goutte* وتقصصها ومسحها بأصبعه السبابة من الداخل ، وملأها حتى حافتها ، وقبمها لى مع انحناءة فتقبلتها منه ، بسيلام خفيض ، وأبتلعت ما بهما دفعة واحدة ، وقلبتها دلالة على أننى شربت كل ما بها ، ووضعتها على الأرض ، مع جركة فكهة من ذراعى ، تشبه على نحو ما يفعله الملاكى عند نهاية الجولة ، وانجنيت مرة أخرى، وطلبت منه أن يشرب بدوره . فقام بالإجراءات نفسها التى سبق أن قمت بها . وكذا نشرب جرعات من الماء ونتناول قدر ملعقة من اللحم أو السلطة لتبريد حلوقنا - عقب كل كأس من المشروب مباشرة . وعدنا لشيشتنا فنفتنا دخانا كثيفا كون سحابة ضخمة فى الغرفة ، وراح كل واحد منا ينظر للآخر نظرات السرور والتفكه فالشراب عند المسلمين نوع من الخطايا الجالية للتفكه والسرور .

لقد كان اليوزياشى الألبانى مخمورا ثملا منذ البداية عندما شرعت فى مباراة الشرب معه ، ومع هذا فقد استمر يملأ كؤوسه ويفرغها فى جوفه دون تبصر للعواقب . . . وكنت أتوقع لفترة - عبثا - أن يصدر عنه مزاح خشن أو طرائف فاحشة ، وهو ما يصاحب الشرب بشكل عام عند الجنوبيين الشرقيين . لكن على أفا - فى الحقيقة - لم يزد على ملء كف يده اليمنى بالعطير ينثره فى وجهى ، وكنت أفعل مثل ذلك .

وبعد ذلك بدأ صديقى مشروعه الكبير ، فطلب منى أنه يجب أن أغرى الحاج والى - الرجل المحترم - بالمقدوم للغرفة لنجبره على الشرب . وكانت الفكرة طريفة مضحكة فستجعل قاضى شارع بو الوقور يرقص البولكا (١٩) فى الكازينو (٢٠) . وبدأت أفتش عن الحاج (الحاجى) والى ، وعندما رجعت وهو معى (أى الحاج والى) وجدت على أفا قد وصل الى مرحلة جديدة من مراحل « انبساط السكارى » فقد أقام فرع شجرة أخضر ، وأوقفه على الأرض (يسناد) وراح يقلب الماء ، ليصدر صوت القرقرة ، وراح يسكب الماء ببطء ليكون مجرى غير عريض من ماء يجرى تحت الخضرة (فرع الشجرة الذى أقامه) ، بينما هو يجلس محدقا متأملا - وهو منتفخ فى أبهة زائفة تذكرنا بأوهام دون كيشوت الضعيفة - فى ظلال أشجار مزرعة أبيه وبين غدرانها . وربما يكون قد أسكن هذه

(١٩) البولكا رقصة بوهيمية مقفمة بالحويوة (عن معجم المورد) - (المترجم) .

(٢٠) (أو فى أحد نوادى القمار وهو ما تليده أيضا كلمة Casino . (المترجم) .

الأرض وعمرها « بالبرابرة الشبلند » لأننى - حقيقة - ظننت أن بركة كانت تتألق فى عينه المتججرة !

إلا أن ظهور الحاج وإلى - فجأة - قد غير المشهد كله ، فقد قفز على أغا ، وحاصر الزائر (المقصود الحاج وإلى) بكتفه وأجبره على الجلوس وانتهاز فرصة قزع الرجل العجوز عند رؤية المنظر ، ومثلاً كاسنا ، وقلب سحنته بشكل خيالى ، وأصر أن يشربه الحاج ، إلا أنه رفض بعناد عندئذ وضع على أغا الكأس عند شفتيه وأفرغه فى جوفه ، فتضرر الرجل وتفرز ووبخنا . وقد جعلنا صديقنا غير المرح (الحاج وإلى) يأخذ بعض أنفاس قليلة من الشيشة ، ثم عدنا سيرتنا الأولى . ولم تجد توسلات الحاج بأنه لم يقترف اثم شرب الخمر طول حياته ، كما لم يجد قوله بأنه سيشرب معنا غدا ، ولم يجد استشهاده بآيات القرآن الكريم ، فراح يلاطفنا حيناً ، ويهددنا بالشرطة أحياناً أخرى . وأخيراً هب الحاج واندفع خارجاً لا يلوى على شيء ، تاركاً طربوشه ، وخفه (صندله) وشيشته فى أيدي الأعداء ! ولم يجرق على أغا على متابعة الحاج بعد باب الغرفة ، فعاد يسكب السائل الدنس (الخمر) على كابه (غطاء رأسه) وشيشته وحذائه ، وراح يصف الحاج وإلى بكل اللغات التى يعرفها بأنه حمار .

ثم هيأنا أنفسنا لتناول العشاء فجهزنا الحساء واللحم المسلوق والسلطة ، وشربنا قليلاً من الكئوس ، ودخنا الشيشة قليلاً ، لمتحاشى عسر الهضم ، إلا أن على أغا هب واقفاً بشكل ملوكى مهيب ، وقال إنه يريد مجموعة من الراقصات ليمتع ناظره بالمرقص .

فأعلنت أن هذا الأمر ممنوع فى الخان فسأل بعنف رزين : « من الذى منعه ؟ » فقلت له : « الباشا » وبعد اجابتي هذه حرك على أغا كابه (غطاء رأسه) بهدوء ، وفركه بساعده الأيمن وثبته على جبهته ، وتقدم للامام ، وبرم شاربيه ، ووضع الشيشة على كتفه ، وتحرك ناحية الباب ، وصرخ قائلاً أنه سيجعل الباشا نفسه يأتى ليرقص أمامنا .

لأننى كنت أتوقع حدوث جلبة وعراك . فقد شعرت بالامتنان لأن صديقى المرح (السكران) نسي خنجره . وهتف هاتف الحكمة فى نفسى أن أعود لغرفتى لأغلق بابى وأوى الى فراشى ، إلا أن تفكيرى الواعى هدانى ألا أترك الألبانى فى وضعه الحالى حيث لا يجدى تقديم أى عون له . لذلك فقد تبعته فى الممر الخارجى وجرفته نحو الحجرة ، وتوسلت إليه أن يعود لغرفته ، كما تفعل الزوجة اليائسة لاجبار زوجها المخور على العودة لمبته ، إلا أنه - مثله فى ذلك مثل الزوج البریطانى - غضب

غضبياً شديداً بسبب هذه النصيحة غير المحببة ، وضرباً - فوراً - بأنبوب
شيشته أول شخص قابله فى الممر ، وجعله يولى هارباً هابطاً السلم ،
وراح يصيح صيحات مخيفة قائلاً : « يا مصريين • يا حلاعين • يا جنس
فرعون يا جنس كلب • • يا مصريين »^{١١٩}

ثم اندفع وفتح باباً بكتفه وترنح داخل الغرفة حيث كانت سيدتان
عجوزان تستريحان بهدوء الى جوار زوجيهما اللذين كانا يعملان فى
صناعة السلال ، سرعان ما استيقظوا ولما رأوا غريباً فى غرفتهم وسمعوا
الفاظه البذيئة ردوا عليه بوابل حار من الشتائم والتوبيخ •

لقد حسم لسان العجوزين المعركة ، ورغم كل محاولاتى فان على أغا
هبط السلم مترنحاً وسقط فوق فراش حارس الليل (بواب الليل) ،
ولحسن حظ على أغا فقد كان خادمه وهو صبى ألبانى قوى - منطرحاً على
حصيرة فى مدخل قريب ، فقام بسبب الجلبة الصادرة ، وقفز ووجد
اليوزباشى فى حالة غضب شديد ، وكان من الواضح أن الخادم معتاد على
مزاج سيده ، فطلب منا جميعاً - دون تأخير - المساعدة ، فمددنا ايدينا
للمساعدة وراح نصفنا يجر اليوزباشى الألبانى ، ونصفنا الآخر يحمله
حتى وصلنا به لغرفته ، ورغم وضعه الحقيقى هذا ، فقد صرخ بأعلى
صوته ، صرخة الحرب القديمة (التى قالها آنفاً) « آه يا مصريين ،
يا جنس كلب ، • • لقد لوثت شرف كل نساء الاسكندرية ، وكل نساء
القاهرة ، وكل نساء السويس » ووضعناه على فراشة وهو فى تبجحه
هذا • ولا اظن أن طالبا ويلزيا (من ويلز) لم يتخرج فى أكسفورد - فى
ظروف مشابهة - يمكن أن يسبب متاعب أكثر من هذا •

وقابلنى الحاج والى فى صبيحة اليوم التالى بابتسامة صفراء وقال
لى : « لقد قمت بأفضل بداية لرحلة حجك ! » •

وقد كان على حق ، فقد ظل الحديث فى الخان طوال أسبوع تقريباً
يكاد يقتصر على ما فعله اليوزباشى غير النظامى ، الألبانى الكريه ،
وعلى نفاق الطبيب الهندى مدعى الوقار • هذا عزيزى القارئ ما فقدته
فى القاهرة ، لقد فقدت سمعتى كرجل محترم جاد • إذ كان على أن أبين
لجميع - من خلال الخبرة الشخصية - نتيجة شرب المسكر مع ألبانى

ولم أضغ الا وقتاً يسيراً فى استئذان أصدقائى وأخبرتهم - على
سبيل الاحتياط - أن هدفى هو أن أصبل الى مكة المكرمة • عن طريق جدة ،

بينما كان مدعى الحقيقي هو الوصول للمدينة المنورة عن طريق ينبع ان
امكنني ذلك . فالمثل العربي يقول :
اكنم ذهبك ومذهبك وذهابك . .

(٢١) Conceal Thy Tenets Thy Treasure and Thy travelling.

(٢١) هذا بالتأكيد ليس مثالا عربيا ، وانما هو قول يردده الشيعة الفرس من باب
التقية ، وقد راجعت كتاب الامثال للميداني على سبيل المثال ، فلم أجدها هذا المثل ضمن
الامثال العربية ، ويبدو ان ثقافة بيرتون الواسعة (العربية والفارسية والهندية
والاوروبية) جعلته يخلط بين عناصر الثقافات المختلفة فالعرب يشكل عام لم يصلوا الى التقية
الى حد قول عكس ما ينوون فعله ، وان كانوا يقولون احيانا اقوالا على شاكله
« استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » او (داري على شمتك) . . . الخ (المترجم) .

الفصل الثامن

من القاهرة للسويس

الاتفاق مع الشيخ نصار (بدوى من الطور) - حضور الشيخ
الافغانى للوداع - العيون النيلية - قبائل سيناء - وصف الطريق الصحراوى
من القاهرة للسويس - لقاء محمد البسيونى مرة أخرى - مقام الضرورى -
لقاء حجاج مغاربة بالسين فى الطريق - جهود محمد على لتأمين الطريق -
قلعة العجرودى - بير السويس - بوابة السويس - خان جرجس الزهر -

وافق الشيخ نصار - وهو بدوى من الطور (جبل سيناء) كان فى
طريقه لبلده - أن يعطينى جملين ، مقابل خمسين قرشا (حوالى عشرة
شلفات انجليزية) للجمل الواحد . ولأننى كنت أرغب فى أن أبدو بمظهر
محترم ، فقد قبلت هذه الشروط : رجل متواضع يسافر راكبا جملا ، ويجر
الجمال خلفه . ولكن بالاضافة للتفاخر والتباهى ، فقد أردت لمرافقى
(تابعى) أن يكون راكبا ، فقد نضطر للمشى القسرى ، وذلك لأتأكد
بالتجربة العملية الى أى مدى أضاعت أربع سنوات من الحياة الأوربية
اللينة (المخبثة) قدرتى على التحمل . وقد يعتقد القارئ جازما أن هناك
محركات (تجارب) أخرى قليلة أفضل من الركوب فى عز الصيف مسافة
أربعة وثمانين ميلا على سرج خشبى يحمله جمل سيىء ، عبر صحراء
السويس . انه حثيى حامل الدروع القوى التابع للفارس المشهور بصفاحه
النحاسية . قد لا يزدرى (يستسهل) تجربة من هذا النوع .

وقد جعلت صبيى الهندى ، وامتعتى الثقيلة تسبقنى للسويس
بيومين . فالجمال المحملة - بشكل عام - تستغرق خمسا وخمسين ساعة
أو ستين ساعة لانجاز هذه الرحلة ، وقد قضيت الفترة ما بين انطلاق
صبيى الهندى وامتعتى الثقيلة من ناحية ، ورحيلى من ناحية أخرى مع
الحاج والى . وقد نصحنى أن أركب منطلقا فى حوالى الساعة الثالثة
عصرا ، قبذلك ربما أصل للسويس فى مساء اليوم التالى ، وساعدنى فى

تجهيز ما احتاجه للرحلة من ماء وتمباك وموّن . وفى الصباح الباكر
فى يوم رحيلى حضر الشيخ الأفغانى الى الخان ، وتناول طعام افطاره
معنا « فهذه ارادة الله » وبعد أن افطر بشراهة ، وضع يده على فى وضع
من يمنح البركة ، وأراد معانقتى ، ولكننى أبعدت يده بتواضع ، وبمجرد
أن أعطانا قفاه ، أشار الحاجّ وألقى بسنابته وانفجر ضاحكا بشكل
ساخر . وحزنت لهذا . وفى الساعة الثالثة حضر نصار البدوى
ليعلننى أن الجمال قد أسرجت . فارتديت ملابسى ، ووضعت مسدسى فى
حزامى ، وجعلت الخيط الحزيرى القرمزى الذى ربطت فيه (الحمائل)
أو الكيس الذى يحمل فيه المصحف - ظاهرا على كتفى دلالة على اننى
حاج . ثم وزعت قليلا من الهدايا البسيطة للأصدقاء والخدم ، وهبطت
السلم هبوط الأشخاص المهمين ، مصحوبا بالشيخ محمّد والحاج والى .
وفى الساحة وجدت الجمال جاثمة ، وجدت أن الجمال الثانى هو الذى
سيصحبنا . وقد اعترضت على هذا لأن البدوى الرئيسى (الجمال
الأساسى) كان يتوقع بطبيعة الحال أن أطعمه على نفقتى ، الا أن نصار
أقسم أن هذا الرجل (الجمال الثانى) أخوه ، ولما كان من النادر أن
تقوز عند الدخول فى أى خلاف مع هؤلاء الناس ، فقد سمحت للجمال
الثانى بقيادة جملى .

ثم أتى وقت الاستعداد للوداع ، فعانقنى الحاج والى بحرارة ،
وفعل الشيء نفسه شيخى العجوز الفقير الذى أصر على اصطحابى حتى
بوابة القاهرة ، رغم ضعفه ، ورغم اعتراضى . وركبت الجمل ، وعبرت
ساقى قبل الحنو (١) (وهو القسم من السرج المقوس المرتفع من قدام
السرج ومن مؤخره) والركاب ، وهو أسلوب غير معتاد فى مصر ،
وتقدمت صديقى ، وهبطت الشارع المؤدى للصحراء . ولما برزنا من
البوابة الضخمة للخان فان كل المشاهدين - ما عدا البواب - الذين
كانوا يعتقدون اننى فارسى ، والذين كانوا قد رأونى مع اليوزباشى
الألبانى السنكير ، قد صاحوا قائلين : « الله يبارك فيك يا الحاج (٢) » ،
ويعيدك لبلادك وأخباك ! » ولما مررت عبر بوابة النصر ألقى السلام على
الخفير ، والضابط المسئول عن الحراسة ، فدعيا لى بالتوسيق بحرارة
فمباركة الحاج والدعاء له فى أسيا - كدعوات النسوة العجائز فى

(١) أو القربوس

(٢) يا حاج ، وإضافة الألف واللام فى مثل هذه الصياغة لا تزال مستخدمة حتى
الآن فى شبه الجزيرة العربية . « يا المدرس » يا الحاج . « يا السائق » وهكذا . -
(المترجم)

أوربا ، من المفترض أن لها تأثيرا خاصا . وخارج البوابة ودعنى
اصدقائى الزداع . الشهابى . ولا أنكر أننى تشغرت بالأسى لقشراق وجوههم
الأمينة التى بدأت تخفى عن ناظرى كلما ابتعدت .

لكن الشيخ نصارا غمز كتف جملة : "وبدا" أنه يميل لأخذ زمام
المبادرة . أنها تجربة لاختبار التحمل والرجولة . فلا وقت للغواطف ،
ولا يمكن اضاءة لحظة أو استبدالها بلحظة أخرى حتى لو كان ذلك
لتذكر ما جرى ، فركلت جملى الذى هرول بسبب وكزة قدمى . وحاول
البدوى بضحكة مدوية أن يمر بجانبى ليطمئننى ، الا أننى قاومت ،
واستمررتنا - كالأطفال - نعدو نحتى وضلت الجمال لأقصى سرعتها ، مع
أنه مازال امامنا أربعة وثمانين ميلا ، كما أن الجو كان ملتهبا كنفخ
الأتون وكان الطريق خاليا فى هذه الساعة ، والا لأننا المسافرون من
المسلمين الجادين (لارهاق الجمال بالسرعة الشديدة فى هذا الجو
القائظ) معتقدين أن الشرطة هى التى تصلح مع أمثالنا .

وسرعان ما أرخينا العنان وغيرنا خطو الجمال بما هو أكثر ملاءمة
لموسم الصيف ، بينما كانت الشمس قد بدأت تنم عن ضعف الانسان
والحيوان (الجمل والجمال) ، فالحرارة المنعكسة تصفعنا بشكل
محسوس والوهج المنبعث من حصباء الطريق يكيل لنا مزيدا من الحرارة .
وبدا البدو يدخلون لانهاش أنفسهم ، وملأوا الشيبوك (ما يشبه الشيشة)
الخاص بى وأوقدوه بالمقدح (ضرب حجر الصوان بقطعة من الصلب) ،
وقطعة قطن مغروسة فى محلول البارود (٣) ، ومرروه لى (الشيبوك) .
وبعد بضعة أنفاس قليلة أعدته اليهم ، فأداروه بينهم . ثم بدعوا - دفعا
للملل فى توجيه الأسئلة التى بدت مع مرور الوقت ، وكأنها لا تنتهى ،
لأنهم لا يرضون الا اذا عرقوا منك ، أكثر مما تعرفه عن نفسك . ثم عادوا
بعد ذلك للحديث عن الأكل ، فالطعام مع هذا الجنس الجائع يحل فى
النقاش محل النقود فى البلاد الأسعد حظا ، وأخيرا ، وحتى بعد استنفاد
الحديث فى هذا الموضوع (الأكل) ، لجأوا للغناء . وغناؤهم their
Modinha - برتابته وملله - يخلو من « الشجن الفنى » .

فاذا استمعت للكلمات ، فكأنك بال تأكيد تسمع احياءات بالخضرة
النضرة ، والظل المنعش ، والغدران ذوات الخريز أو شئ بعيد عن المنال
تتمناه النفس .

and Cotton dipped in Solution of Gunpowder.

(٢)

والآن - بينما نأجر وأخوه - يغنيان مما لحنا ثنائيا - فإن اللازمة
(العبارة المكررة بعد كل مقطع من مقاطع الأغنية) هي :

والأرض بللها المطر

• والأرض يبلول بمطر • (٤)

وأود أن أترك استطرادي هذا ، لأتحدث بإيجاز عن القبائل العربية
في سيناء ، رغم أنه موضوع ممل •

فبالإضافة للقبائل التي تشغل الأجزاء الشمالية من شبه جزيرة
سيناء ، عدد بوركهات خمس عشائر رئيسية • وقد قسم نصار ، ومصادر
أخرى في السوييس هذه العشائر الى ست ، هي :

١ - قرشى - مثلهم مثل الجارا Gara (١٩) في شرق شبه الجزيرة
العربية يدعون الانتساب الى قبيلة قريش العظيمة - وهو انتساب
مشكوك فيه •

٢ - صالحى Salihi وهي الأسرة الرئيسية بين بدو سيناء •

٣ - عارفى : ووفقا لما ذكره بوركهات فإن هذه العشيرة مجرد فرع من
الصوالحة Sawalihahs •

٤ - سعيدي : وقد أسماهم بوركهات أولاد سعد (ولاد سعد أو ولد
سعد) وجعلهم أيضا فرعا من الصوالحة •

٥ - العليقى Aliqi . :

٦ - وأخيرا : مزينة Muzaynah وتنطق بشكل عام مزينة Mzaynah
وتدعى أنها فرع من قبيلة جهينة الكبيرة ، التي تسكن الساحل
عند يمينع الى الداخل قليلا منها • ووفقا لما تقوله الروايات الشفهية ،
فإن الثار الجأ جدود مزينة الحالية ، وكانو خمسة الى ترك وطنهم
الأصلى (نجد وما حولها) ، فحطوا رحالهم عند الشروم

(٤) النص :

Wa'al arz mablul bi matar

ولا شك أن بيرتون أساء السمع ، فالبدو ، والعرب عامة لا يذكرن الأرض ، فيقولون
الأرض (مبلولة) وليس (مبلول) • وعلى أية حال فإن بيرتون نقل المعنى للانجليزية
صحيا :

'And the earth wet with rain.

(جمع شرم) وانتشروا الآن فى الأجزاء الشرقية لشبه جزيرة سيناء . ومزينة فى الحجاز ، قبيلة عريقة ونبيلة . فقد انجبت كعب الأخبار الشاعر الشهير ، الذى قدم له محمد (صلى الله عليه وسلم) خلعة يعتقد العثمانيون أن السلطان سليم قد أخذها من مصر ، وأصبح اسمها الخرقه الشريفة ، وأصبحت رمزا ومصدر الهام للعثمانيين فى حروبهم الوطنية .

وثمة بعض الملاحظات الاثنوجرافية (الانثروبولوجيا الوصفية) المشوقة المتعلقة بعشائر سيناء وهى - أى هذه الملاحظات - مشوقة على الأقل بالنسبة لمن قد يتتبعون أنساب القبائل العربية الكبرى . فكل من يعرف البدو يمكنه أن يرى أن مزينة قبيلة ذات دم نقى (تشكل عرقا) فجباهم عريضة ووجوههم نحيلة (ضيقة) وملامحهم منتظمة وعيونهم ذوات حجم معتدل ، بينما عشائر الطواره Tawarah الآخريين (أى باقى أهل سيناء) فيشبهون المصريين بشكل واضح . فلا يحتفظون باستدارة وجوههم التى ربما لا تزال تتجلى فى وجه أبى الهول ، وفى وجوه الأقباط المحدثين ، كما أن لعيونهم ذلك الحجم المميز ، والشكل المميز ، والنظرة المميزة ، التى حاول الفنان المصرى القديم التعبير عنها برسمها على جانب الوجه بشكل كامل . وقد كان على أن أركز بشدة على هذا الملمح الذى يعد أحد خصائص الجنس النيلي Nilotic race فليس من رحالة ألف العيوف المصرية الحقيقية يمكن أن يخطئ تميزها فهى طويلة ، تشبه حبة اللوز ، عميقة الأهداب ، ترتفع ارتفاعا طفيفا عند ركنها الخارجى ، وتنخفض من الأمام (من واجهتها) كالعين الصينية . وقرى هذه العيون عند العناصر المولدة (الهجنة) فقد سبق لى أن رأيت هذه العيون تزين وجوه أسر استقرت لأجيال فى الأراضى المقدسة بالحجاز وترجع فى أصولها لضاف النيل .

لكل هذا فاننى أعتقد أن بدو الطور (بدو سيناء) ليسوا بدوا خلصا ، انهم عناصر مصرية شامية مختلطة ، بينما جيرانهم من بدو الحجاز عناصر شامية أو عراقية خالصة .

لقد حدث تغيير مدهش فى قبائل الطواره Tawarah (قبائل شبه جزيرة سيناء) ، فقيما مضى وصفهم السير جون ماندفيل Mandeville بأنهم قطعان شريرة ، وكتب نيبور عن المشاكل التى سببها له ، وميلهم الشديد للقتل والنهب . وحتى فى أوائل عهد الراحل محمد على ، لم يكن أى مدير للسويس يجرؤ على أن يضرب بالسياط أى طورى (سيناوى) ولا أن يجبره على رفع يديه ، وكل ما كان يمكنه عمله إزاءه هو التحفظ عليه داخل أسوار السويس ، أما الآن فإن السلطات تأخذ سيف الطورى من مندى .

(المتوحش) - قبل أن تستمع له بدخول البوابات ، وكان يجعقر بك أحد مغارقي القدماء - يظن أنه ليس أكثر من مهاجمة البدو إلا ضربت الفلاحين بالسياط . تلك هي نتيجة سياسة مخمد على النشطة وهذا هو الأثر الذي تتركه حتى الوسائل نصف المتحضرة عند توجيهه جل اهتمامها وحشد كل طاقاتها لإصلاح الجماعات المتبربرة .

ولأنهى هذا الموضوع ، أذكر أن الطواره (أهل سيفاء) لازالوا يحتفظون بكثير من خصائص البدو (٥) فهم اجتماعيون ومحبون للدعاية ، وهم يبتهجون لسماع النكات (الدعايات) وقد يمكن توجيههم وإدارتهم باللفظ والكياسة . بل أنهم قوم يمكن استشارتهم بالأمور المتعلقة بالشرف ، وهم محبون للانتقام ، ومن السهل اغضابهم إذا أسىء فهم أرائهم واحكامهم المسبقة . وقد وجدتهم رفاقا ودودين يستحقون الاحترام لقلوبهم الطيبة وشجاعتهم التي لا يتطرق اليها الشك . أما هؤلاء الرحالة الذين يشكون من عجرفتهم وابتزازهم فاما أنهم يجهلون لغتهم أو يستثيرونهم بتعاليمهم أو أن أشكالهم (لباسهم مثلا) غير مناسب ، لا يدفع البدو لاحترامهم .

لقد استمررنا في رحلتنا حتى قرب الغروب خلال البراري المقفرة دون أن يعترينا الملل . أنه لأمر غريب أن ينشغل العقل ويسعد بمتشبهه لا يضم الا عناصر قليلة . الا أن كل شكل بسيط ، وكل لون يلفت الانتباه ، فالحواس مرهفة ، والقدرة على الادراك تتزهج عندما تستثيرها القدرة على استيعاب كل التفاصيل . وأكثر من هذا فالمنظر الصحراوي ببروزها وضخامتها الهائلة ، مناظر موحية مثيرة . انها مناظر تحتكم للمستقبل لا الى الماضي انها توقظ العقل والشعور لأنها بلا شك - لا تنسى . وبالمناسبة لعابري السبيل الذي يسافر جيذا فانه يجد متعة في القفار لا يجدها في الرعوس (الأراضي الداخلة في البحر أو المحيط) ولا في أنهار الجليد الألبية (نسبة الى جبال الألب الأوربية) ولا حتى في البراري الشاسعة - فالاثارة المستمرة تصل بطاقات العقل وقدراته الى ذروتها . وفوق ذلك فان السماء كانت رهيبه رغم صفائها الجميل ، فسناها القاسي يعمى الأبصار ، ورياح السموم تداعبك ، كما يداعب الأسد فريسته بأنفاسه الخارة . وحولنا تتجمع أكوام الرمال التي ذرتها الرياح فتركت كل هبة منها أثرا واضحا على هيئة موجات قاسية ممثلة في الصخور المنحوتة والمخدوشة والجبال التي أثرت فيها الرياح فجعلتها كالهياكل العظمية ، والهول الصلدة التي تجعل من يركب دابه فيها تلج عليه فكرة انفجار قربة الماء أو آلام حادة في خف الجمل تعوقه عن المسير ، فهذه أو تلك

تؤدي الى موت شنيع، مؤكداً: «فهذه الأرض الشرسة قد ابتليت بالحيوانات المتوحشة ، والبشر الأكثر توحشاً ، انها أرض تتمتع عيون الماء فيها بهذه الكلمات التحذيرية « اشرب وايتعد » أو « اشرب. وغادر المكان فوراً » .
أى شئ يمكن أن يكون أكثر إثارة من هذا ؟ وأى شئ يمكن أن يكون مهيباً مروعاً أكثر من هذا ؟ فقلب المرء مقيد فى صدره بفكرة أنه ضئيل المصايم اتساع الصحراء ، كما أنه مشغول بالخروج من تجربة السفر فيها منتصراً . وهذا يفسر المثل العربى (السفر اقتصار) أو (الرحلة نصر) .
وفى الصحراء تجد الموت حاضراً - أكثر حتى مما لو كنت تسافر فى المحيط - فالصعوبات هناك ، واحتمالات سلبك قائمة ، بالإضافة الى أنه يمكن أن تضل الطريق ، وكل هذا يوردك موارد التهلكة ، فتموت وحيداً منعزلاً ، مما يضيع عليك فرصة الموت وحولك جمع غفير ، فالموت كما يقول الفرس « مهرجان » Death's Festival وكل هذه الأخطار المفعمة بالمعانى لا تغيب أبداً .

دع المسافر الذى يظن فى قولنا مبالغة يغادر طريق السويس لساعة أو ساعتين ، ويتجه شمالاً فوق الرمال ، حيث الصمت الموحش ، والوحدة القاتلة ، والعزلة الخيالية - ساعتها سيشعر بمعنى الصحراء .

ثم وصلنا الى الواحات ، وبعض المناطق القليلة ذوات الخصوبة ، التى كانت ناعمة وجميلة ، فحتى «وادي الورد» رغم أنه مجرد اسم يطلق على بعض المناطق الكالحة التى ينمو فيها قليل من الأشجار المزهرة التى تكافح لتبقى على قيد الحياة خلال موسم الشتاء ، الا أن العقل عند رؤية هذه المشاهد يتأثر بفعل تأثير جسده بالمشهد فرغم أن فمك يكاد يحترق ، ورغم أن جسده يكاد يشوى فانك تشعر بانتعاش ، وتحس أن الحرارة قد تخللتها الرطوبة ، فتنتعش رثائك ، وبيتيج بصرك ، وتستعيد ذاكرتك نشاطها ، وتصبح روحك يقظة مفعمة بالحياة ، وينشط خيالك وينطلق كائنك ما يكون النشاط والانطلاق ، كما أن الروح البرية للمناظر وعظمتها تحرك كل طاقات روحك - سواء بالاحساس بالاجهاد أو الخطر أو الرغبة فى الكفاح - فروحك المعنوية تؤكد أنك أصبحت واضحاً صريحاً لا ليس فيك ولا غموض ، وأنت أصبحت ودوداً محباً كريماً متفرد العقل ، ولا غرو فقد خلقت خلفك فى المدينة روح الرياء وعبودية الحضارة ، وتحس أن كل حواسك قد أسرع وأشرابت للانطلاق فهى لا تحتاج لما يحفزها أكثر من الهواء والحركة - انهما كنوس الانتعاش الصحراوي . والسعادة - كل السعادة - فى مجرد وجود حيوانات الصحراء ، ويقبل الانسان بشهية حتى على أكثر الأطعمة عسراً فى مضجها ، وترى الرمال أنعم وأكثر راحة من أى فراش ، ونقاء الهواء

يذب عنك فجأة جيوشا من الأمراض . ولهذا فان كل البشر ، رجلا ونساء ، شيبا وشبابا ، ذوى الخيال المنطلق والحالمين ، بل وأكثر الخلق جنوحا للمادية ، والكهنة ، وأهل المدن الوديعة ، والخادعة العجوز ، والطالب المسالم ، والطفل المدلل الذى أفسدته الحضارة . كل أولئك يشعرون وهم ينظرون من فوق جمالهم للصحراء العظيمة أن قلوبهم تتمدد ، وأن نبضهم يزداد قوة ، فأين سمعنا عن مسافر خيبت الصحراء رجاءه ؟ انه تفسير آخر للصدق القديم الذى قدمته الطبيعة للانسان . وصدقنى أنك اذا ما ألفت مثل هذه الرحلات ، فانك ستعانى معاناة حقيقية عند العودة لصخب الحضارة وازعاجاتها . وستنظر بأشدتزاز للتوتر الذى تسببه هذه الحضارات ، واضطراباتنا ، وحياتها المصطنعة ومسررتها الزائفة ، وستظل - لفترة - بعد عودتك تشعر بعدم قدرتك على تحمل الاجهاد العقلى أو البدنى ، نتيجة الضغوط الواقعة على روحك . فهواء المدن سيصيبك بالاكنتاب ، وتائق أهل المدن وشحوب سحتهم سيلزمانك كأنهما قدر لا فكاك منه .

وحالما اعتلى المظل الأسود السماء الشرقية ، انحرفت عن الطريق ، وتلقت - فجأة - تحية من شخص لم اتبين ملامحه : « السلام عليكم » وقالها بلسان عربى مبين ، ونظرت لمن ألقى على التحية للحظة دون أن أتعرف عليه . فتقدم ولامح السعادة والمزاح على وجهه ودعانى للشرب ، وأمسك بلجام جملى دون انتظار اجابتي ، وأناخه ، وجعلنى أسرع الى بساط اقترشه على الرمال ، وتخلصت من خفى (صندلى) وقدم لى ماء باردا للوضوء ، وأخبرنى أنه أخطأ التعرف على من بعد ، فقد ظننى شريفا (أميرا) أو شيخا للعرب ، ولكنه أحس بالسعادة عندما اكتشف أنه كان على خطأ وحثنى على الاسراع فى الوضوء ، والا أدركنا الليل قبل أداء الصلاة . لقد كان هو محمد البسيونى ، الفتى المكى الذى كنت قد اشتريت منه ملابس الاحرام فى القاهرة . وقد كنت قد رفضت هناك (فى القاهرة) صحبتته ، ولكن هنا - ولأسباب تخصه ، منها الحاجة الشديدة للمال . فانه لم يطلب الاذن . وعندما صلى وقف ورأى مما يدل على مرونة فى ضميره (قابليته للتكيف مع الظروف) لأنه شك فى منذ البداية شكاً جعله يظن - على الأقل - أننى غير صحيح الاعتقاد .

وبعد الصلاة أوقد الشيشة ، وقدم لى ليها (خرطومها) الشبيهة بالثعبان واضعا اياه فى يدى ، وهو اغراء قلما يستطيع المسافر المرهق مقاومته ، ثم بدأ يبحث بدقة فى خرجى بعميرى ، وسحب منه مخزون مؤنئى ، لفافات وبطيخ وبيض مسلوق وتمور ، وأثناء اشعال النار واعداد القهوة ، دبر امر توزيع المؤن الخاصة به - ولم تكن وفيرة ولا جيدة -

على الجمالة . ونظر الشيخ نصار وأخوه بذعر لهذه « الحركة » ولكن الولد محمداً كان عنيدا . وقد لمح الشيخ نصار وأخوه تلميحات فظة ، فتحاشاها الولد محمد بغشاء مقطع من أغنية هندوستانية مما يؤكد استهزائه برءوسهم المدهونة بزيت الياسمين ، وقد تشككوا في قدرته على الشم ، فراح يسخر منهم قائلاً : « لقد سمعت عن أناس يتسمون باسم نصر ، وآخرون باسم ناصر ، أو منصور ، ولكن إن شاء الله يبدلني من هو خير من نصار » لقد قال ذلك واثقا من تأييدي له . وقد حدثته على الاستمرار لرغبتى في أن أرى كيف يعامل عرب المدينة (لا يقصد المدينة المنورة) الريفى . وبمجرد أن أحس بتشجيعى له أخذ كيس التبأك الخاص بى من البدوى الغاضب ووبخنى همسا لثقتى فى أمثال هؤلاء للصوص ، وأصر فى الوقت نفسه - على شرب القهوة كلها حتى يضطر هؤلاء الأدلاء (الجمالة) الفقراء لاعداد بعض القهوة لأنفسهم لقد كان الولد محمد يبرهن فى كل مناسبة على أنه مصدر ازعاج . وصاح نصار : « لقد أكلنا بطيخة » وربت على بطنه دلالة الشبع . فقال الواد محمد : « أسمعت يا سيدى ما يقوله هذا المتوحش . . انه يقول : لقد أكلنا بطيخة ، لذلك يجب أن نأكل لحما » . فقال له البدوى وقد بلغ به الحنق مبلغه : « لا تثق بنفسك هكذا بين تلالنا » . فنزع الولد محمد سيفه وبدأ يقفز على نسق قفزات أهل شرق الهند وهم يحملون أسلحتهم ، وتباهى أنه يستطيع أن يهاجم بيد واحدة عشيرة كاملة ، فانزع قوله هذا من سامعيه سخرية عبروا عنها بقولهم : « الله ! الله » .

وبعد قضاء ساعة كانت أكثر ساعات الطريق طرافة وتسلية ، نهضت مصرا على ركوب بعيرى مما سبب سخط أدلاى كثيرا لرغبتهم المبيت هناك . فقد كان الشيخ نصار وأخوه قد رقبوا أمورهم على المعيشة مجانا على حسابى ، ظنا منهم أننى باعتبارى (أفندى) لم يتعود التقشف من غير المحتمل أن أتعجل السفر . ولما رأيا الأمل يتلاشى ، بدءا فى الاحتيال لتحقيق هدفهم فأوعزا للجمال الذى كان يجرى الى جانب جمل الولد محمد أن يسبق الجمل (يبتعد عنه) ، وهى مناورة مفضلة لمنعنا من الاسراع ، ولما أمرت الجمال بالعودة للمسير الى جانب جمل محمد تعلل بالمتعب وعدم قدرته على المشى . وسرعان ما سألنى الولد محمد ان كان لدى اعتراض على نزول أحد دليلى ، على أن يركب الجمال المتعب لساعة أو نحوها ، ووافقت على ذلك مباشرة وأطاعنى البدوى وهو يتمتم متذمرا . وعندما استأنفنا مسيرنا لم يجد العرب (البدو) الساخطون أى أغنية يغنونها ، بينما راح الولد محمد يرفع صوته بصخب واختار كلمات هندوستانية سيئة وأخرى فارسية أسوأ منها ، حتى فرض الصمت جيروته عليه . وتلكا الجمالون وتخلفوا عنى فى المسير لمنع جملى من الاسراع كثيرا ،

أما دليل (أو جمال) الولد محمد بعد أن أنزل من فوق الجمل، فقد راح يمشى بخطى واسعة أمامنا بحجة أنه يرينا الطريق . ولهذا فقد كنا نعدو بجمالنا ، وأصبحنا الآن نمشى ، وأحيانا نهول حتى بدأت الجمال تتلكأ نتيجة التعب وراح العرب (البدو) يثيرون الجلبة طالبين التوقف .

وفى منتصف الليل وصلنا لمحطة التوقف الوسطى فترجلنا عن جمالنا لمرتاح قليلا عند أسوارها . لقد كان الندى يتساقط كثيفا ، قبل أن غطيتنا ، لكن من يهتم بهذه الأمور البسيطة فى الصحراء ؟! فالقمر يتألق والنسائم تهب باردة ، وغنى ابن آوى أغنيته التى تغرى بالندوم العميق . ونهضنا حالما ظهر ذيل المذئب فى السماء وأعطى المضباب الرقيق الذى كان يغلف التلال الشمالية ، (دار البيداء) - وهو الاسم الذى يطلقونه على قصر الباشا فى هذه الانحاء - منظر بعض قلاع الاقطاع القديمة (فى أوروبا) . لقد كان الضباب الرقيق يغلف الجو ، وكان جميلا رغم أنه زاد من الاحساس باقفار المكان ، وانطلقت طيور القطا الرشيقة فى أسراب محدثة أصواتا ، وخطت الغزلان الشاردة برشاقة وجمال فى السهل الصخرى . وحالما مررنا بشجرة الحجاج ، وضعت دثارا آخر فوق معطفى البالى ، ثم طلبنا البركة متوسلين من قبر الولي الصالح الدكروى، وهو (أى القبر) مطلى باللون الأصفر المشاحب (الكريمى) ، ثم ركبنا جمالنا واستأنفنا المسير بجسد حقيقى . وانقضى الفجر ببرودته اللطيفة وأقبل الصبح بحرارته الشديدة ، ثم تألق النهار بحرارته الملهية وجعلت شمس الظهيرة ، السهل يتوهج بحرارة مرعبة . ولازلنا نتقدم باصرار .

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر انحرفنا تاركين الطريق لندخل فى مجرى مائى جاف لا يبعد عن المحطة رقم ١٣ ، حيث تناثرت أوراق نبات الداتورا Datura الجسافة ، ونبات المشيح ذو الرائحة النفاذة وهو أحلى عشب صحراوى . وأشجار الليموزا Mimosa (السنط غالبا) توجد هنا ، ورغم أن ظلها فى هذا الموسم كان قليلا فإنه أفضّل من ظل أشجار الكاكو ، ولم يكن من الممكن أن يتجاهل البدو ظل أشجار السنط هذه . فانطرحنا على الأرض لنستريح مع جماعة من الحجاج المغاربة كانوا فى طريقهم للسويس ، وبدو فقراء وكان عددهم حوالى اثنى عشر حاجا ، ويبدون من أدنى الطبقات الاجتماعية ، وكان لباس الواحد منهم عبارة عن برنس - Burnus وخف (صندل) وسلاحهم الوحيد عبارة عن سكين طويلة ولا تزيد مؤونة الواحد منهم عن حقيبة (كيس) من النواشف (الأطعمة المجففة) ومع كل واحد منهم أنية خشبية كبيرة ، ولا يحمل أى واحد منهم ماء معه . وكان من المستحيل مساعدتهم فى مثل حالتهم التى تدعو للإشفاق . كما لم أكن أستطيع أن أكل أمامهم

وأنا أراهم جوعى وعطشى ، أضناهم السفر . لذا فإن نصارا قدم لكل واحد منهم رشفة ماء وقليلًا من الخبز ، فطلبوا مزيدا فلم نعط أحدا منهم مزيدا ، فصاحوا طالبين مالا ، فقررت أن أكون كريما فى حدود بنسات قليلة . وقد جرت العادة على تقديم الصدقات ، بالإضافة للميل الطبيعى لذلك ، لكن عندما نقدم المصدقات بناء على طلبها ، وإن يكون طلبها مدعما بنظرات نارية ، وشخير ساخر ، أو تحت تهديد سكاكينهم ، فخذ حذرك وانج بنفسك . وقد جعلتهم مسدساتى فى مأزق فلم يبدلوا سوى محاولة لاخافتى ، ورغم أنى اتخذت حذرى فجلست بعيدا عنهم فلم يكن منهم خطر حقيقى . لقد أصبح طريق السويس بفضل الاجراءات الحكيمة التى اتخذها محمد على طريقا آمنا للمسافرين الأوربيين كالمطريق بين همبستيد Hampstead وهايجيت Highgate ، بل آمنا للمسافرين الشرقيين ، فلم يعد فيه ما يخيفهم سوى ما تخلقه مخاوفهم . هم . ولأن خادمى الهندى كان ممثلا رعبا ، فقد جرى مبتعدا ، وعلى أية حال فأنى لم أثق فى هؤلاء المغاربة . وقد سمعت بعد ذلك أن هذا المكان شهد محاولة المغاربة اخافة (افزاع) ما ظنوه تركيا رعيديا كان مشهورا بالسلب والقتل . ويتقابل - هنا - أنفسا (رعنا) جبليين متواجهين فى سهل ، يعد مكانا أثيرا لنصب الكمائن البدوية . وسوق يكون لدى كثير مما يمكننى قوله عن هؤلاء المغاربة عند حديثى عن رحلتى فى سفينة الحج . فقد كانوا هم المسافرين الوحيديين الذين لاقينا منهم أكبر قدر من الازعاج ، فالجماعات الأخرى العديدة من ترك وعرب وأفغان وقلّة من اهل شرق الهند كانوا جميعا ، لا يقصدون - مثلنا - الا الحج . فجميعهم كانوا يقرؤونا السلام كلما مررنا بهم ، ذلك السلام الذى يذكر الانسان بواجبه الدينى .

وقبل غروب الشمس بحوالى نصف ساعة خرجت عن الطريق نحو الشمال بحجة تدبير ماء للجمال ، وركبت لأبحث عن قلعة العجرودى Al-Ajrudi . إنها مبنى رباعى الزوايا ذو أبراج اسطوانية عند بوابته ، وأركانها قد بنيت - مجددا - بالأحجار والملاط . وهى مليئة الآن بالمشقوق بحيث لا تصمد أمام قذائف المدفعية زنة اثنى عشر رطلا . وليس بالقلعة مدافع أو مدفعيون وإنما يشغلها حوالى اثنى عشر فلاحا يعملون كخفراء Ghaffirs ، وكانوا يتوقعون فى ذلك الوقت أن يأتيتهم من القاهرة تعزيز بمجموعة من الباش بوزوق (الجنود غير النظاميين) . وهناك من أقنع اهل المنطقة بأن الأسطول الانجليزى سيظهر قريبا جدا فى البحر الأحمر ، وأن هذه القلعة بفضل جهودهم تعتبر مفتاح السويس . وهو قول يدعو للسخرية . وكما هو المعتاد فى هذه الأراضى التى تنقصها موارد مائية دائمة فإن المبرر الذى يمد القلعة بالماء تقع فى مبنى بعيد ومنعزل ،

يستطيع العدو أن يتسلل إليه بأمان كامل • وفوق بوابة القلعة كتابات
قديمة مقلوبة • وكان الماء تعذريه الملوحة ومن نوعية سيئة •

واستأنفنا طريقنا ، فالسويس - الآن - غدت قرية ، فعلى البعد
حيث الزرقعة : ترتفع قمم جبال Rahah ذوات القلاع ...
أصدقا رملية يظهر عليها الطريق المؤدى للحجاز ، وتجلى أمامنا منظر
عزيز على العيون الانجليزية - انه قطاع من بحر ذى زرقعة سماوية
رائعة ، تمخر عبابه باخرة أنيقة • وعن أيما المناحدرات المعريضة
لجبل المقطم Mukattam (٦) (٩) سلسلة من التلال على جانبي
الطريق من القاهرة للسويس ، وهو (المقطم) (٧) يشكل فى هذه الساعة
مشهدا لا يمكن نسيانه بسهولة • فالسلسلة الغربية من صخور طباشيرية
ورملية ترتدى حلة خميرية (ذات لون أسمر محمر) فاذا ما سقطت عليه
أشعة الشمس عند الغروب غدت مذهبة ، بينما تظل كهوفها العميقة
باللون الأرجوانى كأثرى ما يكون اللون الأرجوانى ، ويشكل جبل الطوارة
Tawari - المعروف عموما باسم جبل (أبو دراج) الذى بدا أزرق
سماويا ، مخططا بلون برقوقي فاتح - خلفية للتلال الأكثر ارتفاعا من
سواها • واتجهنا صاعدين الى مبنى صغير (بير السويس) Bir
Suways بحجة سقى الدواب وجلسنا نصف ساعة أمتع نفسى بمنظر
المصحراء الرائع • ان العين لا تشبع من هذه الألوان المتدرجة فى بهاء ،
كما ان الذاكرة لا تنسى بشاعة منظر هذه التلال اذا كشفت الشمس عن
ملامحها الكالحة الجرداء ، لكن منظرها فى المساء يعطيها جاذبية •

لقد مررنا عبر بوابة السويس ذات النوافذ الست المقلوبة (٩)
عندما حل الليل ولا زال باقيا أن أبحث عن خادمى وممتلكاتى الشخصية
المنقولة • وبعد البحث عنه فى كل الوكالات بالقرية ، وخلال ذلك اثبت
الولد محمد أنه مقيد جدا مما جعلنى أقبل مرافقته لى متجاوزا عن كل
المخاطر الناتجة عن ذلك ، وقد سمعنا أن هنديا قد احتجز مكانا فى خان
يحمل اسم « خان جرجس الزهر » Jirjis al-zahar وعند وصولنا
الى هذا الخان تلاشى أملنا لأن الأخبار أتتنا أن هذا الهنذى نفسه قد
أغلق حجرته وخرج مع أصدقائه الى الميناء ، وفى الحقيقة أنه قد اتخذ
العدة للهرب ، فترجلت عن بعيرى وحاولت أن أفتح باب غرفته الخشبي
بالكسر ولكن البواب رفض بشدة وهددنى بإبلاغ الشرطة ، وفى هذه
الاثناء وجد الولد محمد مجموعة أصدقاء ، رجال من أهل المدينة

(٦) ما الذى أتى بالمطم هنا ؟ - (المترجم) •

(٧) التعليق السابق ٩١

(المنورة) عائدين لأداء الحج بعد أن قاموا بجولة تسول في مصر وتركيا .
وكان لقاؤه بهم لقاء مميزا حيث الاستفسارات المتلهفة والقهقهة الصاخبة
والأحضان الحارة . ودعائى الولد محمد لمشاركتهم عشاءهم ومهجعهم
ـ وهو عبارة عن صالة غير مغطاة متفرعة من المر الكائن فوق الصالة
المربعة فى الطابق الأرضى ـ ولم يكن لدى الشهية أو الروح العالمية لهذه
المشاركة الاجتماعية فأرانى البواب ـ بعد أن بذلت جهدا فى اقناعه ـ غرفة
خالية ففرشت فيها بساطى . لقد كانت ليلة حزينة ، فقد كانت عظامى
كلها تؤلمنى نتيجة الركوب طوال أربعة وثمانين ميلا . لقد فقدت بشرتى
الطبيعية. فأحرقت الشمس كل جزء من جسدى تعرض لها . لذا ، فقد رحت
أندب أيام انحلالى (انحرافى) والاثر السيئ الذى تركته الإقامة بأوروبا
أربع سنوات على بدنى ، كما انشغل عقلى بمصير مقتنياتى ، لذا فقد رحت
فى نوم قلق غير مريح .

الفصل التاسع

السويس

البحث عن الامتعة الضائعة - مقابلة المدير - عمر افندى الداغستاني
(من مكة) - سعد الجنى - حامد السمان - صالح شكار - بيرتون يريج من
تحويل العملن - طريق الحج بالبحار من السويس - طريق الحج البرى -
طريق القصير - بقاء نظام الاحتكار فى ميناء السويس - فطومة - الجوارى -
تجارة الرقيق - تقرير عن السويس وتجارتها - صفات المصرى .

لقد استيقظت مبكرا فى صباح اليوم التالى لوصولى ، وتناقشت
مع معارفى الجدد عن الوسائل التى يجب اتخاذها لاعادة مقتنياتى
الضائعة ، فنصحتنى جميعا بزيارة المدير (المحافظ) مع أنهم وصفوه
بأنه (كلب ابن كلب) لا يرد سلام المسلمين ويظن أن كل الناس أوساخ
لا بد أن يدوسهم الأتراك باقدامهم . لقد اظهر الولد محمد لباقة اجتماعية
فأخرج من سحارته (صندوقه الكبير) طاوية جميلة مطرزة ومعطفا
قرنفليا ، فلبستهما على الفور ، كما اتخذ هو زينته بلباس بهى كاللباس
الذى قدمه لى ، ثم خرجنا قاصدين قصر المدير .

لقد كان جعفر بك يشغل منصب القاضى والقائد العسكرى ، وجامع
المكوس (الجمارك) وحاكم السويس . لقد كان جعفر بك أمين لواء
(مير لى Mir-Liwa) وحقق بعض الشهرة كعسكرى بالاضافة
لمعرفته السطحية باللغات والعلوم الأوربية . واستقبلنى هذا التركى
العجوز بكبر شديد وترفع عن رد السلام ، وحملق فى بعينين صغيرتين
كأنهما مثقابان وسألنى عن طلبى ، فقلت ان شخصا اسمه المشيخ ثور وهو
خادمى الهندى قد خدعنى وانى اطلب اننا لأكسر باب غرفته وأدخلها لأنى
أظن أن بها مقتنياتى ، فسألنى عن مهنتى ، فأجبت أننى طبيب ، فجعله
هذا يسألنى أن كان لدى أى دواء للعيون ، فأكدت له ذلك فأرسل معى

مندوبا لالزام البواب بالطاعة وتنفيذ الأمر . وعلى أية حال فإن هذا الاجراء البغيض كان غير ضرورى ، فحالما دخلنا الخان ظهر عند الباب وجه الشيخ نور الأسود ناظرا بفرع كما لو كان يتوقع - بل ويستحق - أن يضرب بالخيزرانة ، رغم وجوده بين عدد كبير من اهل بلده . لقد كان - وفقا لروايته - قد أجبر على حضور مهرجان فى باخرة نقل فحم عمل بحاروها على جمع الرجال لحضوره . وكنت قد عقدت العزم على عقابه ، لكن شدة احساسه بالذنب أنقذه من عقابى .

ويجب أن أصف الآن باختصار جماعة رجال مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) الذين ساقهم القدر فى طريقى . وستظهر أسماؤهم متتابعة فى الصفحات التالية ، لكن بضع كلمات عن طبائعهم لا تخلو من فائدة .

فأول هؤلاء هو عمر أفندى وتطلق عليه من باب التشريف الداغستاني (من الجراكسة الشرقيين) حفيد المفتى الحنفى فى المدينة (المنورة) وابن الشيخ رجب Rakb (؟) الضابط المسئول عن قيادة قوافل الجمال . انه يجلس فوق سرير خفيف وهو قصير وضئيل وممتلىء الجسم ، أصفر البشرة ، صفراوى المزاج ، عيونه رمادية ، وملامحه ناعمة (رقيقة) وهو أمر لا لحية له - وهذا ينعكس على احساسه ويبدو فى الخامسة عشرة من عمره مع أنه فى الثامنة والعشرين . ويتصرف كالنلاميد ، وملابسه محترمة ، ويؤدى الصلوات فى مواقيتها ويكره الجنس اللطيف ، مثله فى ذلك مثل العرب يتسمون بالتطرف فى حبهم وفى كرههم دائما ، وهو رجل (جاد) ذو سلوك معتدل ، ومشية متواضعة وصوته رقيق خفيض . فاذا ما استثارة أحد غضب غضبا عارما كنمر بنغالى وقد أجبره والداه على الزواج ، ولكنه - مثله فى ذلك مثل قمر الزمان - أخبر والده أنه شخص « كبير السن قليل الفهم » ، وأكثر من هذا فقد ترك موطن والديه وجعل من نفسه « طالب علم » فقيرا فى الجامع الأزهر ، لأن والده أراد أن يجبره على التفرغ للدراسة فى المدينة (المنورة) . وأرسل أصدقائه الذين انفطرت قلوبهم لفراقه ، وكذلك أقاربه المفجوعون لبعده عنهم - رجلا ليتحدث اليه بصفة شخصية ويعيده لأهله ، بالقوة اذا لزم الأمر ، وقد استسلم للضغط الواقع عليه ، وهو الآن فى انتظار أول فرصة تسنح ليسافر - مجانا - الى المدينة المنورة .

وذلك الشخص الموثوق به الذى أرسلوه لاقتناع عمر أفندى بالعودة هو خادم زنجى . اسمه سعد مشهور بين اهل بلده (المدينة المنورة) باسم

الجنى Al-Jinni (١) . وقد ولد وترعرع كعبد بين أفزاد أسرة. عمر أفندى ، وحصل على حريته اذ اعتقته الأسرة فأصبح جنديا فى الحجاز ولكنه استاء من تأخر دفع المعاشات (الرواتب) المستحقة ، فعمل بالتجارة ، وجال البلاد طولا وعرضا ، فارتحل الى روسيا والى جبل طارق ، والى بغداد . وهو أفريقى خالص يبدو سعيدا ذا صخب فى لحظة ، ويبدو صامتا متجهما فى لحظة أخرى ، ويبدو حنوناً رقيقاً ثم ينقلب على حين غرة بذيئاً فاحشاً ، ويكون شجاعاً متبجحا ، وإذا به طائش ، وسرعان ما تجده ماكرا وهو مشاكس ، ومنعدم الضمير تماما . والجانب المضى فى شخصيته هو حبه واحترامه لسيدة الشاب عمر أفندى. حتى اذا وبخه فى نوبة غضب ، وهو يسرق منه (من سيده عمر أفندى) كل ما تطوله يداه . وهو سخي بما لديه ، لكنه دائما يقترض ولا يرد ما أخذه ، أما عن لباسه فهو يلبس كالتسولين ويضع على رأسه اللتى تتدلى من مؤخرتها خصلات شعره ، أقدر طربوش يمكن تصويره ، ولا يستتر جلده الأسود المقاتم الا قميص من قطن - فى الوقت الذى يمتلىء صندوقاه بالملابس الجميلة الخاصة به وبزوجاته الثلاث فى المدينة (المنورة) . وهو لا يخاف على شئ خوفه على هذين الصندوقين ، وقد فرض نفسه على حضرة جعفر بك حيث حط من قدر نفسه بصفاقة ، حتى اننا توقعنا أن نراه يعرج نتيجة ضرب قدميه (بالفلكة) . وعلى أية حال فان صفاقته لم تؤد الا الى التسرية عن جعفر بك . وتراه طوال اليوم يتجول فى السوق ، يتحدث عن الشحن والور ، لأنه كان قد قرر أن يسافر مجانا ، والحق أنه لابد أن ينجح فى تحقيق هدفه هذا ، مادام يمتلك هذا القدر الكبير من العناد والصفاقة .

أما الشيخ حامد السمان - ويعنى لقبه بائع السمن - فيرجع فى نسبه الى الولى والصوفى القادرى (نسبة للطريقة القادرية) الشهير ، الذى ترك ذرية كثيرة من الأولياء والصوفية فى المدينة المنورة . والشيخ حامد السمان يجثم فوق صندوق ملئ بالهدايا لابنة عمه (زوجته) وهو مثال حى لعرب المدن . ففداله (مؤخرة رأسه) مزدحمة (بشوشة)

(١) جعل بيرتون مقابلا لكلمة Al-Jinni ، اللفظ الإنجليزى Demon

وقد يكون هذا غير صحيح . والاقترب الى الصحة ان الجنى نسبة الى مدينة (جنى) فى مجيريا . والنسبة للموطن معروفة فى شبه الجزيرة العربية وغيرها (التكرورى) التمكنوتو - نسبة لتمبكتو - الكنوى - نسبة الى كافوا ، الداغستانى - نسبة لداغستان هكذا) - (لترجم) .

Shushah غير مهذبة (مهوشة) أما وجهه فقذر ، وهو بنى اللون ، وأما لحيته الصغيرة التى تشبه لحية العنز سغير مهذبة ، وهو حافى القدمين ، وعباءته الوحيدة التى لها لون العملات الذهبية ففى المغاية من القذارة ، وهو لمن يصلى لأنه لا يرغب فى اخراج ملابس (طاهرة) من صندوقه ، ولكنه يدخن اذا استطاع أن يحصل على تمباك الناس وهو يكح ويئن بين كل نفخة وأخرى (بين كل نفس وآخر) وهو ذو عقل نشط لذلك فهو يقضى يومه كاملا فى تصريف الأفعال (٢) وهو يستطيع أن يميز بين الحروف ، ويحمل فى صدره مخطوطا صغيرا مطويا أثر الإهمال فيه ، مملوءا بالقصص الجادة والدعوات الغبية ، والمخطوط قديم ومكتوب بخط ردىء ، وهو يخرج من صدره فى بعض الأوقات ، ويتمتم بصوت واهن قارئاً ما به للحظة ، ثم يقبله بتبجيل ويعيده لمكانه فى صدره بتوقير كتوقير العامة لكتاب ، وهو يستطيع أن يغنى ، ويستطيع ذبح الشاة ببراعة ، ويدعوه الناس للصلاة بحرارة ، ويستطيع أن يحلق ويطبخ ويحارب ، وهو بارع فى « علم » الهجاء ، وهو مثل سعد لا يؤدى الصلاة أبدا الا عند الضرورة للحفاظ على المظاهر والشكليات ، ورغم أنه أقسم أن يموت قبل أن ينسى نذره (وعده) لابنة عمه الا أننى أشك كثيرا أنه لمن يكون أفضل مما هو عليه ، وإذا ما ذكر لفظ النبيذ تجعد جبينه ، وتلمظ بقمه ، وقد عاش فى استانبول بضعة أشهر دون أن يتعلم عشر كلمات من اللغة التركية ، مع أن استانبول مدينة شهيرة بقدرتها على تغيير سلوك من يعيش فيها ، وأخيرا فليس فى جيبه أكثر من قرش أو قرشين لأنه يدد المبالغ الكبيرة التى وهبتها له سيدات الطبقة المراقية فى القاهرة واستانبول باعتباره رئيسا للشعائر حول قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

أما صالح شكار **Shakkar** فتراه ممددا على البساط ، يدخن طوال النهار المنليون المعجمى (شيشة عجمى) ، وهو من مواليد المدينة (المنورة) من أب تركى وأم عربية ، وهو شاب طويل ونحيل وبه هزال ، ربما كان فى السادسة عشرة من عمره لكن أفكاره أفكار رجل فى السادسة والأربعين ، وهو طماع الى أقصى حدود الطمع ، وأنانى ، ولا يعرف الكرم ، ومتكبر كالأتراك ، وجشع نشيط فى جشعه كالعرب ، وهو يصلى المفروض والسنة غالبا ، ويلبس لباسا أكثر احتراما من لباس آل السمان (الذين أشرنا لواحد منهم آنفا) ويفضل أسلوب أهل استانبول عند

(٢) السخرية واضحة فى التعبير - (المترجم) .

قضاء حاجته (التواليت) وهيئته ، ولونه الأصفر المشرق يجعل الناس يعتبرونه شخصا غير عادى . وقد كانت بيننا صداقة حميمة بدرجة كافية أثناء الطريق عندما اقترض منى مبلغا ضئيلا . لكنه فى المدينة (المنورة) قاطعنى بقسوة ، كما يفعل أهل المدن الذين تعارفوا بالصدفة فى حديقة الهيد بارك Hyde Park كما أنه بالطبع حاول - عبثا - أن يروغ من رد ما عليه من دين . ولديه لون من ألوان الثقافة ، ويبدو أنه درس دراسة نقدية موضوع السخاء . وهو لا يكف عن ترديد مثل هذا القول الجليل : « الكريم حبيب الرحمن ، نعم ، حتى لو كان أثما ، والبخيل عدو الله ! أى نعم ! حتى لو كان قديسا » وقد أخبرنى أيضا أن فرعون - رغم أنه كافر قد ذكره الله بالاسم فى القرآن الكريم بسبب كرمه وتجرده بينما نمرود وهو كافر ظالم فإن الله سبحانه اكتفى بالإشارة إليه لأنه كان طاغية شديدا الطغيان (*) . ولم يكن ثمة حاجة غالبا للقول أن صالح شكار كان - كما يقول أهل شرق الهند - « ذبابة مصاصة » (١) بكل ما يعنيه هذا القول من معنى . وكان هناك رجلان آخران من أهل المدينة المنورة فى وكالة جرجس ، لكننى أهملت وصفهما ، وقد كانا مفلسين عندما ضايرنا السويس . وكان أحدهما هو محمد شقيلها قابلته بعد ذلك فى مكة (المكرمة) وقلما رأيت من هو أكثر أمانة ، واشدد حرارة فى الصداقة ، فعندما ركبنا سفينتنا فى السويس وجدته يلقي بنفسه على صدر حامد ، وراح كلاهما ييكى بمرارة لأنهما سيفترقان - حتى ولو كان هذا الفراق لأيام قلائل .

ولم يضع كل هؤلاء الأشخاص الذين ذكرتهم وقتنا فى فتح باب الأسئلة عن الفوائد والقروض . لقد كان درسا فى الميتافيزيقا الشرقية لأرى أحوالهم ، لقد كان أمامهم اثنا عشر يوما وأربعة أيام عليهم أن يواجهوا فيها تكاليف حمل صناديقهم ، والمكوس التى عليهم دفعها فى مراكز الجمارك . وأمعاءهم التى تطلب الامتلاء - ومع هذا فأننى اعتقد أنهم جميعا ، لم يكن معهم من النقود السائلة الجاهزة ما يساوى دولارين . مع أن صناديقهم كانت مليئة بكل ما هو ثمين من أسلحة وملابس ، وشيش (جمع شيشة) وأخفاف (جمع خف) وحلوى وغيرها ، لكن شيئا ما لا يدفعهم - عدا الموت جوعا - لاستهلاك أقل قدر مما يحملون .

ولأننى توقعت أن يكون فى صحبتهم مزايا لى ، فقد أعرب طلبهم لبعض الكرونات (٣) القليلة اذنا ودودة لكن الولد محمد حصل على ستة دولارات ، أما حامد فحصل على حوالى خمسة جنيهات لأننى كنت أنوى

(٣) الكرون Crown : خمسة شلنات - (المترجم) .

(*) غنى عن القول أن هذه خرافات ، وأن كلمة (فرعون) تعنى ملك - (المترجم) .

الاقامة بمنزله فى المدينة المنورة ، وحصل عمر أفندى على ثلاثة دولارات . وحصل سعد العملاق على دولارين - وقد أعطيتهم هذه النقود فى ينبع ، أما صالح شكار فقد أعطيته خمسين قرشا ، ولأن القاعدة فى هذه البلاد أن أحدا لا يرد ما اقترضه أو حتى استعاره ، فقد حرصت على الحصول على أكبر قدر من الخدمات من الأول (الولد محمد) وأن أحصل على معطفين ثمينين من الثانى (حامد) وشيشة جميلة من الثالث (عمر أفندى) وسيفا تركييا (يطغان) ويسمونه بسلا bala من الرابع (سعد العملاق) ، وشالا من الكشمير غير الأصلى (الحاكي) من الخامس (صالح شكار) . وبعد ذلك جلسنا واستمرت اتفاقاتنا . لقد كان مفيدا لى أن أعطيهم نقودا مصرية ، وأسأولهم على دفعها بعملة الحجاز ، فحققت بذلك ربحا وصل فى بعض الأحيان الى ستة عشر فى المائة . ولم أفعل ذلك بقصد الربح فى المقام الأول ، كما لم أفعله لأتقمص شخصية حاتم (الطائى) وإنما فعلته ترقبا ليوم الاقامة فى المدينة المنورة . فان رفاقى لما تلقوا منى هذه المبالغ البسيطة أصبحوا متعاطفين معى ولهجت السننهم بالثناء على ، وغمرنى بالطلبات والحوافى طلب هدايا من الحلوى ، وكأنهم اكتشفوا اننى رجل عظيم يخطر تحت السحاب ، وربما كانت ادعاءاتى بأننى درويش قد مهدت لهم هذا الاكتشاف ، فراحوا يعلنون أننى لا بد - بحكم المظروف - أن أكون ضيقهم فى مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) . وفى الأحوال كلها ، فرضوا على مكانة الصدرة . فكان رأى هو أول الآراء التى يناقشونها وما كانوا ليقرروا مشروعا دون موافقتى ، وباختصار فان عبد الله الدرويش (٤) قد وجد نفسه - فجأة - شخصا مهما . وقد أدت بى هذه المكانة السامية الى عمل أحمق ربما كلفنى كثيرا ، إذ أثار الشك الوحيد حولى والذى طالما عبروا عنه أثناء رحلة الصيف . فقد راح أصدقائى ينظرون الى ثيابى ويتفحصون صندوق الدواء الخاص بى بتركيز ، وانتقدوا مسدساتى ، وسخروا من ساعتى ذات الغطاء النحاسى (٥) ، وتذكروا أنهم رأوا بوصلة فى استانبول ، لذا فقد تخيلت أنهم لا يعرفون الا قليلا عن السدسية (٦) . وكان هذا خطأ منى فالولد محمد قد علم بعد ذلك بخبر ساعتى ، فانتظر حتى خرجت من

(٤) يقصد نفسه - (المترجم) .

(٥) المقصود السدسية التى سنورد عنها بعض الملاحظات فى حاشية تالية - (المترجم) .

(٦) السدسية أو ذات السدس أو الكوكبية الجنوبية هى آلة بصرية ذات مقياس مدرج على شكل قوس دائرية . طولها سدس محيط الدائرة ، وتستعمل السدسية لقياس الأبعاد . انظر معجم المصطلحات العلمين الذى الحقه يوسف خياط بطبعته للسان العرب - مادة سدسية . وعن صورة السدسية انظر معجم المصطلحات العلمية والفنية عداد أحمد الخطيب ، وعن الفرق بين السدسية وغيرها من الأجهزة اللازمة للرحالة انظر رحلة بلى للرياض . ترجمة د . عبد الرحمن الشيخ ود . عويضة الجهنى - (المترجم) .

المغرفة ليعلم أن الحاج المرتقب (٧) كان أحد الكفرة غى الهند ، وجلس القنصل (٨) لمناقشة هذا الأمر . ولحسن حظى أن عمر أفندى كان قد طالع خطابا كنت قد كتبتة للحاج والى هذا الصباح كما أننى كنت قد أجبت عمر أفندى فى اوقات مختلفة عن أسئلة معينة تدور حول التوحيد ، فوجد من واجبه بحكم وضعه أن يعلن أن ما ذكره محمد غير معقول . أما الشيخ حامد الذى كان يترقب أن يستضيفنى ويكون دليلى ومدينا لى عموما ، وربما كان قليل الاهتمام بالمأمرى بأمر العقيدة — فقد أقسم أن نور الاسلام يشع من محياى . ومن ثم فإن الولد محمد كان عائلة فقيرا ، وكان بومة ، وتعرض للمقاطعة ، وبدا غريبا وهابيا (المقصود غير سليم العقيدة) لطعنه فى عقيدة أخ فى الدين ، وانتهى المشهد بادانة عامة للشباب المتوقد ذهنه فقد قالوا له جميعا انه لا يستحق ، ولابد أن « يخاف الله » ، وكنت معجبا بالتعبيرات البادية على وجوه أصدقائى عندما رأوا السدسية ، فقررت متحسرا أن أتركها ، وبعدما ظللت مواظبا على أداء الصلوات الخمس قرابة أسبوع .

واتفقنا جميعا ألا نضيع ساعة واحدة وأن نعمل على تأمين أماكن لنا على ظهر بعض السفن المتجهة الى ينبع ، ولما سمع أصدقائى أن جواز سفرى كهندى بريطانى قد لا يحظى بالقبول نصحونى جادين أن أوقعه من مدير السويس (المحافظ) بلا تأخير ، وحذرونى من أننى اذا أظهرت التذكرة التركية التى حصلت عليها فى القاهرة من القلعة ، فإن السلطات ستجبرنى على انتظار القافلة ، وأفقد بالتالى مرافقتهم وصداقتهم . فالحجاج الذين يصلون لالاسكندرية يقسمون الى ثلاث مجموعات ، مجموعة تتخذ طريق السويس ، والأخرى طريق القصير ، والثالثة طريق الحج البرى حول خليج العقبة ، وبعد أن يكون هذا التقسيم لا تعير الحكومة الا اذن صماء لمزاعم الأفراد وطلباتهم ، فلدى بك السويس اوامر بتعطيل الحجاج بقدر ما يستطيع حتى نهاية الموسم مما يجعلهم يهرعون سالكين ذلك الطريق مخافة أن يفوتهم الوصول لمكة المكرمة فى الوقت المناسب . وذلك لأن معظم المسئولين المصريين الكبار يمتلكون قوارب تبحر فى نهر النيل محملة بالحجاج وتعود محملة بالقمح ، لذا فمن الطبيعى أن تبذل الحكومة قصارى جهدها لفرض التأخير والقلق على الغرباء الذين يسلكون هذا الطريق (البرى) ولأن أولئك الذين

(٧) المقصود بيرتون نفسه — (المترجم) .

(٨) تعبير ساخر ، والمقصود الولد محمد — (المترجم) .

يسلكون الطريق اليرى لابد أن ينفقوا أموالهم داخل الحدود المصرية - على الأقل لمدة خمسة عشر يوما ، أكثر من أولئك الذين سيتركبون السفن من السويس مباشرة ، فإن البك يسهل أمور حجاج البر ، ويضع العقبات أمام الذين سيستقلون سفنا من السويس . ولما علمت بهذه الحقائق عرفت أن المشاكل باتت وشيكة . فكانت الخطوة الأولى أن أخذ جواز سفر الشيخ نور النظامى وجوازى غير النظامى الى البك لتوقيعه ، فقلب الأوراق كما لو كان لا يستطيع قراءتها وأحالتها لكاتبه دلالة فقدان الأمل . ولما رأى الكاتب أن الوثيقة غير نظامية سألنى لم. لم أحصل على التأشيرة (الفيزا) فى القاهرة ، فأجبت أن ضغط الظروف هو الذى منعه وأن البك (فى القاهرة) لم يكن لديه ما يمنع من منحى التأشيرة (الفيزا) ولما حاولت إقناعه ، زادت غطرسته ، فخشيت أنه ربما كان من الضرورى أن أسافر عن طريق القصير ، والوقت لا يكفى لذلك الا بشق الأنفس ، أو أن أستقل جملا بنفسى الى ميناء الطور وأنتظر هناك حتى تلوح فرصة وجود موضع لى فى بعض السفن نصف المحملة - وهذا بطبيعة الحال يتوقف على الظروف . وكان أملى الأخير فى السويس هو الحصول على مساعدة السيد وست Mr. West مساعد القنصل البريطانى وقتها ، وأصبح قنصلا بعد ذلك . وعلى هذا فقد أخذت معى الولد محمد واخترتة لتحقيق هدف خاص ، واستأذنت زملائى فى اتخاذ الخطوة التالية ذاك الذى لفقت حكاية خرافية عن تبرعى للأمة البريطانية عندما كنت فى أفغانستان . واتخذنا طريقا للقنصلية . وكان أوغسطس برنال Augustus Bernal وهو شخص غير حكيم ، قد نبه نائب القنصل الى توقع مقابلتى له . فاكشف نائب القنصل تنكرى رغم رطانتى (تعمدى ألا أنطق الانجليزية بشكل سليم) ، وقرر أن يراعى الرسميات شيئا ما ، ولم يكن هناك أفضل من الاجراء الذى اتخذه ، فقد وجه كاتبه أن يتصل بمستخدم البك فاذا ما اعترض على توقيع تذكرة الاسكندرية ، فإن نائب القنصل يمكنه على مسؤوليته الخاصة أن يقدم لى جواز سفر جديدا - باعتبارى أحد المرعيا البريطانيين - به تأشيرة للمسافر من السويس الى شبه الجزيرة العربية . وفى اليوم التالى رجعت لى الوثيقة معتمدة . وسرنى هذا التعهد الذى تعهده السيد وست على نفسه وأثناء رحلاتى ، كنت غالبا ألقى منه رعاية حارة واهتماما ودودا . وبينما كانت مشاكل جواز السفر فى طريقها للزوال ، كان بقية جماعتنا مشغولين بأمور السفر وتحويلات النقود . وتتطلب الاجراءات الخاصة فى ميناء السويس بضع كلمات شارحة . « فمنذ خمس وثلاثين سنة (حوالى سنة ١٨١٨) اقترح أصحاب السفن على الحكومة القائمة وقتئذ - رغبة منهم فى تحميل سفنهم بحمولات كبيرة - وضع فرضة Fardah أو نظام (للدور) ، وكان من المفروض أن

الباشا سيرفرض اعتماد هذا الاجراء ، لأن هدفه كما هو معروف أن يحتفظ بكل الاحتكارات فى يديه . لكن حدث فى تلك الأيام أن كل أفراد حاشيته كانوا يمتلكون سفنا فى السويس ، فقد كان ابراهيم باشا بمفرده يمتلك اربع سفن أو خمسا . لذا فقد كان أفراد الحاشية يتوقعون أن يشاركوا التجار فى الأرباح ، وهذا يعرضهم عن نقص رسوم الميناء . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا سجلت كل السفن فى الميناء وصدرت الأوامر أن تبخر على التعاقب (بالدور) in rotation وقد ربح من هذا التنظيم صاحب السفينة فقد أعطاه فى المقابل احتكارا مؤقتا ، بالإضافة لكثرة الطلب ، وأتاح له فرصة التحميل الثقيل لدرجة أن أبسط اهتزاز غير محسوب يعرض السفينة للغرق مما يكلف شركات التأمين مبالغ طائلة . وفى المقابل فإن العامة كانوا هم الخاسرين دائما من نظام (الفرضة) وقد لا توافق بعض النقابات على مثل هذا الاجراء فى مكان آخر ، ولكن أهل السويس من المسلمين والنصارى على سواء مرتبطون معا برابط المودة والمحبة من خلال نظام (الفرضة) هذا . ان هذا النظام قد أضر بالتاجر الذى يتاجر مع أماكن مختلفة ، كما أضر بتاجر البحر الأحمر ، ليس فقط بسبب الارتفاع الدائم لتكاليف الشحن وانما أيضا لأن هذا النظام يسبب فى بعض فترات العام ركودا فى المبيعات وفى تصدير البضائع لسوق جدة الكبير . وفى هذه الأيام (نوفمبر ١٨٥٣) فإن السفينة التى جاء دورها (التى عليها الدور) قد تكون سفينة ضخمة وقد يكون هناك نقص فى البضائع المصدرة للحجاز ، ومن الطبيعى أن ينتظر مالكها أى فترة مهما طالت حتى يتم تحميلها تحميلا كاملا ، ونتج عن هذا أنه لم تبحر سفينة حاملة بضائع من ميناء السويس طوال الاثنتين والسبعين يوما الماضية . فالذين اشترى بضائع لتصريفها فى سوق جدة يدين يستحق بعد ثلاثة أشهر عليهم أن يواجهوا قبولهم لبضائع لازالت مخزونة فى الميناء المصرى . هذا التناقض الغريب لمبدأ حرية التجارة دليل آخر على أن حماية مكاسب جانب واحد (الجانب المحمى) فقط ، تلحق الضرر بمصالح الجانب الآخر (الجمهور) وبالإضافة للملاحظات السيد ليفك Levick هذه ، أضيف فقط أن الحكم يدعم نظام (الفرضة) بكل طاقة المستفيدين (المحميين) . وقد كان خطاب من السيد (حصل الآن على لقب سير) جون دراموند هاى Hay كافيا لدفع بك السويس على اختراق نظام الفرضة لمصالح أمراء معيذين من مراكش ، ولم تستطع توصيات لورد شستاتفورد لدى ريدكليف de Rodcliffe ولا تمنيات السيد وست الطيبة أن تمكننى من ركوب سفينة فى غير دورها . فكنا مضطرين للتعويل على جهدنا الشخصى ونشاط سعد العملاق وبراعته

فهو جدير بالثناء فيبعد تعويقات ومشاكل مختلفة - نتجت غالبا عن
اصراره على أن يسافر مجانا ، وأن ندفع نحن أجرة كبيرة - عقد اتفاقا مع
مع مالك السنبوك (السلك الذهبى) . لقد حجز لنا أماكن فى مؤخرة
السفينة ، وهو أكثر الأماكن ملاءمة لنا فى هذا الفصل من العام ، وقد
افترض أننا لن نكون مرتاحين تماما لأن الحجاج المغاربة سيزاحموننا ،
لكن « ربنا يسهل الأمور » . وقد دفعت لحجز مكانين لى تمانيه عشر
ريالا ، ولرافقى سبعة ريالات لكل واحد ، بينما استطاع سعد العملاق
- بشكل سرى - أن يدرج نفسه فى قائمة التجار المقتدرين . وكنا مضطرين
لترك محمد شقيلها لأنه لم يكن يستطيع - أو يريد - دفع الأجرة ، ولم
يكن أحد منا على استعداد لدفعها له . ولم أضن عليه بمبلغ بسيط على
سبيل الاحسان ، لأننى أعلم أنه الأكثر أمانة واخلاصا (لقد أسرتنى
رقته فى مكة المكرمة) .

لم يكن هناك ما هو أكثر ازعاجا من أيامنا وليالينا فى خان
جرجس . فجدران غرفنا المشققة كانت رطبة وقذرة ، وعوارض السقف
الخشبية لموثها الدخان وعشش فيها العنكبوت ، وتناثرت على الأرضية
الدلاء (جمع دلو) وأشياء أخرى فى فوضى مزعجة ، وكانت الجدران
سوداء عامرة بالصراصير والنمل والذباب . وعشش الحمام على
النتوءات الحجرية للنوافذ ، وراح يعزف الحان الغرام الحزينة طوال
اليوم ، أما القبط فكانت كالنمور ، وكانت تزحف للغرفة من خلال ثقب
فى الباب ، وجعل مواؤها الليل بشعا . وجاء دور العنزة المزعجة ،
والحمار الفضولى ليتسللا للغرفة فلاحظا أنها مستأجرة ، فرجعا بوقار ،
ويغنى البعوض أغنيات النصر فوق مضاجعنا طول أربع وعشرين ساعة .
وأعفى القارىء من تعداد البلاوى المصرية الأخرى التى ابتلى بها المكان .
وبعد أن خضنا تجربة اليوم الأول قررنا أن نقضى ساعات النهار فى
الممرات متمددين فوق صناديقنا أو فوق الأبسطه ندخن ونتشاحن ويفتش
كل واحد منا فى مقتنيات الآخر ، وكان هذا التصرف الأخير مادة خصبة
للنزاع ، فليس هناك ما هو أكثر انتشارا من أن يستولى الصديق على شيء
يخص الآخر ثم يقسم بلحية النبى أن هذا الشيء قد أعجبه ، ومن ثم
يستولى عليه ولا يعيده . وكان الولد محمد والشيخ نور قد ابتليا (عاذيا
من الإقامة سى الغرفة) فى اليوم الأول ، واختلفا فى الرأى فى اليوم
الثانى وفى اليوم الثالث اتيا ليُدفع كل منهما الآخر صوب الحائط . وفى
بعض الأحيان كنا نذهب للسوق ، وهو عبارة عن شارع ظليل تحف به
دكاكين صغيرة متواضعة ، أو نجلس فى المقهى نشرب ماء جار اعترته
ملوحة له لون الفول المحروق ، أو أن نصلى فى واحد من المساجد الثلاثة
الآيلة للسقوط ، أو أن نجلس على رصيف خليج السويس نتفجع لحاجتنا

الى الاستحمام ، فنستحم فى ماء البحر الفاتر . وانتهيت الى نتيجة مؤداها أن السويس كمنتجع أو مصح مائى Watering place ، أسوأ حتى من دوفر Dover . والجماعة الوحيدة التى وجدناها - غير الزائرين الموسميّين - كانت جماعة من النسوة المصريات يشغلن مع أزواجهن وأولادهن بعض الغرف المجاورة لغرفتنا . وفى بداية الأمر كن شرسات يستخدمن لغة فظة ، وغامرت أنا والولد محمد - منتهزين فرصة انشغال عمر أفندى بالصلاة ، وانشغال الآخرين بالتجول فى السويس - بالمشى ببطء فى الممر البارد حيث كن مجتمعات أو لتوجيه العبارات الطريفة لهن . لكنهن لما سمعن أننى حكيم باشى Hakim-bashi رقيت بسبب شهرتى الى رتبة طبيب عام - اكتشفن جميعا أنهن مصابات ببعض العلل ، فبدأن يطلبن منى بحدّر أن أظهر لهن تأثيرات دوائى بأن أتناوله شخصيا ، ولكنهن فى خاتمة المطاف ابتلعن - مذعنات - مركبات طبية ضد الغثيان ودوار البحر ، وأعقب ذلك نوع من الغنّج البدائى المكشوف وكانت أكثرهن جاذبية هى فطومة وهى سيدة سميّة تقارب الثلاثين ، شغوفة بالغزل الخفيف ، ولها لسان ذرب مهزار كأشد ما تكون الذراية والهزركسائر المصريّين . وكانت اللازمة التى تلازم حوارى معها هى « تزوجينى يا فطومة ٠٠ يا بنت يا فطومة ٠٠ يا حاجة » وعبثا حاولت فانها بحركة دلال من وسطها ، حركت رأسها للوراء بحركة مفاجئة فتحرك غطاء رأسها بدلال متقن وقالب : « أنا متزوجة يا شاب ! » - انه من المتفق عليه أنها - باعتبارها امرأة ذات نزعات طبيعية لتعدد الأزواج - يمكنها أن تدعم وزن ثلاثة ارتباطات زوجية - على الأقل . وفى بعض الأحيان يقطع دخول الفلاحين هذه المناقشات البسيطة ، لكن الناس (الشعوب) من الفئات المحترمة ، وأمتنا ، لا يجب أن ينخدعوا بمثل هؤلاء الأزواج . ففى حضورهم غيرنا - فقط - أسلوب الحديث - فسألنا عن المهر أو العفش (الأثاث) (عش الزوجية) ساخرين من رخص سعر المرأة فى مصر وطالبين أن نوّسس مستعمرة للعرائس بعشرة شلنات للراس (للواحدة) ، وفى الغالب الأعم فان فطومة - رغم سهولة انقيادها واعتدال مزاجها - ستضحك لوقاحتنا ، وتدخلنا فيما لا يعنينا . وفى بعض الأحيان كنا نستثير فطومة بتقليد لهجتها المصرية ومحاكاة إيماءاتها ، ونقلل من قيمة المصريات ، فيتعاضم غضبها وتأمّرنا بالذهاب بعيدا وترفع أصبعها السبابة دلالة على أنها تريد (تخزيق) عيوننا ، أو أن تدعو الله أن يقطع قلوبنا خارج صدورنا ، فأقول لها : « تزوجينى يا فطومة ٠٠ يا بنت يا فطومة ٠٠ يا حاجة ! » وقد يؤدى هذا الى أن أقول لها : (يا العجوز ، يا كركوبة يا بنت ستين أب ، أنت

لا تصلحين الا لحمل الحطب الى السوق) فتنفجر غضبا تصببه علينا ،
فنشب على أقدامنا كالأطفال مبتعدين وقد اتخذ كل منا طريق الآخر .
ولكن عندما نلتقابل مرة ثانية يكون كل ما فعلناه سابقا قد دخل حيز
النسيان ، فنعود ونكرر الحكاية القديمة . وكانت هذه هى تسليية النهار ،
وفى الليل نجلس نحن الرجال مجتمعين فى الشرفة الصغيرة نشرب
الشاي ، ونحكى الحكايات ونقرأ الكتب ونحدث عن أسفارنا ، ونخوض
فى أمور مختلفة تبعث على السرور . وكانت الفكاهة الكبيرة ان الولد
محمد قد سب كل رفاقه فى مواجهتهم باللغة الهندوستانية التى لم يكن أحد
يقدر على فهمها الا الشيخ نور وأنا ، الا أن الآخرين - على أية حال -
كانوا يظنون المعنى الذى يقصده ، وثأروا لأنفسهم بردود سريعة فظة
مقحمة بأسلوب حجازى خالص .

وأود أن أقدم مزيدا من المستخلصات القليلة عن السويس وأهل
السويس من خطاب السيد ليفيك Levick : « يظهر أن عدد الحجاج
الذين يمرون بالسويس فى طريقهم الى مكة المكرمة راح يتناقص باضطراد
مؤخرا . فلما أتيت الى السويس للمرة الأولى (١٨٣٨) كان عدد
الحجاج الذين يركبون السفن من السويس يتراوح بين ١٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠
وكانت السفن أكثر عددا ، وكان التجار أكثر عددا وأغنى . وقد تأكد لى
من خلال سجلات خاصة محفوظة فى الأرشيفات الحكومية أنه فى العام
الهجرى ١٢٧٩ (الموافق ١٨٥١/١٨٥٢ للميلاد) كان عدد الحجاج الذين
مروا بالسويس هو ٤٨٩٣ بالنضبط » .

« وفى سنة ١٢٦٩ للهجرة (١٨٥٢/١٨٥٣ للميلاد) تناقص العدد
الى ٣١٣٦ ، ويرجع أهل البلاد هذا التناقص لأسباب مختلفة ، وان كنت
أعزو هذا للتأثير غير المباشر للحضارة الغربية على القوى الاسلامية
المتصلة بها .

ان جحافل الحجاز غير المتجانسة تتكون من أناس من كل الطبقات ،
وكل الألوان ، يرتدون كل الأزياء . فالمرء لا يرى من بينهم أهل البلاد
المجاورة لمصر فحسب ، وانما يرى أيضا نسبة كبيرة من أهل وسط آسيا ؟
من بخارا وفارس وبلاد الجراكسة وتركيا والقرم ، وهم يفضلون هذا
الطريق (طريق السويس) عن طريق استانبول ، نظرا للصعاب
والأخطار التى تعترض قوافل الحج البرية من دمشق وبغداد ، وارتفاع
تكاليفها . ويأتينا (أى الى السويس) من الغرب الحجاج المراكشيون
والجزائريون والتونسيون ، وحجاج أعماق أفريقيا من التكارته

(التكروريين) السود ، وآخرون من بورنو والسودان وغدامس .
Ghadamah بالمقرب من النيجر ، والجبرت من الحبشة » .

« وبناء السفن فى السويس جماعة ذات نفوذ وتأثير ، وهم فى الأصل كانديون Candiot وسكندريون . وعندما جهز محمد على أسطوله لخوض حرب الحجاز نقل عددا من اليونانيين الى السويس . ويمارس الأبناء الآن حرفة آبائهم (بناء السفن) ويوجد الآن فى السويس ثلاثة كبار من بناء السفن . والصعوبة الرئيسية التى يواجهونها هى نقص المواد اللازمة لصناعتهم . فخشب الساج يرد من الهند عن طريق جدة ، والألواح الخشبية البندقية أغلى هنا بنسبة ١٠٠٪ عنها فى الاسكندرية بسبب ارتفاع نقلها على الجمال . وتمد تريست Trieste وتركيا ، السويس بالصواري القائمة (الساريات) ، وتمدها جدة بأقمشة الأشرعة ، وصناع السفن رجال من السويس ، أما أطقم البحارة فخليط من العرب والمصريين ، والريس (أو القبطان) فمن ينبع ان كانت السفينة كبيرة ، أما ان كانت عادية فقد يكون عربيا أو مصريا . ويوجد نوعان من السفن يتم التمييز بينهما وفقا للحمولة لا طريقة البناء . النوع الأول يسمى (البغلة) وتحمل أكثر من خمسين طنا ، والنوع الثانى (السنبوك) وحمولته من خمسة عشر طنا الى خمسين طنا . ويرشو مالك السفينة امير البحر ، وناظر السفين ليحمل سفينته أكبر حمولة ممكنة ، فاذا ما دفع الثمن (الرشوة) سمح له بالتحميل باعتبار الطن يساوى تسعة ارادب - ويصل عدد السفن التابعة لميناء السويس ٩٢ سفينة ، وتتراوح حمولتها بين ٢٥ و ٢٥٠ طنا وكان عدد السفن المغادرة فى العام الهجرى ١٢٦٩ (١٨٥٢/١٨٥٣ للميلاد) ٣٨ لأن كل سفينة تعود من رحلتها تخرج من الخدمة الفعلية لمدة تبلغ حوالى عامين ، وفى الفترة التى يمر خلالها الحجيح بالسويس - يقال ان هذه الفترة تستمر أربعة أشهر - يبلغ عدد السفن المغادرة سفينتين فى الأسبوع ، وفى الشهور الباقية من العام يتراوح عدد السفن المغادرة فى الفترة كلها ما بين ست سفن وعشر سفن . والتجارة فى رحلة العودة للوطن تشحن - بشكل رئيسى - فى سفن جدة ، اذ يسمح لهذه السفن لحمل بضائع للسويس ، ولكن لا يشحنون شحنات من السويس فى المقابل ، اذ يجب ألا يتدخلوا فى نظام الدور (نظام التناوب أو الفرضة المشار اليه آنفا) ولا أن يحققوا أرباحا من خلاله » .

« وخلال العام الحالى كانت الواردات تشتمل على ٤١٣٩٥ طردا ، بينما بلغت الصادرات ١٥٩٨٨ . ويزداد الدخل الى حد ما نتيجة

رجحان كفة الواردات • ففى كل عام يخرج من مصر مبلغ يتراوح بين ٣٠.٠٠٠ و ٤٠.٠٠٠ من الكرونات أو دولارات ماريا تريزا الى شبه الجزيرة العربية والحبيشة وأنحاء أفريقية أخرى • وأنا أقدر قيمة الواردات بحوالى ٣٥٠.٠٠٠ جنيه استرلينى ، وتجارة الصادرات الى جدة بحوالى ٣٠٠.٠٠٠ جنيه استرلينى سنويا • وتتكون الواردات بشكل اساسى من البن والصمغ العربى ، ١٧٤٦٠ بالة (جوال) بن و ١٥١٣٢ بالة (جوال) صمغ عربى ، والقيمة الاجمالية لكل سلعة تتراوح بين ٧٥.٠٠٠ و ٨٠.٠٠٠ جنيه استرلينى ، واجمالى سعر السلعتين هو ١٦٠.٠٠٠ جنيه استرلينى • وفى العام الماضى كانت الواردات تشتمل على ٢٦.٨٤٥ طردا والصادرات ١٣.٤٩٨ طردا ، من بين البضائع الرئيسية فيها البن والصمغ العربى : ١٥٤٩٩ بالة بن و ١٤١٢٩ بالة صمغ عربى ، وكان سعر الباللة الواحدة حوالى خمسة جنيهات استرلينية • ويأتى فى المقام الثانى من حيث الأهمية الشمع الوارد من اليمن والحجاز ، وعرق اللؤلؤ من البحر الأحمر ويتم ارساله لانجلترا خاما كما هو ، والفلفل من الملابار ، والقرنفل الذى يجلبه الحجاج المسلمون من جاوة وبورنيو وسنغافورة ، وأنابيب المشيش (جمع شيشة) العجمية من خشب الكرز من بلاد فارس و Bussora والتمباك العجمى أو المجلوب من سورات Surat وأقدر قيمة هذه البضائع بمبلغ ٢٠.٠٠٠ جنيه استرلينى سنويا • وكان هناك أيضا (سنة ١٨٥٣) ٧٠٨ بالات قرنفل و ٩٤٨ بالة فلفل مالابارى قد يبلغ ثمنها (القرنفل والفلفل) حوالى ٧٠٠٠ جنيه استرلينى • ومواد التصدير ذات القيمة المحدودة هى - وهى فى معظمها بهارات (زنجبيل ، وحب الهيل ٠٠٠ الخ) ، وعطور شرقية كخشب الصبر ، وعطر الورد ، وعطر القرنفل وغيرها ، والتمر هندی من الهند واليمن ، وقصدير البنكا Bancatin والجلود المدبوغة التى يعدها البدو ، وأوراق السنن من اليمن والحجاز ، و (الملايات اللف) الخاصة بالنساء من قطن عليه مربعات زرقاء ، مصنوعة فى جنوب شبه الجزيرة العربية • واجمالى هذه الواردات المتنافرة قد يصل الى ٢٠.٠٠٠ جنيه استرلينى سنويا » •

أما الصادرات فتتكون بشكل اساسى من الأدوات المنزلية والشيلان الكشميرية (*) ، وأغطية الرأس ، والموسلين (القماش الموصل منسوب تاريخيا للموصل بالعراق ، ولا علاقة له بالعراق

(*) ذكر الكاتب من بين الصادرات هنا bleached Madiplams ولم نعرده المقصود منها - (المترجم) •

الآن) الذى يستخدم فى لف المعائم ، والباقي : دهانات مذسستر والكحل والصابون المشامى وحلقات الحديد ، والأدوات المعدنية والخزف البندقي أو التريستى (من تريست) ويستخدم فى الزينة فى شبه الجزيرة العربية والحبيشة وأوراق الكتابة ، والطرابيش والصنادل والأخفاف (جمع خف) وغيرها من أنواع الثياب وأدوات الزينة » .

ومتوسط درجة الحرارة السنوى فى السويس حوالى ٥٦٧ .
فهرنهايت . ويمثل شهرا يناير وأغسطس طرفى النقيض من حيث الحرارة والبرودة ، فخلال شهر يناير تتراوح درجة الحرارة بين ٥٣٨ كحد الأدنى و ٥٦٨ كحد أقصى ، وخلال شهر أغسطس تتراوح درجة الحرارة بين ٥٦٨ و ١٠٢ ° بل وتصل الى ١٠٤ ° فيكون الحر ظالما لا يطاق .
ونادرا ما يكون هناك مغادرون خلال هذين الشهرين ولا أنكر أننى رأيت الترمومتر يرتفع فوق درجة ١٠٨ فهرنهايت خلال فترة رياح الخماسين القاسية ، كما لا أنكر أنه هبط عن ٥٣٤ حتى عند هبوب أشد الرياح برودة . وتهب العواصف الهوجاء من الجنوب فى شهر مارس . أما المطر فمتغير تغيرا شديدا ، ففي بعض الأحيان تمر ثلاث سنوات دون نزول وابل من المطر ، بينما فى سنة ١٨٤١ استمرت السيول لتسعة أيام متتالية وأغرقت المدينة (السويس) وهدمت منازل كثيرة » .

« وسكان السويس يبلغ عددهم الآن حوالى ٤٨٠٠ وليس هناك احصاء رسمى كما هو معتاد فى بلاد العالم الاسلامى . ومن هنا ، فإن البعض يقدر عددهم بحوالى ٦٠٠٠ . ومنذ ستين عاما كان من المفترض أنهم أقل من ٣٠٠٠ ، الا أنهم ازدادوا بعد ذلك بسرعة حتى سنة ١٨٥٠ عندما اجتاحتهم وباء الكوليرا فأقصهم الى حوالى نصف عددهم الآن ذكره . وتبلغ نسبة الوفيات حوالى اثنى عشر شهريا . والأمراض المتوطنة هى حمى التيفود وأنواع من الحمى المتقطعة (الراجعة) فى الربيع ، وعندما تهب الرياح الشمالية القوية التى تتسبب فى انحسار مياه الخليج تتخلف مستنقعات تتصاعد منها الروائح النتنة . وفى شهرى أكتوبر ونوفمبر تهاجم الحمى السكان مهاجمة عنيفة ، وكذلك الرمد ، وإن كانت أمراض العيون أقل شيوعا هنا منها فى القاهرة ، وإن كانت أعراضها هنا أكثر حدة . وفى بعض الأحيان كانت أمراض العيون من الأمراض المتوطنة بضرارة بحيث كانت تنتهى اما بالمعمى الكامل أو الاعتساف الجزئى للقرنية مما يؤدى الى ضعف دائم فى العينين . وفى شهر واحد فقد ثلاثة من معارفى ابصارهم . ومرض الدوسنتاريا أيضا من الأمراض المنتشرة ، وكذلك الدمامل البشعة ، والقرحة . وفصل الشتاء

فصل طيب ففيه يقوم هواء الصحراء النقي بدور المنعش ، ويجلب معه
الدفء » .

« وأسوار السويس وبواباتها ودفاعاتها فى حالة يرثى لها فلم تعد تصلح حتى لمنع بدو سيناء من الدخول اليها . ويبلغ عدد منازلها حوالى ٥٠٠ ، وان كان سكان كثيرون من أهلها يفضلون شغل الطوايق العلوية فى الوكالات ، وغرف الطوايق الأرضية تستخدم كمخازن لبضائع معينة كالأخشاب والتمور والقطن وما الى ذلك . ويعيش أهل السويس معيشة رغدة فأسواقهم عامرة باللحوم والزبد المجلوب من سيناء والطيور والذرة والخضروات الآتية من مديرية الشرقية ، والفاكهة الآتية من القاهرة والشرقية ، والقمح الذى يأتى الى القاهرة عن طريق النيل يحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء الى السويس . واذا ما أشرقت الشمس تناول أهل السويس افطارهم الذى يتكون فى فصل الصيف من فطيرة ، أما فى الشتاء فوجبة الافطار أكثر أهمية وهى طبق من الكشرى (عدس وأرز وسمن وبصل مقطع مسوى على نار هادئة أو ليمون مخلى) . وفى هذا الفصل يسعدهم كثيرا تناول الفول المدمس ويضعون عليه كثيرا من الزيت الحار (زيت بذرة الكتان) ويغمسون لقم الخبز فيه . والفول يعتبر - بما يولده من كربون - وجبة غذائية عالية القيمة واذا استطاعت المعدة هضمه - فهم يدمسونه بقرشه ولا ينزعون القشر أبدا - فانه يعطى آكله قوة عظيمة . وحوالى منتصف النهار يأتى ميعاد الغداء ، وهو وجبة خفيفة من خبز القمح مع التمرور والبصل أو المجبن ، وفى موسم الصيف يفضلون على الغداء بطيخا وفاكهة مبردة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يتعرضون للشمس . أما وجبة العشاء فبعد غروب الشمس بحوالى نصف ساعة ، ويتناول الجميع - خلا أشد الناس فقرا - فى هذه الوجبة اللحوم ، وأفضل أنواع اللحوم عندهم - كما هو الحال فى هذا الجزء من العالم - هو الضأن (لحوم الخراف) ولا يفضلون كثيرا لحوم الأبقار والماعز . وأهل السويس أكثر رقة وتحرا من القاهريين فأهل السويس لهم مظهر يجعلهم أقرب للعرب ، فملابسهم أكثر جمالا وتميزا وعيونهم مكحلة بعناية ، ويلبسون فى أقدامهم الصنادل والأخفاف (جمع خف) . وهم بكل المقاييس مشاغبيون متمردون ومتعصبون شيئا ما ، شغوفون بالعراك ومدمنون للمباهاة واصدار التصريحات الى حد ما . (يقصد الهتافات) فالبرنامج العام للواحد من هذه الفئة الأخيرة (مدمنة الهتافات) يختلف من شخص لآخر كالتالى : يرسل الآباء أولادهم أولا ، فيتجمعون بغير نظام ، ويأمرونهم بالهتاف « طال عمر السلطان » أو « عاش السلطان » ويعقبون هذا بهتاف آخر هو « الموت للكفرة » وقد يثير هذا القول

« المكفرة » فيضطر مدير السويس للأمر بسجن صبي أو صبيين من الهاتفين ، أو يأمر الشرطة بضربهم بالخيزرانة . لذلك فإن بعض الأثرياء أو علماء الدين ذوي الشهرة يشكون علنا من أن الدول الأوربية أصبحت الآن هي « الكل فى الكل all in all » « وأن الاسلام يبدو واهنا ضعيفا فى هذه الأيام السود . وفى هذه المناسبة فإن المتحدث قد يضع نفسه موضع المفسر كأن يقول ان المدير مضطر لحبسه (أو حجزه) مما يزيد من سخط العامة . وتعتقد اجتماعات سرية من المفترض أن لزعماء الطوائف والجماعات ، دورا بارزا فيها . فإذا ما تم اخماد الاضطرابات بهدوء عن طريق مثيئريها ، تم الافراج عن المتآمرين . انهم سيشربون كثيرا ليصبحوا أسودا بالليل ، أرانب قبل ظهر اليوم التالى . لكن اذا كان المقصود الحاق الضرر والأذى ، سادت حالة تراق فيها الدماء وعندئذ لا شيء يمكن أن يوقف الاضطرابات العامة ، فالمصرى رغم نكاته وروحه المرحّة ولامبالاته ، مشهور بالعناد عند استثارته أو على حد التعبير المصرى الشعبى « اذا قار دمه أو اذا فور أحد دمه » (٩) . والحقيقة أن هذه هي الميزة الرئيسية فى المصرى كجندى . ولدى المصرى وابلا من الرصاص ، صائبا ، كما لو كان فوجا فى شوبام المصرى وابلا من الرصاص ، صائبا ، كما لو كان فوجا فى شوبام Chobham لكن المصرى يفشل فشلا ذريعا اذا تطلب الأمر استخدام رأسه لا يديه . فسبب تفوقه فى الميدان ، هو عناده الذى يتميز به ، بالإضافة الى قدرته على الاستيعاب ، وقدرته على العطاء وتحمل مشاق السير فى طواوير ، وهى صفات تجعله مرهوبا من الأتراك غزاته الأقدمين (١٠) .

(٩) اتخذت الحكومة اجراءات لمنع سفك الدماء فى المدن بنزع سلاح أهل البلاد .
(موجز تعليق بيرتون) .

(١٠) موجز تعليق الطبعة الثالثة (١٨٧٣) لقد زرت السويس مرة أخرى فى سبتمبر ١٨٦٩ ووجدتها تغيرت لما هو أفضل ، وزاد عدد سكانها من ٦٠٠٠ الى ٢٠.٠٠٠ . وقد أعطتني محطة السكك الحديدية والمستشفى البريطانى الجديد والكازينو اليونانى الصاخب والمحات الأوربية والبواخر - أعطتني روحا روائية » .

موجز تعليق الطبعة الرابعة (١٨٧٩) : « لقد زرت السويس مرة أخرى ١٨٧٧ - ١٨٧٨ ووجدت السويس القديمة قد انتهت بعد حفر القناة ، والحق أن هناك (سويس) جديدة » .
انظر .

The Gold Mines of Midian by R. Burton.

الفصل العاشر

سفينة الحج

الوداع والفوضى - البك يفحص جوازات السفر - الحجاج المغاربة -
البقيشيش - النظرة للحجاج الفرس - معركة على السفينة - عيون موسى -
حمامات قرعون - اذان الشيعة - التوسل بالأولياء - أبو زليمة الولي حامى
البحار - سكان الطور .

مرسى السفن الكبيرة ، يبعد ثلاثة أميال أو أربعة عن رصيف
السويس الممتد فى البحر ، لذلك فمن الضروري أن تصل اليه بواسطة
مركب صغير أو زورق من زوارق الساحل .

لقد كانت ساعة مغادرتنا مفعمة بالأحداث ، كما كانت الفوضى
ضاربة أطنابها . فلتتصور أننا متجمعون على الساحل فى صباح يوم
قائظ من أيام شهر يوليو ، نراقب بحذر بالغ أمتعتنا وبضائعنا التى حُزمت
فى عجلة ، وقد أحاط بها رهط من المتشردين الذين لا يأنفون من نشل
كل شاردة وواردة ، بينما الحجاج يندفعون بجنون واضح ، والأصدقاء
يبكون ، والمعارف يضجون مودعين ، وأصحاب القوارب يطلبون الأجرة ،
وأصحاب الدكاكين يدعون ديونا لهم ، والنسوة تولولن ، وتتحدثن بطريقة
تنم عن طاقة لا ينفد معينها ، والأطفال يصيحون . باختصار ، فقد كذا
طوال ساعة أو نحوها فى وسط زخم بشرى عارم . وقد أبعد أصحاب
الزوارق زوارقهم ست ياردات عن الشاطئ ، تجنباً للفوضى والزحام مخافة
أن يستطيع الواحد من العتالين (الحمالين) تحصيل ما يزيد عن ضعف
أجرته من الحجاج . ومرة أخرى صدرت عن نسوة تركيات أصوات
شنيعة ، وهن يصرخن ، والأطفال يصرخون لأن أمهاتهم تصرخن ، والرجال
يويخ بعضهم بعضهم الآخر ، ويقسمون ، ففى مثل هذا الجو من المستبعد
أن يلزم أحد جانب الصمت . وقد وجد كل واحد منا بعد أن ركب الزورق
أنه فقد شيئاً ذا أهمية حيوية : غليون أو طفل أو صندوق أو بطيخة ، ومن
الطبيعى أن كل الخدم كانوا فى الأسواق فى الوقت الذى كان يجب أن

يكونوا فى القارب • وباختصار ، فرغم غضب البحارة الشديد ، خوفاً من أن نتأخر كثيراً عن الرحلة الثانية ، فقد وقفنا لبعض الوقت على الشاطئ قبل أن نخادر الميناء •

وتم دفعنا من الشاطئ الى رصيف صغير ممتد ، حيث جلس البك the Bey شخصياً ليفحص - للمرة الأخيرة - جوازات سفرنا • وقد ضبط أفراداً عديدين لا يحملون معهم الوثائق الضرورية ، فضرب بعضهم بالفلكة على أقدامهم ، وأجبر آخرين - بشكل حاسم - على العودة الى القاهرة ، أما الباقيون فقد سمح لهم بإكمال رحلتهم • وفى حوالى الساعة العاشرة ، فى السادس من شهر يوليو نشرنا الشراع واجتئزنا بتمهل قناة تؤدى الى مرسى السفن (المكلا) • وفى طريقنا ركب معنا بعض المغاربة • وقد ازدحم القارب بهؤلاء المتوحشين الذين أحاطوا بنا من كل جانب ، فقد انهمر منهم فى سفينتنا زهاء العشرين ، قبل أن نتخذ الاحتياطات الدفاعية • لقد حملوا معهم أشياء كثيرة • وبدوا مستبدين وسخروا منا ، كما بدوا مستعدين تماماً للدخول فى عراك • وقد حدث أن همهم صبيى الهندى بكلمة (بربر) فنجا من ضربة بجريدة نخل هوت غير بعيدة عنه ، وكانت ضربة شديدة كافية لاسقاط يعير • لقد فاقونا عدداً ، وكانوا مسلحين ، وقد كنا مضطرين فى بعض الأحيان لإبداء شئ من التصدى لغرورهم •

وكانت سفينة الحج التى ركبناها تسمى سلك الذهب وهى سنڤوك (١) حمولة ٤٠٠ أردب (خمسين طناً) تقريباً • وله - أى السنڤوك - انحناءات اسفينية ضيقة ، وعلى جانبيه خطوط ماء (٢) ، وله عارضة حادة ممتدة على طول قعره ، وليس له سطح علوى الا فوق المؤخرة فهو مرتفع بما فيه الكفاية ليقوم بدور الشراع فى مواجهة الريح العاتية • ولهذه السفينة صاريان ، يكادان يميلان نحو مقدم السفينة ، والصارى الرئيسى أكبر بكثير من الصارى المزيّن mizzen (٣) فبالنسبة لسفينتنا هذه نجد

(١) السنڤوك (والجمع سنابيك) يفتح السين ، وأصلها غير عربى ، لكن العرب يعرفون هذا النوع من السفن بهذا الاسم • تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى تأليف سيف مرزوق الشمالان • ج ١ ص ٢٧١ • ويلاحظ أن بعض المؤلفين يكتبها بالميم وهو خطأ • انظر الصور - (المترجم) •

(٢) خطوط الماء water line ، هو خطوط على جانبي السفينة لقياس الجزء الغاطس فى الماء وهى فارغة أو وهى محملة - (المترجم) •

(٣) وهو الصارى الأقرب الى مؤخرة السفينة - (المترجم) •

أن صاريها الأقرب للمؤخرة مزود بمثلث خشبي ضخم ، أما الشراع الثاني فلا وجود له ، وليس هناك تبرير معقول لذلك • وليس في هذه السفينة وسائل لثنى الشراع ، وليس بها بوصلة ولا جهاز لقياس سرعتها ، ولا حبال أو أسلاك لسير غور الأعماق ، ولا حبال احتياطية ، ولا حتى ما يشبه الخريطة • وهذه السفينة بقمرتها (كابينتها) الشبيهة بالصندوق ، ومخزنها المضلع ، تجعل الانسان يحس بعلاقة قوية بين طرازها (أى طراز هذه السفينة) والسفن الهندية المعروفة باسم التونى Toni (٤) أو الزورق الشجرى (٥) •

وربما كانت سفينة من هذا النوع هى التى حملت سيزوستريس Sesostris (٦) القديم عبر البحر الأحمر الى دير Deir ومثلها أيضا السفن الطوافة التى كانت تغادر مرة كل ثلاث سنوات - ميناء ازيون جبر Ezion-Geber قاصدة طرشيش Tarshish وقد احتاج اليوس جاليوس Aelius Gallus لمائة وثلاثين منها لتنقله مع رجاله العشرة آلاف • وقد كانت كلمة بقشيش Bakhshish هى آخر كلمة بغیضة سمعتها فى مصر ، كما كانت أيضا أول كلمة بغیضة سمعتها فيها • فمالك قارب الشاطئ لم يكن يسمح لنا أن نصل الى سفينتنا قبل أن ندفع له أجرته ، وبعد أن دفعنا له أجره طالينا بالبقشيش • آه لو أن الشرقيين حذوا - فقط - حذو الأوربيين لتخلصنا سريعا من هذا الازعاج ، فأنا لم أر أبدا انجليزيا يدفع بقشيشا لشخص ما • لكن فى هذه المناسبة استجاب كل رفاقى لطلب البقشيش ، وفى أوقات أخرى يرّم هذه

(٤) التونى Toni أو الكانو (الجمع كانوات Crnoe) الهندى هو جذع

شجرة جوف ليكون سفينة - خاصة من جذوع أشجار المانجو القريبة من بمباى ، وقد تطورت هذه الوسيلة البدائية فى الابطار فصنعوا سفنا أكثر تطورا هى الكاتاماران وهذا النوع الأخير متوفر فى مدراس وعدن • (موجز تعليق بيرتون)

Catamaran وهذا النوع الأخير متوفر فى مدراس وعدن • (موجز تعليق بيرتون) •

(٥) الزورق الشجرى adugout هو زورق يصنع بتجويف جذع شجرة • عن معجم المورد - (المترجم) •

(٦) المقصود سنوسرت الثالث الذى أسماه اليونانيون سيزوستريس ، وقد أمر بحفر قناة فى شرق الدلتا تصل بين النيل وخليج السويس • والمشهور أن حتشبسوت هى التى أرسلت أسطولا من خمس سفن كبيرة الى بلاد (بنت) وصورت رحلتها وكتبت أخبارها على جدران معبدها بالدير البحرى ولم تكن حتشبسوت وحدها هى التى أرسلت بعثات تجارية الى بلاد (بنت) •

محمد جمال الدين مختار وآخرون : مصر وحضارات العالم القديم (وزارة التربية)
ص ٦٦ - ٦٧ •

الانسان أن يطلب منه دون غيره دفع البقشيش . وقد أبدت النظرة الأولى على سفينتنا من الداخل ما لا يبعث على الأمل : فعلى مراد مالك السفينة الطماع ، كان قد وعد بأن يصطحب معه ستين مسافرا ، الا أنه زاد العدد الى سبع وتسعين . وقد ازدحمت السفينة بأكوام الصناديق والأمتعة من مقدمتها الى مؤخرتها ، وكان سيل الحجاج الذين أقحموا اقحاما على جانبي السفينة كالنمل فى سكريات (أوانى السكر) بشرق الهند ، وحتى مؤخرة السفينة حيث اتخذنا أماكنا ، كانت مغطاة بالبضائع والأمتعة ، كما أن عددا من الحجاج قد فرضوا أنفسهم فى هذا المكان بالعنف لا بالحق .

وقد ظهر سعد Saad ذو القوة والبراعة ، كبهار ماهر قدير وحقق ظهوره رضانا ، فقد نظر بسخط الى صندوقين كبيرين ممثلين بالبضائع الثمينة واستعد هذا الشخص المتلىء حيوية لاتخاذ اجراء ، وبمعونة مجموعتنا الصغيرة أخلى مؤخرة السفينة من الطفيليين وأمتعتهم بدفعها أو القائها ببساطة فى قاع السفينة . عندئذ استقر بنا المقام مرتاحين كما كنا نود ، وكنا ثلاثة سوريين ورجلا تركيا يصطحب زوجته وأولاده ، وريس (قبطان) السفينة ومعه جانب من طاقمها وخدمنا السبعة ، وبذلك كنا ثمانية عشر انسانا مكديسين فى مساحة لا تزيد عن عشرة أقدام فى ثمانية أقدام أما القمرة (الكابينة) - وكانت صندوقا بأثسا فى مساحة مؤخرة السفينة ، وترتفع ثلاثة أقدام - فمعدة على شاكلة المخازن فى سفينة نقل العبيد ، وكان بها خمسة عشر شخصا بأثسا من أطفال ونساء ، أما بقية السبعة والتسعين راكبا فقد تناثروا على الأمتعة أو على جانبي السفينة . وبسبب بعض الخيرة التى حصلتها فى مثل هذه المواقف - بالإضافة لمخالفة الحظ لى - وجدت قاعدة كهئية السرير معلقة بجنب السفينة ، فمنحت صاحبها - وهو بحار - دولارا ، وكان هذا البحار قد وطن نفسه باعتبارها ملكه ، لينام عليها ، وسرعان ما جعلتها مناسبة لى مفضلا لى مشقة خارج السفينة عن الزحام الشبيه بزحام السريدين المقلب فى داخل السفينة - فبقائى داخل السفينة كان قطعة من العذاب .

لقد كان منظر رفاقنا المغاربة يدعو للسخرية فهم كحيوانات الصحراء القرية من طرابلس وتونس ، انهم همج للغاية ، فمنذ أسابيع قليلة كانوا يحملقون فى المركب الصغيرة ذات مجاديف (كوكبوت) (٧) ويعجبون

(٧) ينطقها عرب الخليج جالبوت ، والجمع جوالبيت ، وربما كان الأصل جالاب وهو نوع من السفن القديمة . عن : سيف مرزوق الشملان : تاريخ الغوص عن اللؤلؤ . ص ٢٧١ - انظر الصورة - (المترجم) .

كيف كبرت (أصبحت كبيرة) وأصبحت سفينة أوصلتهم إلى الاسكندرية .
وكان معظمهم شبابا أقوياء ، ذوى رءوس مستديرة ، وأكتاف عريضة كما
كانوا طوال القامة غلاظ الشفاه ، كما كانوا ذوى عيون عابسة ، أما
أصواتهم فكزثير غير منقطع . وكانت طريقة تصرفهم قجة ، كما كانت
وجوههم مليئة بكل معانى الغطرسة . وكان من بينهم قليل من الرجال
كبار السن تعبر وجوههم عن الغلظة والضراوة ، وكانت النسوة على
الشاكلة نفسها من القسوة والضراوة ولا يقللن رغبة فى المعراك
والاقتتال عن الرجال أما الصبية الظرفاء ذوى الأصوات الحادة الصاخبة
فكانت أيديهم دائما على خناجرهم . لقد كانت النسوة ترتدين أسما لا بيضاء
قذرة ، أما الرجال فقد ارتدى الواحد منهم « برنس Burnus »
- والبرانس معاطف صوفية بنية أو مخططة ، تتصل بها قلنسوات .
وهم - أى الرجال - لا يضعون على رءوسهم العمام أو الطرايش ،
فهم يثقون فى قدرة شعورهم الجعدة والكثيفة وسماكة جلود رءوسهم
على حمايتهم من أضرار الشمس ، ولم أر واحدا منهم يندخل بخف
أو حذاء . وعلى أية حال ، فقد كانوا جميعا مسلحين ، ولحسن حظنا
فإن سلاح الواحد منهم لا يزيد عن كونه خنجرًا للقطع والطعن يبلغ طوله
عشر بوصات ، ويسافر هؤلاء المغاربة فى جماعات (قطعان) ، كل جماعة
تحت امر قائد يطلقون عليه لقبًا مؤقتًا هو (٨) (المولى) وهى كلمة تعنى
الرئيس . وغالبا ما يكون المولى قد أدى الحج مرة أو مرتين وحصل
قدرا من المعلومات السطحية التى تضمن له احترام جماعته ، وازدراء
عميقا من مطوفى ومزورى (٩) مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) .
وليس من بشر يتحملون المشاق فى سبيل الحج أكثر مما يتحمله هؤلاء
الأفارقة الذين يعتمدون تماما - فى الغالب - على الصدقات وما تتيحه
العناية الالهية لهم . لذا فليس أمرا مستغربا أن يسرقوا إذا أتحت لهم
الفرصة . وقد حدثت عدة حوادث سرقة فى سفينتنا (سلك الذهب) ،
ولأن مثل هؤلاء السراق غالبا ما يبدون مقاومة عنيفة ، فربما يتهمون
- بحق - بارتكاب بعض حوادث القتل وهم فى حالة هياج .

(٨) أى طالما كان رئيسا لاحدى الفرق أو الجماعات المسافرة ، فإذا انتهى السفر لم
يعد (مولى) - (المترجم) .

(٩) المطوف هو الذى يدل الحجاج على كيفية الطواف حول الكعبة وغير ذلك من
مناسك الحج والعمرة . والمزور هو الذى يرشد الحجاج وغيرهم على كيفية زيارة قبر
الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من المزارات فى المدينة المنورة . عن بوركهارت :
رحلات فى شبه جزيرة العرب - (المترجم) .

وأول ما يتعين على الانسان عمله بعد أن يحصل على مكان يقف فيه هو أن يكافح من أجل مزيد من الراحة ، فحتى سفينة الهوليهد **Holy head** التى كانت تنقل البريد والبضائع والركاب فى الأزمنة القديمة تعد أفضل حالا ، والعراك والمشاكسة فيها أقل من سفينة الحج هذه .

لقد اختلط عدد قليل من الأتراك وبعض الرجال كبار السن من الأناضول والقرم بالمغاربة فشرع الفريق الأول (الترك والأناضوليين وأهل القرم) نى العراك بدفع جيرانهم المتوحشين (المغاربة) بمراقهم وتعنيهم ، فقام المغاربة بزعامة قائدهم المولى على (وهو همجى تماما - واكتشفت ان هناك شبها يدعو للضحك بينه وبين الراحل شارلز ديلافوس Delafosse ناظر المدرسة العجوز الذى نذكره جيدا) بالرد على ضرباتهم وتوبيخهم بقسوة شديدة ، فما هى الا دقائق قليلة الا واختلط الحابل بالنابل فلم تعد تر الا أجسادا بشرية متلاحمة يصعب التمييز بينها ، فهذا يخترق الجموع ، وذلك يدفع بعنف ، وثالث يخمش وجه آخر ، ورابع يعض ، وخامس ينطح أى يضرب بالرأس (يعطى لخصمه روسية) وسادس يطا خصمه بقدميه ، وتعالى صيحات الغضب والغیظ ، وكل أمر بغیض مصاحب للمعارك .

وقد قام واحد من جماعتنا عند مؤخرة السفينة - وهو سورى غير حذر الى حد ما - بالوثب لمساعدة أحد مواطنيه باعادة النظام ، الا أنه سرعان ما غرق تحت أقدام المتعاركين ، وعندما أنقذناه كانت جبهته قد فتحت ، ونصف لحيته قد اختفى ، وظهرت علامات عض حادة من أسنان بعض المغاربة على ريلة (بطة) ساقه ولم يبد الأعداء رغبة فى مباراة شريفة متكافئة ، فظهر أنهم لا يقنعون الا بأن يترك خمسة أو ستة منهم فوق فرد واحد من مناوئهم . وقد ساءت الامور نتيجة لهذا . اذ كان من الطبيعى أن تبرز الأطراف الضعيفة خناجرها ، وسرعان ما أدت الطعنات المتبادلة الى جروح قليلة قاسية . وفى غضون دقائق أصبح خمسة رجال عاجزين عن الحركة تماما ، وبدأ المنتصرون يبتئون الرعب فى الناس نتيجة انتصارهم .

وعندئذ توقف القتال ، ولما كان كثيرون منا غير مستطيعين أن يجدوا أماكن ، فقد وافق الجميع على أن تؤجل المفاوضات لحين حضور على مراد مالك السفينة لآخباره بالزحام الشديد عليها . وبعد أن طال انتظارنا ما لا يقل عن ثلاث ساعات ، ظهر على مراد فى قارب تجديف على بعد غير قليل من سفينتنا ، وأخبرنا أن أى واحد منا يرغب فى مغادرة السفينة ، فانه سيرد له الأجر الذى دفعه . وأدى قوله هذا الى أن أصبح الوضع على السفينة كما كان تماما قبل مجيئه ، فلم يكن أى من الركاب براغب فى ترك جماعته والعودة للشاطئ . لذا فقد

جذف على مراد عائدا للسويس ، موجهها لنا نصيحة بأن نكون طيبين ونترك الاقتتال ، ولنثق بالله (سبحانه) فانه سيسهل لنا الأمور كلها . وكان رحيل على مراد إشارة لمعركة ثانية ، وان اختلفت وقائعها قليلا عن المعركة الأولى ، ففي اثناء المعركة الأولى كنا نحتفظ بأماكننا وفي أيدينا أسلحتنا . وفي هذه المرة طلب منا المغاربة أن نأخذ عندنا حوالى ستة منهم لانقاذهم من متاعبهم . وقد ظهر سعد العملاق فجأة مقسما بالله ، ووزع علينا مجموعة من النباييت (١٠) - وهى عصى رمادية يبلغ طول الواحدة منها ستة أقدام ، ويبلغ سمكها سمك الرجل ، وكانت النباييت قد أحسن تشجيعهما ، وتم تجربتها فى كثير من المعارك الحامية . وصاح فينا سعد العملاق : « دافعوا عن أنفسكم اذا كنتم لا تريدون أن تكون لحومكم طعاما للمغاربة » وصاح فى الأعداء : « يا كلاب ، يا أولاد الكلاب . سوف ترون الآن من هم أولاد العرب » فأجبناه مردين أسماونا وأنسابنا :

— أنا عمر الداغستاني

— أنا عبد الله بن يوسف !

— أنا سعد العملاق !

ولتكون عادلين فى حق أعدائنا ، فانهم والحق يقال لم يبدووا أى علامة دالة على الاحجام ، فقد احتشدوا فى اتجاه مؤخرة السفينة ، كالزنابير الغاضبة ، وراحوا يشجع بعضهم بعضهم الآخر بصيحات « الله أكبر » الا أننا كنا فى موقع أكثر ارتفاعا من موقعهم بحوالى أربعة أقدام ، كما أن عصيهم من جريد النخل وخناجرهم القصيرة لم تكن لتصنع شيئا فى مواجهة نباييتنا المربعة ، وعبثا حاول « الجاكيون Jacquerie (١١) أن يصعدوا الى مؤخرة السفينة وأن يتفوقوا علينا بكثرة العدد فلم تنفعهم شجاعتهم شيئا سوى حماية رؤوسهم من التكسير .

وفى البداية بدأت أهاجم حاملا النبوت Main morte وكنت خائفا حقا أن أقتل أحدا بمثل هذا السلاح لكن اتضح أن رؤوس المغاربة

(١٠) جمع نبوت Nabbut

(١١) Jacquerie هى الثورة الجاكية أو ثورة الفلاحين فى فرنسا عام ١٣٥٨ ، وأصبح هذا المصطلح يطلق على ثورة الفلاحين بشكل عام . وبيرتون هنا يسقط ثقافته التاريخية وغير التاريخية الواسعة على تشبيهاته فيرهق المترجم والقارئ أرقا شديدا ، والمقصود هنا وصف المغاربة بالغلظة والشدة مع قلة فى العقل - (المترجم) .

واكتافهم تتحمل بل وتحتاج من المرء أن يضرب بقوة • وسرعان ما اتتني فكرة • لقد كان ثمة زير فخارى ملئ بماء الشرب - مثبتا في حمالة خشبية قد يصل وزنها الى مائة رطل - فوق مؤخرة السفينة ، فتسللت الى هذا الزير - ودون أن ألقت نظر أحد قلبته بدفعة ذكية من كتفى على جماعة المهاجمين (المغاربة) • وأحدث سقوط الزير صوتا طغى على صوت المعارك وضجيجهِ وتسبب فى خدوش ورضوض فى المرءوس والشفاء والأجساد ، مما دفع المغاربة للانسحاب الى آخر السفينة خوفا من حدوث ما هو أسوأ • وبعد دقائق قليلة جلسنا خلالها فى صمت حزين اتانا وقد من ذوى البرانس البنية الشاحبة ليقدّموا لنا « عصير الاستطلاع » على حد تعبير ميفيستوفيلز Mephis topheles فتوسلوا منا السلام فوافقنا على أمل أن يلزموا أنفسهم به • وقبلوا أيدينا واكتافنا ورءوسنا ، وعادوا ليضمّدوا جروحهم بخرق قدرة • لقد أرجعنا هذا الانتصار تماما لجهودنا الا أن عمرا Omar المعروف بالحلم كان أكثر المجموعة غضبا • أما الرئيس Rais (ريس السفينة) فكان - كما علمنا بعد ذلك - غيبا قديما فلم يكن يستطيع أن يفعل شيئا سوى الدعوة لقراءة « الفاتحة » وطلب « اليقشيش » فى كل مكان نرسو فيه ليلا • وكان طاقم السفينة يتكون من ستة رجال مصريين لم يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم إذ كان المغاربة يعاقبونهم بين الحين والآخر خاصة اذا حاولوا الطبخ أو جلب الماء أو اعداد الشيشة •

وأخيرا فى حوالى الساعة الثالثة من عصر السادس من يوليو ١٨٥٣ نشرنا أشرعتنا التى انتفخت بالرياح المواتية ، ورفعنا أيدينا وقرأنا الفاتحة ثم مسحنا وجوهنا بأيدينا • ولما تحركت (السلك الذهبى) لم أتمكن من اللقاء نظرة مشتاقة على العلم البريطانى الذى يرفرف فوق القنصلية • وسرعان ما خنقت الأسف العابر الذى ألم بى فقد كنت سعيدا حقا بمغادرة مصر فقد عشت فى أرضها غريبا سيئ الحظ ، وكان كل من طالع وجهى فى شوارعها اعتبره وجه عدو فارسى ، وكلما تعاملت مع الموظفين الوطنيين واجهت الخطرسة ، وكان تعودى على أن أعيش فى جو من الودّة والترحيب بين أهل بلدى جعلنى أجد من غير الممكن أن أسعد فى مجتمعهم لذا فقد ألقت الكأبة بظلالها على فترة اقامتى المؤقتة فى مصر •

وسفن البحر الأحمر تبحر نهارا بالقرب من الساحل ، وترسو ليلا عند أول خليج صغير تجده ، فالبحر الأحمر ذو سمعة سيئة بسبب شعابه المرجانية وصخوره القريبة من السطح وضحايلته بالقرب من الساحل ، ولا يبحر البحارة فيه اذا كانت الريح عاصفة خاصة فى الشتاء

حيث لا يدوم النهار طويلا ، وحيث الجو عاصف غالبا ، لذا تكون الرحلة بطيئة مملة بشكل لا يطاق . وعند غروب الشمس رسونا - ولا زالت السويس على مرأى منا - تحت جبل عتاقة متخذين منه ملاذا يحجب الريح عنا ، وعلى الساحل الشرقى كانت توجد قلعة من بساطين النخيل متجمعة حول (عيون موسى) أما فى الغرب فيقع - بين حيددين برجيين - مصب وادى (مسيل) الطوارق أو وادى موسى أو وادى البادية - الذى خرج بنو اسرائيل منه الى بحر البردى The Sea of Sedge (١٢) - وفقا لما يقوله الأب سيكارد Sicard . وكان المنظر يفتقد الى الأبهة البربرية تماما . فلا خضرة البتة غير أنه تحت القبة السماوية التى تشكل خلفية بنفسجية وبرتقالية توجد الصخور الطباشيرية التى أصبحت - بفضل انعكاس الألوان أنفة الذكر - أكواما من التوباز Topaze ، كما أصبحت الحيور المبنية التى سفعتها الشمس وكأنها كتل من الجمشت (أحجار كريمة أرجوانية أو بنفسجية) ، وكان الضباب الطالع فضيا أبيض فى موضع ، وزهريا غامقا فى موضع آخر ، وزرقة الأمواج الساحرة تحد أشرطة طويلة من الرمال الذهبية .

وفى صباح اليوم التالى (٧ يوليو) شرعنا فى الإبحار قبل أن تتلاشى الألوان من قمم التلال . ولم يمض وقت طويل حتى كنا على وعى بموقعنا . لقد كان الصندوق الذى يضم مؤنئى وأفيرئى موجودا فى قاع الخرج الخاص به ، وهو موضع لا يمكن الاقتراب منه ، وهو أمر مزعج لى خاصة بالنسبة للأفيون وعلى هذا فقد « سعدنا » بتناول افطار من جلد الفرس (المقصود قمر الدين) وقطع من البسكويت اليابس كالحجر أما طعمه فلا مذاق له . وخلال النهار بينما كانت الشمس والحرارة تحكمان دون منازع ، كان اندفاع الماء قد بلل عشى برندان من الماء جعله رطبا دائما . وفى الليل يشهد البرد ويتألق القمر ويتساقط الندى كثيفا ورطبا لدرجة أن الانسان يحس أن جلده لمن يتخلص من البلل أبدا . ومن المبهج « تماما أن ينام المرء على سرير خفيف لا يزيد طول له على حوالى أربعة أقدام ولا يزيد عرضه عن قدمين مع يقين كامل بأن أية حركة غير محسوبة ستقذف بك من فوق السفينة الى البحر ، ومع قناعة تامة أنك

(١٢) الاسم العبرى لهذا الجزء من البحر الأحمر . ويرى بيرتون أن الاغريق سمو البحر الأحمر باسم البحر الارترى Ergithracn Sea نسبة الى حمير (بحر حمير) Ilmyar Sea (عن بيرتون) .

(١٣) رئيس بعثة الجزويت التى زارت المنطقة سنة ١٧٢٠ وكتبت عنها مجلدا معروفا . (عن بيرتون) .

إذا سقطت من السفينة (السنبوك) تحت الشراع فليس من قوة مستميتة
يمكنها انقاذك ، ففي الشرق - تحت كل الظروف - تجد أن التراخي
والكسل هما الوظيفتان الأساسيتان للإنسان الشرقى ، وسيفهم القارئ
أن الحاجة للتراخي والكسل قد جعلتني متراخيا كسولا تماما .

لقد كانت الرياح خفيفة هذا النهار ، وكانت أشعة الشمس نارا
وفضل طاقم السفينة الاقتراب من ظل الشراع ليتمتعوا بالهواء فى هذا
المكان . ورغم تمللنا فلم نقطع الا مسافة يسيرة وقرب المساء رست
السفينة عند لسان رملى على بعد حوالى ميلين من مرتفعات مشهورة
جديرة بالتصوير يسميها العرب حمام قرعون :

« تقف كالمارد ،

لتحمى أرض السحر والجمال »

فمن الواضح أن شريط المرو (الكزارتز) الخشن وكتل الأحجار
الرملية قد جرفتهما بعض السيول من الجبل . أنها تعتد ناحية
الجنوب وربما كان مسارها فى هذا الاتجاه بفعل التيارات البحرية وهى
تتلقى هذه الرواسب . ولقد منعنى بعد هذا « الحمام الكاذب » من زيارته
وأنى لأسف لعجز التعبير بالقلم عن مجارته لوصف الجهد والواقع .

لقد سعدنا هذه الليلة باستلقائنا على الرمال النظيفة التى جعلتها
الرياح تتخذ شكل أمواج صفراء صغيرة ، والتى يمكن أن تتحول الى
مخادع مريحة باردة بقليل من الحفر والاعداد . والحقيقة أنه بعد أن عاينا
من حرارة النهار الشديدة ورجرجة سقینتنا السيئة ، فقد كان علينا
ألا نطمع فى كثير من الترف . لقد جمعنا الوقود (الحطب) بالفعل ،
وبينما كان بعضنا يستحم كان الآخرون يجهزون النار فى كانون
أو مصطلى وهو عبارة عن ثلاث أثافي (أحجار) مع ترك فجوة فى اتجاه
الرياح ، وأشعلوا النار ووضعوا فوقها الاناء ليغلى . وكان مع الشيخ نور
- لحسن الحظ - سنارة لصيد السمك ووقفنا فى الصيد ، وأحضرنا قليلا
من الأرز وشوينا على الفحم النباتى أسماك القند تعيش على الساحل
بين الصخور ، وهيانا غداء جعل كل من ذاقه ينسى المظلم المفادح الذى
لحقنا بأكل جلد الفرس (المقصود قمر الدين) والبسكويت الذى يضارع
الأحجار فى صلابته . وغامرت قلة من المغاربة بالتجول على الشاطئ ،
فأرهب « الرئيس » الباقيين بتهديدهم « بالمغيلان » وهو يقصد البدو - وقدم لنا
المغاربة الكسكسو kuskusu مقابل ما قدمناه لهم من سمك . ولما حل

المساء صممنا - قبل أن ننام - على التأثير فى معنويات هؤلاء المغاربة بشكل جاد فهزأنا من تكوينهم الجسمانى وهياتهم • وقام المشيخ حامد برفع الأذان بنغم أهل المدينة المنورة ، فتجمعوا لأداء الصلاة واتخذوا صفوفهم خلفنا (جعلوا أنفسهم فى الصفوف الأخيرة فى الصلاة) كمظهر من مظاهر الاحترام ، ولما انتهت الصلاة وجهوا لنا أسئلة عن المدينة المنورة حتى تعبنا من الاجابة ، فراحوا يقبلون رؤوسنا وأكتافنا وايدينا وركبنا ليس اعتذارا هذه المرة ، وانما ايمانا وحبا لمن يعرف عن المدينة المنورة اكثر مما يعرفون • وكان رفاقى يستطيعون بشق الأنفس فهم نصف الكلمات الروعرة التى يستخدمها المغاربة فلهجتهم لهجة صحراوية طازجة (قادمة لتوها من الصحراء) • لقد نجحنا فى جعل أنفسنا واضحين لهم وتبجحنا بشرافتنا كأبناء للرسول (صلى الله عليه وسلم) وفخرنا عليهم بقداسة أرضنا التى تحمى أبناءها من الخداع والعنف • ووعدناهم - متفضلين - أن نكون أدلتهم (مزوريهم) فى المدينة المنورة ، وأن الولد محمدا سيكون مطوقهم فى مكة المكرمة فكانوا يبدون أسفهم وندمهم على ما بدر منهم من اثم فى حقنا فى الأيام السابقة وتعهدوا بان هذا لن يتكرر ، ووعدوا أن يؤدوا ما عليهم كحجاج صالحين مؤمنين • وسرعان ما انضم « الرئيس » الى جمعنا ، وبدأ قص القصص كما هو معتاد • لقد كان الرجل العجوز يعرف اسم كل تل ولديه تفسير لكل ركن وزاوية يقع عليها البصر • وقد أسهب بإفاضة عن حياة « أبو زليمة » Abu Zulaymah- المشيخ الحامى لهذه البحار والذى يقع مقامه (قبره) الصغير غير بعيد من المكان الذى نعسكر فيه ، وأخبرنا كيف أنه يجلس ليحمى البحارة الاتقياء فى كهف بين الصخور المجاورة وأنه يشرب قهوته التى تجلبها له من مكة المكرمة طيور خضراء ، وهى - أى حبوب البن - بحالتها الطبيعية أى غير مقشورة ، وأن الملائكة هى التى تعد له القهوة بأيديها المباركة ، بالطريقة المعتادة • وأرانا البقعة التى غرق فيها الفرعون المصرى وذهب الى « جحيم الماء hell of waters » عندما تعقب أطفال بنى اسرائيل ، وحذرنا من أنه فى اليوم التالى سيكون مسار سفينتنا عبر موجات محطمة وشعاب وصخور وتيارات مائية خطيرة تتحرك فوق أعماق مرعبة لأنه منذ ذلك اليوم الرهيب (الذى أغرق فيه فرعون مصر) لم يتوقف عفریت العاصفة أبدا عن تحريك جناحه الأسود • وتجلى خوف السامعين مما يبرهن على أن رماح كلمات الرجل العجوز كانت حادة • لكن كلما اقترب الليل ، رحنا الواحد تلو الآخر نقرش أبسطتنا واستغرقتنا فى النوم فوق الرمال وكنا جميعا سعداء لأننا طعمنا وشربنا • ولأن الانسان حيوان ملىء بالأمل ، فقد كنا متأكدين أن العفریت سيكون غدا رحيمًا وسيسمح لنا بأن نأكل رطبًا فى ميناء الطور . Tur

لقد ضاع منا منظر البلع الجميل - الذى كنا نتوقع رؤيته فى الطور بسبب الإهمال . وفى الفجر الأغبر لليوم الثامن من يوليو هبطت علينا صعوبات ، فقد كان الماء عميقا بالقرب من الساحل وكنا قد رسونا عندما كان المد عاليا ولما جاء الجزر انسحب الماء وترك سفينتنا على اليابسة فى مكان مرتفع ، وقد اعتزم المغاربة أن يجلدوا « الرئيس » على قدميه (بالفلكة) - لولا تدخلنا - لأنه كان يجب أن يكون أكثر علما وخبرة . وبعد أن انتهت موجة الغضب وظفروا جهودهم البدنية لانقاذ الموقف ، فقام الجميع - ما عدا النسوة والأطفال - بجهود كبيرة فألقى بعضهم بنفسه فى الماء ، وراح آخرون يدفعون ، وآخرون استخدموا أكتافهم لتحريك السفينة من جانبها . لقد أجهدوا أنفسهم غاية الجهد ، والنسوة والأطفال يشجعونهم وهم جالسون على الشاطئ بالصياح والدعاء . ولكن « السلك الذهبى » أثبت الحركة ، كما أن جهودهم فى تحريكها لم تكن منتظمة ، ولما فشلت جهودهم العضلية قرروا تغيير تكتيكاتهم فبناء على اقتراح مولاهم their Maula أعدوا البخور لاحتراقها ارضاء للشيخ « أبو زليمة » ولم يكن البخور متوفرا فاستخدموا البن ، لكن ذلك لم يرض الولي الصالح « أبو زليمة » ، لذلك تذكر « الرئيس » أن كل جهودهم السابقة لم تكن مجدية لأنهم لم يقرءوا « الفاتحة » فقرءوها ثم شرعوا فى العمل من جديد ، لكنهم أخفقوا فى تحريك « السلك الذهبى » وأخيرا شرع كل رجل يتوسل بصوت عال « لوليه » أو « شيوخه » أو مرشده الروحى ، وراح يدفع « السلك الذهبى » وكأنما يقع على عاتقه وحده عبء تحريكها . وراح الشيخ حامد - بحمق - يتوسل لجده الأعلى بائع السمن (السمان) إلا أن « السلك الذهبى » العنيدة أثبت الحركة فتراجع حامد مضطربا .

لقد كانت الساعة الآن حوالى التاسعة صباحا ، وكان الماء قد ارتفع بشكل ملحوظ ، وقد قضيت صباحى فى مراقبة تدفق المد ، ومراقبة الجهود المشتتة التى بذلها المغاربة لتحريك السفينة ، ولما لاحظت أن السفينة بدأت تتقلقل من مكانها قليلا نهضت واقفا وسرت نحوها بعظمة وخيلاء وجعلت الحجاج يلتفون حول السفينة ويدفعونها بأكتافهم وأخبرتهم أن يرفعوا بشدة عندما يسمعوننى أتضرع باسم الشيخ الحامى (الوالى) ورفعت يدى وصوتى وصحت : « يا بيران بير Ya piran Pir .. يا عبد القادر السجيلانى (١٤) » . لقد كان كل مغربى يدفع بكل قوته وكأنه أطلس (١٥)

(١٤) أصبح معروفا الآن لدى المسلمين المتعلمين ، والمسلمين السنة بشكل عام أن التوسل بغير الله حرام - ويلاحظ أنه كلما انتشر التعليم قراجت هذه الخرافات المناهضة للعقل والدين على سواء - (المترجم) .
(١٥) حامل السماوات فى الأساطير الاغريقية . معجم الأساطير اليونانية والرومانية تأليف أمين سلامة - (المترجم) .

فارتفعت السفينة ثم راحت تنزلق ثقيلة على الرمال ثم طفت على سطح الماء . واعتبر هذا بمثابة معجزة صغيرة لى ، وأصبح الأفندى (بيرتون نفسه) موضع احترام ليوم أو يومين .

كانت الريح تهب رخاء لكن كان لابد أن نركب جميعا وهى عملية تستمر الى وقت الظهر . ولما بدأت الابحار عرفت السبب « الطبيعى » لتسمية هذا الموضع بالاسم السيىء « بركة فرعون » فالخليج هنا ضيق ، والرياح - التى تدفع الى أسفل شقوق الجبال الشامخة ووديانها فى السواحل الشرقية والغربية - تتقابل مع التيارات المائية المعاكسة Counter-Currents ومع المد المرتفع ، فيسبب هذا التصادم هياجا مناخيا دائما . وفى ذلك اليوم غطى زبد البحر فراشى بشكل متكرر فجعله غير مريح وفى المساء أو قبيل حلول المساء بقليل رست سفينتنا تحت حيد صخرى يقع خلفه سهل الطور ، وأثار رسوها قرفنا واشمئزازنا بشكل لا حد له . وقد روع « الرئيس » جميع المسافرين من التوغل فى الساحل خشية البدو الذين يترددون على هذا المكان ، والذين روى عنهم حكايات مرعبة ، بالاضافة الى أنه لا توجد رمال عند هذا الشاطئ . انستلقى عليها . وعلى هذا فقد ظللنا ماكثين على السفينة هذا الليل وأبحرنا فى صباح اليوم التالى مبكرا ، وروعتنا الشعب المرجانية ورمال الساحل ظهرا عند مدخل الطور الخطير والمعقد .

لاشئ أكثر تفاهة من المنظر الحالى لهذه المستعمرة الفينيقية القديمة رغم أن موقعها كميناء ووفرة مؤننها من الفاكهة والماء - يجعلها من بين أهم موانئ البحر الأحمر . والآثار الوحيدة الباقية - باستثناء الآبار - هى التحصينات التى أقامها البرتغاليون لابعاد خطر البدو . وتقع البلدة الصغيرة فوق السهل الذى يمتد بارتفاع تدريجى من البحر الى عقدة جبال سيناء الشامخة . وتذكرنى المنطقة حولى - بشدة - بمنطقة السند البحرية ، فثمة مسطح من طمى ورمل مكسو بطبقة متناثرة من سالسول Salsolae وتشير تكويناته الى أنه حديث على حد قول الجيولوجيين . وسكان الطور فى الأساس يونانيون ومسيحيون من بلاد أخرى ويتعيشون من بيع الماء والمؤن للسفن . وعندما جل المساء كانت ثمة غمامة ناعمة فوق قمة جبل الطور المهيبة وظهرت النخطوط الخارجية للتلال العملاقة تغطيها صفحة السماء الزرقاء الصافية . وحذرنا « الرئيس » خبير المناخ أن هذه الظواهر تنبئ بعاصفة فان كانت شديدة فلن يغادر الطور . ولم أكن أسفا لسماع ذلك ، فقد قضينا يوما بهيجا فشرينا ماء عذبا وأكلنا بلحا وعنبا ورمنا حمله السكان الى الساحل لأطعام الحجاج الجوعى وبالإضافة لهذا فقد كانت هناك مناظر مختلفة تستحق أن أراها ،

وقد يكون مفيدا أن نقضى فترة الصباح هنا أيضا . لذا فقد نصبنا خيامنا فوق الرمال وشغلنا أنفسنا بفتح صناديق المؤن ، وتم العمل بهدوء لغياب المغاربة عنا ، فقد كان بعضهم يتجول على الشاطئ وبعضهم الآخر ذهب للماء قريبهم بالماء . لقد وجدنا أن فظاظة طباعهم لا تطاق حتى عندما كنا نمر من مؤخرة السفينة الى مقدمتها ، كانوا متعبين فى الحل والترحال ، وكانوا يتدمرون ويدمدمون معبرين عن سخطهم .

ولم يكن « الرئيس » مخطئا فى تنبؤاته فالمسحابة الناعمة فوق قمم الطور كانت نذيرا حقيقيا . ولما أشرق صباح اليوم التاسع من يوليو وجدنا الريح عاتية والبحر هائجا اعتلى سطحه الزبد الأبيض . ولم يفكر غالينا الا قليلا فى هذا الرعب الا أن « ريسنا » الشجاع أقسم أنه لا يجسر على عبور مخرج خليج العقبة المشئوم فى هذه العاصفة - حفاظا على حياته . وعلى هذا فقد تناولنا افطارنا ثم خرجنا لزيارة عيون موسى الساخنة فركبنا حميرا هزيلة عليها برادع (جمع بردعة) وليس لأى حمار منها ركاب ولا ذيول (!! كذا بالنص) ، وكنا نحن نعانى - بشكل عام - من البثور التى جعلت منظرنا غير ملائم . وكان طريقنا يتخذ اتجاها شماليا عبر السهل فى اتجاه شريط طويل ضيق به نخيل وتحيطه أسوار طينية مهدمة .

وبعد أن ركبنا الحمير زهاء ميلين أو ثلاثة دخلنا منطقة بساتين ووصلنا مباشرة للحمام وكان مبنى صغيرا من طابق واحد يشبه ما هو موجود فى الريف الانجليزى أو الأحياء الفقيرة فى لندن ، بناه عباس باشا ليستخدمه كاستراحة ، وكان مطليا باللون الأبيض الساطع ومزيننا بستائر من قماش الكاليكو Calico ذوات ألوان متدرجة رائعة . وكان الحارس قد أحيط علما بزيارتنا فاستعد لتزويدنا بملابس الاستحمام وغيرها من الضروريات . ودخلنا الحوض واحدا اثر الآخر ، والحوض موجود الآن فى الغرفة الداخلية للمبنى . وكان الماء فى الحوض بعمق حوالى اربعة أقدام ، دافىء فى الشتاء وبارد فى الصيف له طعم مالح ومر لكنه مشهور بخواصه المنشطة اذا استعمل فى الاستحمام . وعلى أحد جوانب الصخرة الكلسية بالقرب من الأرض يوجد الثقب المفتوح على الينبوع بفعل عصا موسى التى لا بد أنها كانت كصارى المركب ، وبالقرب من هذا الثقب توجد علامات أظافر موسى (عليه السلام) وهى فجوات عميقة فى الصخور ربما كانت بفعل بعض الحيوانات المنقرضة . وأخبرنا دليلنا أن اثر اصبع موسى (عليه السلام) كانت موجودة أيضا فيما مضى ، وانها - أى الأثر - كانت كافية ليتمدد الانسان فيها . حتى التجهيزات الصحية للعيون أرجعوها لبركان النبى (موسى

عليه السلام) • ولما سألنا لماذا لم يجعل موسى الماء العذب ينبع هنا أخبرنا أن المشرع العظيم great Lawgiver (يقصد موسى عليه السلام) كان يريد أن يستحم الناس هنا لا أن يشربوا • وجلسنا مع الدليل نأكل بلح الطور الصغير الأصفر الذى يذوب فى الفم كعسل النحل ، وبعد أن دخلنا عددا من الشيش وشربنا فناجين قهوة ، أعطينا لعامل الحمام بضعة قروش قليلة وركبنا حميرنا متجهين شرقا الى « بير موسى » فوصلناه فى غضون نصف ساعة • انه بناء جميل قديم مشيد حول البئر ، وله قبسة تعلوه من أحجار مربعة غير صقيلة ، ويشبه كثيرا ما قد نراه فى بعض أنحاء الريف جنوب انجلترا ، وكانت جوانب الحفرة فظة ومشققة بحيث يمكن للإنسان الدخول فيها ، اما فى القاع فيوجد الماء عذبا وغزيرا • ونوينا المكوث هنا وتأمل التصوير الجصى على الجدران والسقف ، لمكن وجوه رفاقنا المغاربة المكفهرة واجهتنا عند المدخل فقتلت مشروعا فى مهده • فاتجهنا الى مقهى مجاورة لنحتمى من الشمس المحرقة ، وكانت المقهى عبارة عن ظلة من جريد النخيل لرجل من الطور فجلسنا على الحصير والتهمنا كل ما فى سلالنا من طعام وأثناء تناولنا الطعام قدم بعض البدو وانضموا الينا عندما دعوناهم • لقد كان هؤلاء البدو يرتدون أسمالا بالية وكانوا مسلحين بالسكاكين والسيوف الضالعة (١٦) الرخيصة علقوها فى حزام كتف جلدى عريض • وتبدو فى لهجتهم وتصرفهم بقايا من ضراوتهم القديمة • وكان هؤلاء البدو منذ أيام محمد على يعملون فى مجال البحث عن السفن الغارقة لنهبها أو انقاذها ، أما قبل ذلك فكانوا قراصنة من الطراز الأول ، أما الآن فهم أسود بأنيابهم ومخالبهم المسحوبة • وفى المساء عدنا لخيمتنا فأتى الينا أحد السوريين من مجموعتنا فى مؤخرة السفينة ليخبرنا بمعلومات مقادها أن عدة سفن كبيرات قد وصلت من السويس يقال انها فارغة نسييا • وان قبطان (ريس) احداها يمكن أن ينزلنا فى ينبع لقاء ثلاثة دولارات للشخص الواحد • لقد كان العرض مغريا • لكن سرعان ما ظهر أن رفاقى غير راغبين فى نقل صناديقهم النفيسة ، وأكثر من هذا فقد اضطر للدفع لأولئك الذين لا يرغبون أو لا يريدون الدفع عن أنفسهم مما يعرض ميزانيتى للاختلال ، لذا فقد رفضت الفكرة متحسرا • وكان بين السفن الكبيرة ثمة شخص يتعارك مع حجاج فرس - والحججاج الفرس هم أكثر العناصر غير المقبولة يمكن اصطحابهم فى رحلة • لقد رفضوا النزول من السفينة فى البداية لخوفهم من البدو ولم يأخذوا ماء من أهل

(١٦) السيف الضالع هو سيف وحيد الحد معقوف قليلا - عن معجم المورد -
(المترجم) -

الطور لأن عددا من سكانها مسيحيون ، وأكثر من هذا فقد أصرروا على إقامة الأذان للصلاة لأنفسهم ولم يعتمدوا اذان الآخرين . واذان هؤلاء الفرس يحوى خمس كلمات تزيد عن آذان أهل السنة الذين يفضلون الموت على السماح بها (أى بهذه الكلمات) ، وعندما شرع رجل ذابيل الوجه منهم فى الأذان ، ونطق بهذه الكلمات :

« in quel tenore

Che fa Cappon quando talvolta Canéa »

فاستقبلنا قوله بصيحات ساخرة . ونزع بعضنا أسلحته ليقيم له المؤذن (فرصة الاستشهاد . ولما سمع المغاربة ذلك تجمعوا ساخطين للقيام بعملية « جهاد » صغيرة ضد هؤلاء الفرس « الرفضة » Rafaz: وتعنى الزنادقة . واتخذ الفرس ذوو اللهى الطويلة حذرهم . لقد كانوا ضعف عدد مجموعتنا لذا فقد راحوا يقاتلون حولنا لا مباليين وراحوا يحملقون فينا ويحطون من قدر أنفسهم بطريقة غير محتشمة ، لكنهم عندما أدركوا اقتراب لحظة المواجهة رفعوا الراية البيضاء . لقد صاحبنا هؤلاء الفرس الى نهاية الرحلة ولما اقتربنا من الأرض المقدسة تسبب منظر ذبابيتنا فى تغيير سلوكهم لما هو أفضل . وفى مهر Mahar تلقوا الاهانات المختلفة بخنوع ، وفى يتبع تذللوا لنا كالكلاب .

(١٧) يضيف بعض الفرس عبارة « خان الامين الرسالة » أى أن جبريل عليه السلام نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، خطأ ، وكان المفروض أن ينزل على على (رضى الله عنه) . وهو قول فاحش . (المترجم) .

الفصل الحادى عشر

الى ينبوع

مغادرة الطور - وصف الطبيعة - حالة الملل - حزب البحر - الاحترام
فى الشرق يقوم على الخوف - عبور العقبة - مرسى دمغة - جهينة وهتيم -
ميناء الوجه - مقام الشيخ حسن المرابط - الشعب المرجانية - جزيرة
حسانى - قبيلة هتيم - جبل رضوى *

غادرنا الطور فى الحادى عشر من شهر يولية سنة ١٨٥٣ ، فى
الفجر تقريبا ، بعد أن قضينا فترة استراحة مبهجة ، وان كان القلق قد
اعتراننا - يقينا - لعرفتنا أننا لن نلامس الأرض طوال ست وثلاثين ساعة .
لقد قضيت وقتى فى تأمل نسيج مظلتى وفى رصد الأحوال الجوية
كالتالى :

صباحا : الهواء معتدل ومنعش ، كهواء الربيع فى ايطاليا والضباب
الكثيف ينتشر فى الوديان على طول ساحل البحر ، والسديم (الضباب
الرقيق) يتوج الألسنة المعتدة فى البحر كأنه عرق اللؤلؤ . أما الصخور
المتباعدة فتبدو كاسوار هائلة وبروج محصنة ذوات شموخ ، كما تبدو
الخنادق حول هذه الاسوار ملأى بالظلال العميقة . ويجرى بحر أرجوانى
أو بنفسجى عند سفوح هذه الاسوار وتلك الصخور ، وعندما تستقبل
الأرض أول خيوط الضوء ، فان قممها غالبا ما تكون واضحة وهى مختلطة
(ممتزجة) بقبة السماء ، لا شئ يمكن أن يكون أجمل من هذه الساعة
ولا أبهى لكن هذا الصباح رائع الجمال سرعان ما ولى ، فالشمس
- ذلك العدو القاسى - تبزغ مطلّة من ناحية البر ، وسرعان ما ستجبر
كلا منا على الانحناء أمام قسوتها . لقد صبغ هذا العدو (الشمس)
السماء باللون البرتقالى ، أما البحر (القرمزى) فقد أصبح سطحه الهائج
مشريا بأشعة هذا العدو (الشمس) الذى بدد عنه - بقسوة - الضباب
والسديم وكتل السحاب التى اعتراها على نحو ما لون العقيق ، والتى
كانت تسبح فى قبة السماء الزرقاء . لقد كان الجو صافيا جدا حتى ان

الكواكب تبدو واضحة مرئية بين الحين والآخر . وبالنسبة للساعتين التاليتين للشروق ، فإن الأشعة يمكن احتمالها ، أما بعد ذلك فقد صارت محنة قاسية وأشعة الصباح تشعرك بالحزن وتجلب لك الشعور بالمرض . فتعكس المياه الغاضبة توهجها المضطرب الذى يعمى عيونك وتحرق جلدك . وتجفف حلقك . لقد أصبحت الآن تعاني من سيطرة فكرة واحدة عليك لا تستطيع منها فككا . فأنت لا تفعل شيئا سوى أن تحسب الساعات البطيئة التى يجب أن تدون انطباعك عنها ، قبل أن تحس بالراحة بعد تخلصك منها .

ظهرا : والرياح - وقد عكستها التلال الملتهبة - تغدو كالمهبات الحارة المنبعثة من أفران من الجير (الكلسي) . وتتلاشى كل الألوان وتختلط ، فالسماوات ذات لون فاقد الحياة ، فقد اتخذت لونا أبيض كبياض الحليب ، والبحر كسطح المرآة يعكس لون السماء الباهت فلا تكاد تبتين خط الأفق . وبعد الظهر تنام الرياح على الساحل الذى أصابه بخر الماء بالوخم ، فتحس بخمول عميق ، فالصوت الوحيد الذى تسمعه خفقات الشراع الكئيبة . ولا ينام الركاب كثيرا ، وإنما يسترخون فاقدون نصف احساسهم فهم يشعرون أنهم قد يلقون حتوفهم اذا زادت الحرارة عن ذلك بدرجات قليلة .

وقت الغروب : ويغوص العدو (١) خلف البحر اللازوردى العميق ، تحت ظلة من قوس قزح هائل يغطى نصف وجه السماء . وثمة قوس يرتعالى تعتريه صفرة مسمرة أقرب ما يكون الى الأفق يكمن فوقه قوس آخر ذهبي باهت ، وفوقها نصف دائرة زرقاء واهنة تعترىها خضرة ، امتزجت بما لا حصر له من ألوان على نحو متدرج ، كل ذلك فى سماء زرقاء لازوردية مستها خضرة رقيقة . وتلقى الشمس بأشعتها لتنفذ فى قوس قزح على شكل غجلة عناقلة عليها مسحة من لون أحمر قرنفلى جميل . والسماء من جهة الشرق قد اعترتها حمرة أرجوانية متوردة تحاكي أشكال الصحارى الغامضة والتلال واضحة المعالم . ان اللغة تبدو بليدة باردة ، وبأثثة عاجزة فهى لا تسعف فى التعبير عن هذه السيمفونية وتلك العظمة التى تتجلى فى هذه الساعة سريعة الزوال مع أن فرط الشوق لها والتدله فيها يجعل المرء يتمنى بقاءها دوما . وهبط الليل سريعا فظهر فجأة الضوء البروجي (٢) فأعاد المنظر الى ما كان عليه . ومرة أخرى تصبح التلال

(١) يقصد الشمس - (المترجم) .

(٢) الضوء البروجي Zodiacal Light وهج يظهر فى السماء جهة الغرب بعد غروب الشمس الى جهة الشرق قبل شروقها - (المترجم) .

الرمادية والصخور الكالحة ، وردية أو ذهبية ، وتصيب النخيل خضرا ،
وتصبح الرمال زعفرانية (برتقالية) ويلبس البحر رداء ليليلكيا lilac
(نسبة الى زهرة الليلك العطرة ذات اللون الأرجواني الفاتح) من
أمواج متغايرة (يغمز بعضها بعضا) ٠٠ لكن بعد حوالى ربع الساعة عاد
الخمول ليلف كل شئ فتري الجروف (جمع جرف) عارية شاحبة فى
ضوء القمر الذى يغمر هذه البرارى المقفرة بصخورها وقممها - فيبدو
المنظر غريبا مقعما بالغموض .

الليل : الأفق مظلم تماما ، ويعكس البحر محيا شمس الليل كما لو
كان مرآة من الصلب المصقول . ونرى فى الجو ، أعمدة عملاقة من أنوار
شاحبة تتخذ من الأمواج نيلية اللون قاعدة لها ، بينما تضيق قيجانها فى
الفضاء اللانهائى . وتتلاها النجوم متألقة تالقا لا يحده حد ، ففى هذه
الساعة :

« يكون النهر والتل والغابة river & hill & wood
مع ما لا حصر له من أشكال الحياة with at the numberless going on
فى حالة هدوء هامس كأنها حلم of life » inaudible as dreams

بينما تطل عليك النجوم بوجوه أصدقاء باسمه ، فتشعر « بالتأثير
الحلو لبسات أطلس السبع اللائى حولن الى نجوم » (٣) فتجد نفسك
مشدودا لرباط الجوزاء « bond of Orion » والزهرة (نجمة
المساء) تصفى الى الجوزاء بأناة وتبثها آلاف الأشياء (المعانى) .
وبتأمل الجوزاء والزهرة تمضى ساعاتك سريعة هينة حتى يأتى الندى
الكثيف محذرا اياك لتغطى وجهك ، وتستغرق فى النوم . وبمنظرة واحدة
لنجمة صغيرة بعينها ناحية الشمال يقع تحتها كل ما يجعل الحياة جديرة
بأن تحياها المخلوقات - فمن المؤكد أنه خوف لا عقلانى (خرافى) يمكن
تجاوزه اذا نمت وعيناك موجهة صوب القبلة (الكعبة) - لقد سقطت
فى السهو ! (وقعت فى خطأ غير مقصود !) .

ان هذه الساعات الثلاثين والست ، كانت عقابا (أو محنة) حتى
بالنسبة للبدو ذوى الرءوس العنيدة ، فقد سقط السورى وصديقه مرضى .
وكان لدى عمر أفندى - وهذا حقيقى - الشجاعة الكافية لأداء صلاة
المغرب وان كان الانهاك قد بلغ به كل مبلغ فبدا رجلا آخر غير السدى

(٣) أسطورة اغريقية .

"The Sweet influence of The Pleiades".

(المترجم) .

عرفناه . أما صالح شكار Shakkar فراح يأكل التمر بنهم يأس حتى هدده الزحار (مرض الدوسنتاريا) وقد أعد سعيد العملاق لنفسه سريرا نقالا يبلغ ثلاثة أقدام طولا ، وجعل فوقه بوصا مقوسا عليه عباءة فضفاضة من الجانب الثقيل ، ولكن الصرير العالى المنبعث من عشه برهن على أن احتياطاته لم تكن كافية . وحتى الولد محمد نسي أن يثرثر ، كما نسي سلاطة لسانه ، ونسي أن يدخن ، ونسي بشكل عام أن يجعل من نفسه شخصا لا يطاق . وقد بدا الطفل التركى وكأنه يحتضر ، فلم تكن لديه الطاقة الكافية للبقاء ، كيف استطاعت الأم البائسة أن تواجه محنتها برباطة جأش ! لقد كان هذا موضع عجب من الجميع . وكان أكثر ما يدعو للراحة هو تضامن رفاقى معها وعطفهم عليها واهتمامهم بأطفالها . فكلما سحب واحد من الجماعة قليلا من طعام شهى ، كقليل من تمر أو رمانة - جعلوا للأطفال نصيبا منه ، كما كان كل واحد من الجماعة يأخذ دوره فى تمرير الطفل . لقد كان هذا رقة حقيقية غير زائفة - انه طيبة فى القلب . وقد يكون من المفيد لأولئك الذين يتهمون الشرقيين بالنعس الكياسة ، أن يقارنوا هذه السمة من سمات الشخصية بالمناظر الوحشية للحضارة التى نجدتها بين قاطنى البر فى القاهرة والسويس . وليس فى وسع أى أجنبى يكون حاضرا هذه المشاهد ، دون أن يحمل انطبعا ابديا بأن أهل الجزر البريطانية ليسوا الا برابرة محدثين . وكان صالح شكار هو الوحيد على ظهر السفينة (السلك الذهبى) الذى يعد استثناء من القاعدة العامة المتمثلة فى كرم رفاقى ولطفهم .

فحالما تبدأ الشمس فى الاتجاه صوب الغرب مسقطة اذها على رؤوسنا ، فأننا نقوم - ومازلنا منهكين ، مصابين بالدوار ، عطاشا نطلب الماء ، فلم تكن لدينا القوة - قبل ذلك - لنتمكن من الشرب . أو التدخين ، وتناول القهوة وما شابههما من الترف . ومطبخنا البدائى عبارة عن صندوق خشبى مربع محفوف بالطين ، ومملوء بالرمال ، وقد وضعت فوقه ثلاث اثافى ضخام أو أربعة ، لتكون مصطلحا (موقدا أو كانونا) . فالاستعدادات تجرى الآن لاعداد وجبة العشاء بأبسط صورها . فقليل من الأرز ، وقليل من التمر أو بصلة ستحفظ للإنسان حياته فى وضعنا هذا ، فوجبة عشاء واحدة جيدة قد تبرر البقاء دون طعام حتى مساء اليوم التالى .

وأكثر من هذا ، فمن المستحيل فى مثل هذه الحالات أن يكون لديك شهية - وذلك من حسن الحظ ، فمخزوننا من التمرين ضئيل . ويعتبر العرب أن من المفضل تناول وجبة ساخنة مرة كل أربع وعشرين ساعة خلال الرحلة ، لذا فقد قررنا أن نطبخ رغم كل الصعاب . وعلى أية حال فإن

عملية الطبخ كانت مرضية تماما فقد تحلق حول النار عشرون شخصا اختيروا لذلك ، وكان من المتوقع أن يتعاركوا كل خمس دقائق .

وحالما برد النسيم بفعل الندی ، تيدأ وجوهنا الجافة المرهقة فى التمتع بالهواء ، فتستعيد ارواحنا بهجتها ، فيغنى الرفاق أغانيهم ، ويحكون حكاياتهم ، ويتقاذفون بالدعايات الثقيلة ، فالحس الشرقى مرتبط بها على نحو موجع - وان كان هذا ليس دائما . أو عندما نرى منظر عاصفة أو سكون ، فاننا ننسحب ونلجأ لنتابع بتقوى « حزب البحر Hizb al-Bahr » ومن المفترض أن هذا الحزب « أو الورد » يجلب الأمان للجميع على أمواج البحر أو المحيط ، ولن تعميني الأنانية فتجعلنى أضن بهذا « الحزب » على القارئ الانجليزى . ولكى يحظى المرء بكل بركاته ومزاياه ، لابد أن يتلقاه على يد مرشده أو قائده الروحى ، وأن يقتلوه فى فترة الصيام التى تستمر أربعين يوما والتى تعرف بالمشيلة the Chillah ، ولا يقدر على هذا الصوم سوى أبناء الثيران (الأشخاص الأقوياء جدا) ، وهذه الملاحظة مجازفة منى .

« يا الله ، يا قوى ، يا قادر ، يا جبار . أنت الهى ، وكيفينى معرفتى بك . تباركت ربنا وتعاليت فانت تنصر من ينصرك وأنت الرحمن الرحيم . ندعوك أن تهبنا الأمان فى ترحالنا وحلنا ، وتوفقنا فى كلامنا وأعمالنا (وغاياتنا) ، وتقينا شر الخواية والشك ، وتصلح سرائرنا ، زل لنا هذا البحر ، كما زللت له موسى ، وكما زللت النار لابراهيم وأنت الحديد لداود ، وسخرت الريح والشياطين والجن والانس لسليمان ، وشققت القمر ، ويسرت البراق لمحمد عليه الصلاة والسلام ، فزل لنا كل البحار نى الأرض والسماء فى عوالمك المرئية والخفية - بحر هذه الحياة ، وخضم الآخرة . يا من تملك كل شىء ، واليه يعود كل شىء . خياس kyyas . . . خياس ! » وأخيرا ، انطرحنا على وسائدنا (مرابطنا) ، وتدنرنا بالحفة (جمع لحاف) غليظة محشوة قطنا ، ونسينا متاعب اليوم الماضى ، وتهيأنا لاستقبال اليوم الآتى .

وفى ساعة متأخرة من مساء الحادى عشر من يوليو مرونا على مرأى من مضيق العقبة الذى يعد اجتيازه مسألة مرعبة للبحارة فى هذه العروض . فكما فى خليج كمبى Cambay (٤) ، نجد العواصف تتجمع

(٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الخليج وعواصفه ، راجع رحلة فارتيما (الحاج يونس المصرى) ترجمة د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ . الهيئة العامة للكتاب - ١٩٦٦ . كتاب الثانى - رقم ١٢٦ .

هنا دائما كما يقال ، حيث يرفع الناس ايديهم بالدعاء اثناء عبورها .
ولم تهب علينا عواصف هذا النهار من الخارج ، الا عاصفة واحدة كانت
على وشك أن تقلب سفينتنا . ان طبيعة النظام الشرقي تقوم على أساس
الخوف الذى يشكل اساسا للاحترام الشخصى (الاحترام الشخصى فى
النظم الشرقية يقوم فى الأساس على الخوف) . وعلى هذا فغالبا
ما يحدث أن تكسر أوامر الضابط المسئول (الموظف المسئول) اذا كان
رجلا طيبا كبير السن ، وبذا يصبح امتياز الوعيد هو أن يجلس بمعزل.
عمن هم أدنى منه رتبة .

وكان ريس سفينتنا من هذا النوع . فى المناسبة الحالية التى
أفعمها بالسخط والغضب رفض المغاربة الايتعاد عن طريق مسئول توجيه
دفة السفينة؛ لأن ذلك يحرمهم من اللقاء نظرة على الساحل طوال اليوم، وقد
هدد المسئول أحد أفراد هذه الجماعة يخفه (شبشبه) . وقد احتاج تهدئة
الأمر ، واستيعاب الحادث الى جهدنا جميعا بما فى ذلك استعراض
نيابتنا المرعبة . وبعد عبور العقبة لم نر شيئا خلا البحر والسماء ،
لقد كانت وجوه الركاب جميعا - تقريبا - شاحبة عند غروب الشمس فى
الثانى عشر من شهر يوليو عندما انحدرت سفينتنا فجأة فى مياه
ضحلة .

فقد كان مرسى دمغة Damghah أو دميغة Damghah
- وهو الأكثر صحة - لا يرى من البحر الا بصعوبة . فثمة جزيرة (جزيرة
صغيرة جدا) من الحجر الجيرى تعوق الدخول ولا تسمح بالوصول الى
المرسى الا من خلال ممر ضيق . ولم يكتشف البحار امتداد هذا الخليج
الصغير ولا عمقه الا بعد الدخول فيه . وكان هذا الخليج يمتد بشكل
منبعج فى البر ، ويتيح مسافة تتراوح بين ١٥ و ٢٠ قدما لتكون مرسى
جيدة واضحة لا تسمح بوصول الأمواج الطويلة اليه ، ويبدو من الداخل
أقرب ما يكون الى البحيرة ، وفى الليل يبدو لونه أزرق رائعا كبحيرة
جنيف ذاتها . وبعد العشاء ، لم أستطع أن أتذكر هذه الأبيات الشعرية
التى درسناها فى المدرسة :

« Est in Secessu longo locus ; insula portum, Efficit objectu laterum,
quibus Omnis ab alto

Frangitur, inquire sinus scihdit sese unda reducts ».

لم يكن ينقصنا شيء سوى « atrum nnemus » (١) . وعلى أية حال ،
فأين سنجد مثل هذه الرفاهية فى شبه جزيرة العرب القاحلة ؟
فالريس - كالعادة - حاول أن يحول بيننا وبين النزول للبر بأن قص علينا
قصصا خيالية عن البدو و « Bedoyne & Ascopards » مشبها إياهم
بأنهم

« folke ryghte felonouse and foule and of Cursed kynde ».

وقد أجبنا على تهديداته هذه بأن حملنا نبايقتنا فوق أكتافنا
وتزاحمنا فى مركب صغيرة ذات مجاديف وعلى الساحل رأينا عددا قليلا
المخلوقات البائسة من جهينة Juhaynah أو هتيم Hutaym
وقد جلسوا على مكوام من أخشاب جافة يبيعونها للمسافرين ، كما وجدنا
حجاجا سوريين سبقونا فى قوارب ثلاثة . لقد كنا نغار منهم - وكان ذلك
غالبيا بسبب قواربهم السريعة الرشيقة الصغيرة ، ذوات الأشربة المزدوجة
على شكل أننى الأرنب البرى التى تبدو على البعد - عندما يحل المساء -
كطيور النورس البيضاء سابحة فوق موج أرجوانى . كما برروا غيرتنا
منهم لوصولهم الى ينبع Yambu قبلنا بيومين . لقد عسكر الحجاج
على الساحل وانشغلوا فى احتساء قهوة ما بعد العشاء . وقد قابلونا
مؤدين كل حقوق الضيافة ، فجلسنا ساعة معهم ، وأكلنا قليلا من الفاكهة
ورويينا ظمأنا ، ودخنا من شيشهم pipes ، ودعونا لهم بالبركة عند
مغادرتنا إياهم . ولما عدنا لسفينتنا أكلنا ولم نضع وقتنا فى النوم .

لقد شهد فجر اليوم التالى أشرعتنا تخفق خفقا كسولا . ودخلنا
« الوجه Wjth » فى فترة ما قبل الظهر ، ولم يخل الأمر من صعوبات
ولا تبعد (الوجه) عن دميغة Dumayghah إلا بأميال قليلة . « والوجه »
مرسى طبيعية أيضا ، ولا تختلف عن المرسى التى قضينا الليل فيها سوى
أنها أصغر منها وأكثر ضحالة وأقل أمنا ، والطريق آمن من الوجه الى
القاهرة . والوجه مجموعة من الأكواخ المستديرة المشيدة بشكل بائس من
أحجار مستديرة - تجمعت فوق صخرة مرتفعة فى الجانب الشمالى من
خليجها الصغير . وتبعد حوالى ستة أميال عن القلعة الداخلية التى
تحمل الاسم نفسه (قلعة الوجه) والتى تستقبل القافلة المصرية ، والتى
تزدهر - أى القلعة - مثلها فى ذلك مثل الميناء (ميناء الوجه) بسبب
بيع الماء والمؤن للحجاج . فالسوق الصغيرة التى تعمس فى مثل هذه
المناسبات زودتنا بلحوم الضأن والأرز والخبز ، وغير ذلك من الضروريات
باسعار معقولة . كما توجد بها أيضا مواد الرفاهية فقد باعنى عطار
اونصة من الأفيون بسعر رخيص .

(١) لم أستطع فهم المعنى المقصود - (المترجم) .

ولقد رسونا فى (الوجه) بأن سحبنا بحبل ملفوف على بكرة دوارة ،
ووجدنا مقهى كبيرة فى موقع مرتفع بالقرب من الساحل ، فجلسنا فيها .
لكن الفرس الذين سبقونا اليها ، كانوا قد شغلوا الأماكن الظليلة خارجها
وراحوا ينظفون أسنانهم بسكاكينهم ، فكنا مضطرين للمكوث داخل المقهى .
لقد كانت بناء خشنا يخلو من اللمسات الفنية ، ولا يزيد عن كونه سقفاً
قائماً على أعمدة من جذوع النخل لم يحسن تهيئتها ، فوق أرض متربة
يحيط بها مصاطب غير مستوية من طوب لبن ، تشكل ديوان المقهى حيث
الحصر والأبسطة التى ينام عليها الرواد . وتوجد فى الوسط مصطبة
مربعة ضخمة تستخدم لأغراض مشابهة . ويظهر هنا وهناك شقوق فى
طول الجدران وعرضها ، ويبدو أن هذه الشقوق الزائدة عن الحد قد تركت
لتسمح لضوء النهار بالدخول من خلال هذه الفرج الواسعة . وفى أحد
الأركان توجد عدة القهوجى على (نصبة) مرتفعة من الطين تضم حفرة
لايقاد الفحم ، فوقها ثلاث دلات (جمع دلة) سيئة الطلاء ، لعمل القهوة .
وقد صفت الشيش (جمع شيشة) بالقرب من (النصبة) وهى شيش
غير نظيفة بالمرّة وقد اعتراها البلى بفعل القدم وكثرة الاستخدام . وثمة
مجموعة من القل (جمع قلة) مألئ بالمياه الباردة العذبة قد وضعت
(ثبتت) فى خروم (ثقوب) دائرية فى قطعة خشب ، ويبلغ سعر القلة فى
الحجاز عادة خمس بارات . وكان ذاك هو أثاث المقهى ، فلم يكن هناك ما
يبعث على الارتياح فى مثل هذا الجو من القحالة والعقم سوى جو
الاستمتاع الرخيم واللذيق للدخان (المتصاعد من الشيش) والبخار
(المتصاعد من نصبة القهوجى) والذباب والبعوض الصغير بنسب متساوية
تقريباً . لقد أسهت فى وصفى للمقهى لأنها نموذج لأمثالها يقابلها المسافر
من الاسكندرية الى عدن .

ان سعادتنا بهذا الفردوس – وهو كذلك فعلاً بالنسبة لنا بعد المعاناة
التى قضيناها فى سفينتنا (السلك الذهبى) – كادت تنتهى بسبب سعد
العملاق ، فطبعه الحاد أدى به للدخول فى معركة مع صاحب المقهى
الذى كان بشع المنظر أحول العين ، غيباً ، عريض الكتفين لم يبد اطلاقاً
أية رغبة فى الالتقاء مع خصمه سعيد العملاق فى منتصف الطريق .
وبعد أن تقاذفا بالشتائم ، أطبق كل منهما على رقبة الآخر بقسوة
ليعطيا فرصة للآخرين الذين لديهم الوقت والشجاعة للتدخل ، الا ان
الأصدقاء والمعارف عندما أمسكوا بالمتصارعين بشدة لم يستطيعوا تحريك
قبضة أحدهما أو ذراعه ، بل لقد أدى ذلك الى زيادة حذق المتصارعين
كما هى العادة – حتى لقد وصل لدرجة مرعية يصعب على العين احتمالها .
لقد ضجت القرية الصغيرة بالجبراك واندفع المخادع القوي بسيفه أو نبوته

(هراوته) فى يده ، وخلال المعركة التى حمى وطيسها ، انطلقت رصاصات من المسدس الذى كان عمر أفندى يحمله فى يده ، ومر المقذوف بالقرب القريب من صفائح تحوى بنا مخاوي (٥) اسود داكنا ، مما لفت انتباه كل مدرسا ، فهدأت المعركة . - نسنا كان ذلك بفعل عصا سحرية . واقسم أحد اصدقاء سعيد العملاق أنه لم يكن عبدا أسود وانما جنسدى فى المدينة المنورة ، وأنه ليس نادلا (جرسونا أو خادما) ، وانما فارس همام . وقد جعل هذا القول سعيد العملاق ينظر من عل باعتباره رجلا مهما ، ررس على كرم محتده باصراره على أن يتناول من كان عدوه الطعام معه ، ولما تردد غريمه بوقار ، سحبه الآخرون لتناول الغداء وسط صخب عال .

لقد خضع اسمى المستعار فى هذا اليوم لاختبار قاس . فبالإضافة للحجاج الفرس وهم مجموعة من الأشخاص ذوى الطباع الغربية التى يصعب وصفها ، والذين قدموا فى السفينة ذاتها ، وكانوا متجمعين حول المقهى ، مستلقين يمدخون ويشربون الماء وينظفون أسنانهم ويسلكونها بخناجرهم ، كان ثمة رجل فضولى كان دائما الى جوارى . وكان يدعى انه من الباتان (الأفغان المستقرين فى الهند) وكان يستطيع الحديث بخمس لغات أو ست ، ويعرف عددا من الناس فى كل مكان وقد سافر فى منطقة وسط آسيا طولا وعرضا . فهؤلاء الرفاق يعتبرون دائما مكتشفين للأسماء المستعارة أو للشخصيات الحقيقية للمسافرين (الرحالة) . لقد تجنبت الاجابة عن أسئلته عن موطنى ، وباعتبارى درويشا فقد طلبت منه - عندما أصر على معرفة موطنى - أن يخمن هو . فأعلن أننى اخ له من الباتان - وكان ذلك باعثة لسعادتى ، وأثناء الحوار ذكر أنه ابن لأخ تاجر أفغانى عجوز ونبيل كان لطيفا معى عندما كنت فى القاهرة . وبعد ذلك جلسنا ندخن معا بالفة ، ولأن العلاقة بيننا أصبحت شخصية ، فقد شكا لى أنه كسنى فقد تعرض لمعاملة سيئة من رفاقه الحجاج الفرس الشيعة (الهراطقة) الذين ضربوه . وكان من الطبيعى أن أعرض عليه أن أسلح جماعتى وأن نحمل نيابيتنا لأثار لابن بلدى (بلدياتى) . فهذه الطريقة السليمانية الأكيدة التى عرضتها تجعله يتأكد أننى فعلا ابن بلده (بلدياته) . وعلى أية حال فقد تراجع وتذكر بحكمة أنه لن يكون مجبرا على صحبتة جماعة الفرس أكثر من أسبوعين تقريبا . لكنه منى نفسه بأشباع رغبته ، بأن يغرس خنجره الأفغانى المربع (الشاراي) فى من اعتدى عليه بمجرد وصوله الى مكة (المكرمة) .

وفى الساعة الثامنة صباح الرابع عشر من شهر يوليو غادرنا مرسى (الوجه) بعد أن قضينا الليل فى راحة نسبية فى المقهى . وأخذنا

(٥) من المخا باليمن - (المترجم) .

معنا المؤن الضرورية رغم أن الرئيس وعدنا بالرسو عند جبل حساني Hassani فى هذا المساء . الا أن أحدا لم يصدقه . لقد أبحرنا بين سلاسل صخرية تحت الماء ورمال ذهبية وأعشاب مائية خضراء ، وفى بعض المواضع كنا نبحر خلال خطوط صفر لما بدا لى على البعد بحرا بعد عاصفة . وطوال النهار كان البحار يجلس أعلى الدقل (الصارى) ينظر للماء الذى غدا شفافا كالزجاج الأزرق ، ويعلن عن الاتجاه الصحيح بصوت عال . الا أن هذا الاحتياط كان غير مجد على نحو ما بسبب الأصوات العالية للحجاج وكأنها زئير والتي كانت تشوش على نداءات التحذير . الا أننا كنا نرفع العلم كل نصف ساعة . ولم تجزع سفينتنا أو ترتطم بالصخر . وفى منتصف النهار تقريبا مررنا بمقام الشيخ حسن الرابط . وهو مبنى عليه القبة المألوفة ، ومطلى باللون الأبيض ، ويحيط به أكواخ يقيم بها حراس المقام ، ويقع المقام (القبر) على جزيرة منخفضة مسطحة تتكون من صخور صفراء وقد ذكرنى هذا المنظر بمناظر شبيهة رأيتها فى بلاد السند . لقد لفت موقعه الموحش انتباه المسافرين العابرين . ولهذا الشيخ الرابط دعاء خاص يقرؤه المسافرون بالاضافة الى الفتحة على روحه ، ويتبع الخطاه الذين هم على قيد الحياة طريقته فى التعبد المبنية على الاحياء الدينى (أو التعبد غير التقليدى المعتمد على السمو الروحى - religious refreshment

ولما قرب ميعاد غروب الشمس وهبت النسائم منعشة رسونا نحن والحجاج الايرانيون عند صخرة تعد احدى الشعاب المرجانية المشهورة فى البحر الأحمر ، ويؤكد هذا المنظر صدق الوصف الرائع الذى قدمه فورسكال (forskal) ، باعتباره هذه الصخرة احدى فلتات الطبيعة الرائعة . Luxus lususque naturae . لقد كانت هذه الصخرة رصيفا هائلا لا يرتفع الا قليلا فوق مستوى العمق ، وكان جاذب الماء عموديا كجدران القلعة ، وبينما السفينة الشراعية تطفو على بعد ياردة منه تجد كل موجة تتحطم فوق هذا الحديد البحرى (الصخرة أو الشعب) ، تعيد ملء الأحواض الصغيرة والتجاويف الموجودة على السطح . وكان لون الأمواج بالمقرب منه بنفسجيا أو أرجوانيا مفعما بالحيوية . وعلى البعد، ترتاح عين الراى فوق ما يبدو مروجاً لزهور رائعة تماثل زهور البرية ، وان كانت تبدو أكثر اشراقاً وأعمق فتنة وبهاء . وما كانت هذه الأرض البحرية معزولة تماما ، فالنوارس (جمع نورس) وطيور الخرشنة تسبح هنا وتحط على الشعاب المرجانية وتلتهم فرائسها . وفى الجو ، نجد أسراب الطيور تتنافر محدثة ضجبا هائلا ، فى اصطياح الجراد ، وتطارد فى المياه العميقة أمواج الأسماك التى راحت تسرع برعب هائل للهروب

من هذه المطاردة مما أدى الى حجب سطح البحر بالمرذان والزبد . وكلمنا
 اقترب الليل ، تغير المنظر رويدا رويدا ، وبدأت للعيان فنون أخرى من
 الجمال . فقد ارتدت خلفية المنظر ثوبا من ظلال ، وعممة موحية ، مطلقة
 العنان للخيال . وفي الجانب الأمامي لهذه الصورة يقبع البحر متلألئا
 ببريق معدنى تحت ضوء القمر ، بينما حواف الصورة تتمثل فى موجيات
 (تصغير أمواج) تتحطم على الشعاب (الحیود) كانت تلمع بفعل ما
 يسميه العرب جواهر الأعماق - وهى ومضات لامعة من ضوء فوسفورى
 يقدم لنا فكرة عن البهاء والسناء ، قد يعجز الفن عن تقليدها . فهذه
 الصورة تشكل - فى وقت واحد - قطعة من أرض الجن ، ومسرحا
 للحواريات والهة البحر تلهو جميعا عليها ، فقد تكون قد سمعت - دون
 دهشة - عن بروتيس القديم Proteus يدعو قطعانه (أسرابه) الى
 محارقه المجدولة ، وأفروديت جالسة فى قوقعتها (خدرها) فى أوج
 فتنتها وجمالها . الا أن :

« لكل بياض خلفية سوداء

ولكل حلو حموضته » (٦) .

كما دلت على ذلك الملاحظة الفلسفية التى أبدىها السير كولین
 Cauline ، فهذه الشعاب المرجانية الرائعة كادت تكون مسرحا
 لحادثة بشعة . فالنسائم الباردة الآتية من البحر تدفعنا دفعا رقيقا - لكن
 بشكل مستمر - صوب الشعب المرجانية (الحیود البحرية) وهى حقيقة
 سرعان ما أصبحنا على وعى بها . ولم يكن لدينا حبل يبلغ طوله طولا
 كافيا للوصول الى القاع ، وعيننا حاولنا الحصول على مزيد من الحبال .
 والحق أن سفینتنا (السلك الذهبى) كان يعوزها بشكل مخجل كل وسائل
 الأمان كآية سفينة تجارية انجليزية فى القرن التاسع عشر . فالظروف التى
 تؤدى الى ارتطام السفن ، وفقدان الحياة بشكل مرعب ، تحدث بشكل
 دائم فى موسم الحج فى هذه البحار . فإذا حدث أن ارتطمت السفينة
 بحواف الشعب المرجانية التى تشبه شفرة حادة ، فانها سرعان ما تختفى
 فى البحر ، وكأنها ذابت كقطعة الحلوى فى الماء ، لأن المد كان مرتفعا
 فى ذلك الوقت . وبدأنا نحدث جلبة وضوضاء بقدر استطاعتنا ، ما دمنا
 لا نملك فعل شيء أفضل من ذلك . ولحسن حظنا ، فان الرئيس طلب

(٦) المعنى يمثل الشاعر العربى :

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغرن بطيب العيش انسان - (المترجم) .

قاربا يملكه فارسي ، فاذا برىانه عربى من جده ، كنا قد تعاملنا معه أكثر من مرة بأريحية كبيرة ، وقد استنتج سبب الخطر الذى نعانى منه ، فأرسل اثنين من بحارته بحبل من فوق جانب مركبه الى البحر ، فسبحا بمهارة الينا ، وفى غضون دقائق قليلة كنا قد ربطنا سفينتنا بأمان فى مؤخرة سفينة جارنا المفيد . وقد وطننا أنفسنا للقيام بعمل معبر عن الشكر والامتنان يتمثل فى ضرب ريسنا (ريس سفينتنا) وقد كان يستحق ذلك عن جدارة . وقبل الظهر عندما تغيرت الرياح لم يسبب لنفسه الازعاج برفع العلم ولما خمدت الرياح ، فضل انتهاز فرصة ما تبقى من ريع موأتية . وبشق الأنفس ، استطعنا أن نرسو بسفينتنا براحة عند جانب جزيرة حسانى Hassani ، بدلا من أن نبدر فى بحر غير هادئ بالقرب من شاطئ تهب الرياح فى اتجاهه . وهو - أى الشاطئ - زاهر - بالشعاب المرجانية على بعد ياردات قليلة من مؤخرة سفينتنا .

وبدأنا الإبحار فى فجر اليوم التالى (الموافق ١٥ يوليو) . واجدنا جبل حسانى عند الظهر تقريبا ، وقبل غروب الشمس بساعة أو نحوها انزلنا الى مرسى مهـار Mahar . وكانت مرسانا هذه شبيهة بمرسى الدميغة Dumayghah غير البعيدة عنها . وكانت جوانب هذه المرسى (الخليج الصغير) - على أية حال ، أشد تحديرا من جوانب مرسى الدميغة . وتتخذ الصخور الجيرية مظهرا مميزا فى هذا المكان ، وفى بعض الأجزاء نجد القاعدة والجدران قد تفتت مخلفة تجويفا يشبه الظلة ، وفى مواضع أخرى نجد الرياح والأمطار قد تسببت فى حفر عميقة ، واخترقت المواد الهشة فصنعت كهوفا كبارا تبدو وكأنها عمل فنى . وكان ثمة فتحة كبيرة فى مكان قصى من قاع المرسى (الخليج الصغير) . والنخيل التى أحاطت بها زرقاة السماء ، تشكل على البعد منظرا يبعث على البهجة والمسرّة ، فطالما تأقت أعيننا لرؤية بعض من الخضرة . وشرع الرئيس - كالعادة - يبيت الرعب أينما بوصفه قبيلة هتيم Hutaym التى تقطن هذه الأنحاء ، مع أننى أعلم من قساعة ولستد Welsted ومورسبى Moresby أنها قبيلة قليلة القيمة ، إلا أن بقاءنا متشنجين طوال ثمان وأربعين ساعة على ظهر السفينة قد يجعل المرء لا يتوقع - الا قليلا - خطرا أعظم مما كان فيه .

وقد جرحنا الصخور أقدامنا ونحن نخوض الى الساحل ، واتذكر أننى شعرت بالألم مبرح من جراء شئ غرس فى أصبع قدمى ، لكن بعد النظر فى موضع الألم استخرجت ما بدا قطعة من الشوك . وبعد أن تسلقنا الجانب الصخرى بهذا الخليج الصغير (المرسى) من جهة البر ،

وجدنا بعض البدو نصف العرارة يتمددون فى الظل . وكانوا غير مسلحين . وليس من شئ أقوله عنهم سوى أن محياهم ينم عن هدوء ذليل لا يخيف الا أكثر الناس جبنا . ولأزال هؤلاء الناس يعيشون فى كهوف حجرية كما كانت تعيش قبيلة ثمود وفقا لما تقوله الرويات . وهم من أكلة الأسماك فليس لديهم ما يتعيشون منه سوى ما يوجد به البحر عليهم ، فلم يكونوا قادرين على أن يقدموا لنا البلح الطازج أو اللحوم أو الحليب ، لكنهم باعوا لنا نوعا من الأسماك يسمى فى الهند « بوى Bui » مشويا على الجمر وكان مذاقه جيدا .

وبعد أن أكلنا وشربنا ودخنا ، بدأنا نمرح . وكان العجم (الفرس) الذين - بسبب خوفهم من القდوم للساحل - قد بقوا مع منقولاتهم ، وبدوا أضحوكة (مجالا للسخرية) لبعض الطرقات من مجموعتنا ، فوقف أحدها وراح يؤذن ، وبعد ذلك راح الباقيون يرتلون ترتيلات جدلية (يفندون فيها أقوال الشيعة) ويعدون مناقب أبى بكر وعمر وعثمان (رضى الله عنهم) . وبعدئذ - وكما يحدث عموما فى مثل هذه المناسبات - تحول الأمر الى خلاف شخصى ، إذ قال صبيبة مشردون من مسكة (المكربة) لهؤلاء العجم بما يشبه الغناء انهم - أى العجم - بمثابة أذنية (شباشب) لعلى (رضى الله عنه) وأنهم مجرد كلاب لعمر (رضى الله عنه) . وعقد الرعب السنة العجم فلم يردوا ، فجمع رفاقى (٧) أدوات الطبخ الخاصة بهم وعادوا الى السفينة (السلك الذهبى) منكسرى خاطر ، كالمرشح الذى فقد أمله فى الفوز (٨) .

وكان يومنا التالى صامتا مخيفا ، ذلك لأننا كنا جميعا مكفهرين وقلوبنا متوجسة خوفا من ركوب السفينة مرة أخرى . لقد كان يجب أن نصل الى ينبع فى المساء ، إذ تخلى (ريسنا) عن كسله . ولأننا ضربناه كما ينبغى أن يكون الضرب فقد رسا بنا فى ساحل مفتوح لا تحميه الحيود البحرية بشكل كاف - وغالبا على مرأى من الجهة التى نقصدها . فعلى مسافة يشمخ أمامنا جبل رضوى Radhawah or Radhwo وهو أحد

(٧) يقصد المعجم - (المترجم) .

(٨) النص :

واكتفينا بما ورد بالمتن لأدائه يفرض توضيح المعنى - (المترجم) .

“Like disappointed candidates for the honours of Donnybrook”.

جبال الفردوس • وهو جبل مشهور فى الشعر العربى ، كما أنه مشهور
بجماله

وهو - أى جبل رضوى - يمد المدينة (المنورة) بأحجار السن
(احجار صلبة تشحن عليها السكاكين والشفرات) • وقد سمعت كثيرا
عن وديانه وفاكهته وعيونه الفوارة ، لكننى بعد ذلك علمت أن هذه مجرد
حكايات ترتبط بالتراث الغيبي المرتبط به • وقد لاحظ أحد رفاقنا ملاحظة
فضة • بعد أن حملق فى مرتفعاته العارية الشاحبة ، بأن هذه الكومة
الحجرية القبيحة تستحق أن تلفظها السماء ، ولابد أن حاجة رفيقى هذا
للخبز الطازج ، هى التى خمرت لديه هذه الفكرة • لقد خضنا الى
الساحل • وطهينا طعامنا هناك ، وقضينا الليل ، وكان يعوزنا الماء القراح .
بالاضافة الى أمور أخرى مما جعلنا مكفهرين متوترين كالدببة • لقد كان
سعد العملاق - بالذات • مكفهرا متوترا أكثر من غيره ، فقد
كانت عيناه تحمقان فى الأرض بثبات ، وكانت شفثاه متدليتين حتى انه
يمكنك أن تسحب وجهه منهما ، وكان فمه مزخرفا بتجاعيد قبيحة (كان
مشقق الشفتين) ، ولم يفتح فمه الا ليقذف منه سيلا من الكلمات القبيحة •
لقد سلى نفسه هذا المساء بالمزحف ببطء على أطرافه الأربعة فوق الولد
محمد ، ووضع بعناية فائقة ركبته فوق الوجه النائم • واستيقظ الولد
محمد محنقا غاضبا ، فأغرقنا جميعا فى الضحك ، أما الزنجى العباس
- فبعد أن ذاق طعم نجاح مقلبه (دعابته الثقيلة أو نكايته) ، لف نفسه
وهو نصف راخ - كالقنفذ وراح فى شخير مزعج طوال الليل •

لقد نمنا فوق الرمال واستيقظنا قبل فجر اليوم السابع عشر من
شهر يوليو ، وعقدنا العزم على اجبار الرئيس على الابحار فى الوقت
المحدد هذا اليوم • وكان علينا أن ندور دورة شبه كاملة لتجنب منزلق
من الأرض يفصل بيننا وبين مرفئنا بالاضافة الى أن الريح لم تكن مواتية .
ولكثرة الصخور والأماكن المضحلة •

وفى حوالى الظهر من اليوم الثانى عشر من مغادرتنا للسويس ،
خاضت بنا سفينتنا ببطء فى خليج ضيق يؤدى الى ميناء ينبع ، ثم ركبنا
أحد قوارب الساحل وانطلق بنا الى الميناء (ينبع) وشعرنا كأن الله
أعطانا حياة جديدة عندما ودعنا الى الأبد سفينتنا الحقيبة (السلك
الذهبي) •

وكان يمكننى أن أتخاشى هذه المشاق والمعاناة بأن استأجر مركبا من
مراكب الساحل لنفسى فيكون لى (كابينة) ألود اليها فى الليل ، ومكان

ظليل اتقى به وهج الشمس ، وأكثر من هذا فانها ستختصر الوقت فتجعل
الرحلة خمسة أيام بدلا من اثني عشر يوما . لكننى ازوررت عن كل هذه
المزايا لرغبتى فى مشاهدة مناظر سفن الحج ، تلك المناظر التى طالما تحدث
عنها الحجاج العائدون لديارهم ، بالاضافة الى أن الايجار كان يكلف مبلغا
باهظا يتراوح بين أربعين وخمسين جنيها استرلينيا وما يستتبع ذلك من
مصاريف اضافية . ففى هذه البلاد يتحتم عليك أن تستمر كما بدأت ، فمن
غير الممكن أن تنفق بتقشف بعد أن كنت تنفق بسخاء . لقد غادرنا الآن
ارض مصر .

الفصل الثمانى عشر

التوقف فى ينبع

تجارة البحر الاحمر - حاكم ينبع - وصف ينبع - عين البركة - عين
على - السلاح - الثياب - الحازمى - وصف شيخ عربى - الحمائل -
محمد شقيلها - الغناء فى ضوء القمر .

لقد حاق الضرر بقدمى بسبب حرارة الشمس والرطوبة العالية
وابتلالها تباعا بمياه البحر ، لدرجة أذنى عندما وصلت الى ينبع لم اكن
بمستطيع - الا بالكاد - أن أضعها على الأرض . الا أن واجب الرحالة هو
أن يتجول ويرى ، ولذا فقد اتكأت على كتف عبدى . وشرعت ذات مرة فى
رؤية ينبع بينما اتخذ الشيخ حامد وآخرون من رفاقنا سبيلهم الى
الجمارك .

وينبع البحر (ينبع تعنى ينبوعا أو نافورة) التى عرفها بروس
Bruce فى رحلاتها الحبشية بأنها قرية يمبيا البطلمية Iambia Village
of Ptolemy - لها موقع ذو أهمية كبيرة ، وتشترك مع
مواقع أخرى فى أنها بوابة للديار المقدسة . وتقع ينبع البحر عند ثلاثة
أرباع المسافة من القاهرة الى مكة المكرمة بطريق القوافل . وفى ينبع
- كما فى بدر - يترك الحجاج بضائعهم وحاجاتهم الثقيلة جدا التى
يصعب نقلها فى عجلة فى مخازن يستأجرونها ، كما يتركون أيضا
حاجياتهم الثمينة التى يصعب المخاطرة بنقلها معهم فى الفترات التى ينعدم
فيها الأمن . ولكون ينبع ميناء المدينة (المنورة) - كجدة التى هى ميناء
لمكة (المكرمة) - فان بها تجارة نقل معتبرة ، وتجارة استيراد كبيرة من
موانئ غرب البحر الأحمر ، تزود مدن الحجاز الرئيسية بالغلل والتمور
والحناء . وهنا (فى ينبع) يفترض أن تبدأ هيمنة (سيادة) السلطان ،

وتنتهى سلطة باشا مصر • ولا يوجد جيش نظامى (١) على أية حال فى ينبع ، فالحاكم هو الشريف أو أحد الشيوخ العرب • وقد قابلته (الشيخ العربى أو الشريف فى السوق الكبيرة • وهو شاب وسيم خفيف الظل ذو لباس جميل وعمامة كشميرية ، ومسلح بسيف وخنجر ، ويتبعه عبدان زنجيان نوا بنيتين ضخمتين ، ولهما نظرات نارية قاسية ويحمل كل واحد منهما نبوتا رهيبا •

وينبع ذاتها ليست ملفتة للنظر • فهى مبنية على حافة سهل سفعتة الشمس يمتد بين الجبال والبحر • وتواجه الطرف الشمالى لخليج ضيق ومتمتع (ملتق) • وتبدو ينبع من الميناء خطا طويلا من المبانى ظهر بياضها الشاحب مقارنة بلون السماء الفضى كالكرياليت • وزرقة البحر الشديدة كلون النيلة ، وخلفها مسطح من الأرض ذو لون أسمر داكن أو بنى ، وجانب من هذا المسطح ذو لون أسمر مصفر مفعم بالحيوية ، أما خلفية الصورة فيمثلها جبل رضوى ذو المنظر الكئيب انه حقا :

« قاحل عار قبيح خال من الجمال »

« Barren, and bare, unsightly, unadorned »

وخارج أسوار ينبع ، توجد قباب قليلة وقبور ، تلفت النظر • أما داخل المدينة (ينبع) فالشوارع عريضة والمسالك متباعدة (٢) الا بالقرب من الميناء والأسواق حيث يزداد سعر الأرض • وقد شيدت المساكن بشكل يداى من الحجر الجيرى والأحجار ذوات اللون المرجانى ، وأسوارها ملبنة بالأحافير ومثقبة كقطيرة اللون • ولهذه البيوت نوافذ ضخمة مرتفعة • لا تقل سقما عن نوافذ أحياء المسلمين فى القاهرة • رفى ينبع شوارع السوق حيث يتخذ شكله المعتاد فهو عبارة عن شارع ضيق مسقوف بسعف النخيل ، وبضعة دكاكين قليلة على جانبى الطريق ، وهذه الدكاكين تمثل جزءا من بيوت أصحابها • وقد وصفت فى الفصل الأخير مقاد شبيهة بما هو موجود هنا • فقد تحولت هذه المقاهى الى كتل من القذارة بفعل

(١) Nizam أى النظام والمقصود هنا جيش نظامى حيث كان مصطلح « نظام » فى هذا العصر يعنى الجيش النظامى - (المترجم) •

يقول بيرتون : ان «النظام» كما يفهمه الأوربيون الآن يعنى جيش المشاة التركى • وفى الحجاز لا تتمركز الفرق النظامية فى المدن الصغيرة مثل ينبع • فهى هذه المدن الصغيرة تبدو الخيالة غير النظاميين كافين لحفظ أمن المسافرين • ويبدو أن شرطة ينبع تتكون من عبيد الشريف الأقوياء • وأيام على بك كانت ينبع تابعة لشريف مكة •

(٢) استخدم بيرتون تعبير Unsociable distance وهو يعنى أن المسافات بين المساكن متباعدة مما يدل على قلة التواصل الاجتماعى ، أو غلبة الروح البدوية - (المترجم)

المسافرين المترددين عليها ، ومن الحال أن تجلس فى احدها دون أن يكون معك مروحة أو مذبة لتذبذب الذباب بعيدا عنك . وتواجه مصلحة (مركز) الجمارك موضع رسو السفن فى الميناء ، ويديرها مسئولون أتراك يضعون الطرابيش على رؤوسهم يقضون نهارهم كاملا متكئين على الأرائك الى جوار النوافذ . وبالنسبة لنا نحن المسافرين فان مسئولى الجمارك الترك ، الأنف ذكروهم ، لم يبدلوا الا جهدا يسيرا ان فرضوا على كل صندوق كبير ، ثلاثة قروش ، وا لم يعفوا أنفسهم من العبث فى محتوياته (٣) .

وتفخر ينبع ايضا بحمامها ، وهو مجرد ظلة من سعف النخيل يستأجره تركى عجوز ، يتعشى هو ومساعداه الألبانى الفظ من غسل الحجاج والمسافرين وتنظيفهم . أما بقية المباني العامة فتتمثل فى بعض المساجد ذات المعمار البسيط مطلية باللون الأبيض ، ووكالة أو وكالتين لاستقبال التجار ، وقبر أحد الأولياء .

ولينبع أن تتباهى على معظم مدن شمال الحجاز فى أمر واحد . ان يمكن لأهل ينبع أن يقدموا ماء المطر العذب الفاخر الذى يجمعونه من بين التلال حيث يتجمع فى خزانات ويحملونه على ظهور الابل الى البلدة ، وتحظى مياه عين البركة وعين على (٤) بثناء الناس هنا ، ومياههما تكفيان كل أهل ينبع . أما مياه الآبار التى تعثر بها الملوحة فتستخدم لأغراض أخرى غير الشرب .

وبعض العجائز هنا - كما فى السويس - يقال انهم يفضلون الشرب من مياه الآبار المالحة بحكم تعودهم عليها ، حتى انه ليقال على سهيل الفكاهة انهم اذا ذهبوا للقاهرة ، لأضافوا لماء النيل ملحاً ليجعلوه مستساغاً .

وسكان ينبع يفاجئون عيون المسافرين القادم من مصر ، لأنهم يمثلون ظاهرة جديدة بالنسبة له بالتأكيد ، فهم أحد أكثر أجناس شمال الحجاز

(٣) هذه - فيما أعلم الضريبة الوحيدة التى يحصلها السلطان من سكان شمال الحجاز . ويقول الناس انها ضريبة مناسبة للمناطق كثيفة السكان ، وهو أمر متوقع من سكان المناطق البعيدين عن عاصمة الدولة (العثمانية) . ولما استولى الوهابيون (السلفيون) على ينبع فرضوا ضرائب كالتى فرضوها على غيرها . (يقصد جمع الزكوات) لذا فقد كرههم أهل ينبع . (بيرتون) .

(٤) رغم استخدام كلمة « عين » هنا Ayn al-Birkat Ayn Ali
الا أن المعنى كما هو واضح من السياق أنها أماكن أو مواضع أو خزانات لتجميع مياه الأمطار - (المترجم) .

تعصبا ورغبة فى المشاكسة والعراك . فالشيخ (الوجيه) منهم مسلح تسليحا زائدا عن الحد ، وملتحف بثياب كثيرة وفقا للعادات المتبعة ، أما شيخ العرب (طاغية الصحراء) فيملأ أوامره على أى شخص تابع له . والمسافر المتمدين من المدينة (المنورة) يخرز فى حزام وسطه مسدسا معمرا مزينا بشريط قرمزي وأن كان يخفى الطرف الغليظ لمسدسه تحت عباءته (أو معطفه) . والجندى غير النظامى يسير مختلا على الشارع وهو مدجج بالسلاح . فنظرة واحدة لهيئة الرجل تنبئك من هو . وهنا وهناك تجد البدو يمشون باختيال متجهمين ، على وجوههم سيماء التوجس كسائر أهل الصحراء ، تنطق هيأتهم بالفخر وادعاء العظمة والسفالة . وهم أيضا مدججون بالسلاح ، ولا يستطيعون الإبقاء على سيوفهم فى أغمادها (جمع غمد) حتى فى حضور الشرطة المدججة بالنبايت (٥) . وحتى المسلمون من أهل ينبع لا يخرج الواحد منهم من بيته الا وقد حمل نبوته على كتفه اليمنى ، فالنبوت هو أثقل الأسلحة وأطولها وأسمكها ، وأهل ينبع متمرسون فى استخدام النبايت باتقان ، وقد أصبحوا خبراء فى تلقى ضربات الرأس العنيفة ، وهم يحسمون عراكمهم العادى دائما بهذه النبايت . ولا يختلف لباس نساء ينبع عن لباس نساء مصر الا قليلا اللهم الا فى الحجاب ، فحجاب الينبعيات أبيض بشكل عام . وثمة ملمح يميز رجال ينبع عن سواهم وهو ملمح غريب عن أهل الشرق ، فهم فخورون بأنفسهم دون تبجح أو ادعاء . ويبدون شجعا شرفاء دون غرور وفى مشيتهم شئ من الاختيال ربما يشبه الاعتزاز بالذات الذى يتحلى به المقاتلون ، دون عدوانية . وأكثر من هذا ، فسكان ينبع يبدون فى صحة جيدة ، ولأننى قادم من مصر لتوى لم أستطع أن أتبين عدم إصابتهم بأمراض العيون . وأطفال ينبع يبدون كذلك نشيطين .

وقد وجدنى رفاقى فى أحد المقاهى حيث كنت جالسا لاستحم مما ألم بى من إرهاق اثر تجوالى فى ينبع بقدمى الجريحة . لقد كان رفاقى قد مروا بصناديقهم على الجمارك وبعد ذلك راحوا يسألون عنى فى كل مكان، قائلين «أين الأفندى ؟» . وبعد الجلوس لمدة نصف الساعة نهضنا لنرحل ، عندما دخل تاجر عربى عجوز كنت قد قابلته فى السويس . وأصر هذا التاجر بأدب على دفع ثمن قهوتى ، دلالة على اهتمامه بى ، وكانت هذه العادة تحمل الدلالة نفسها فى فرنسا فى الأيام الخوالى . لقد ذهبنا بعد ذلك للوكالة بالقرب من السوق حيث كان رفاقنا قد هياؤا

(٥) أشرنا للنبوت فى حاشية سابقة - (المترجم)

لنا غرفة علوية منعشة الهواء لها شرفة فى مواجهة البحر وخالية - على نحو مقبول - من الذباب الذى يعد بمثابة طاعون فى ينبع . وكانت هذه الغرفة قد استأجرتها جماعة من المسافرين قدموا أنفسهم لى باعتبارهم اخوة عمر أفندى كانوا قد قابلوه صدفة فى الشارع قبل بداية رحلتهم لاسطنبول (القسطنطينية) بيوم واحد ، حيث كانوا يزعمون السفر اليها (اسطنبول) لاستلام الاكرامية Ikram . وكانت الأسرة كما سبق أن ذكرت ، من داغستان (جركسى أو شركسى Circassia) ولازال (٦) رجال هذه الأسرة يبدو فى ملامحهم بوضوح ما يدل على أصلهم الشمالى ، فجلودهم صفراء خفيفة ، وشفاهم حمراء ولحاهم هزيلة (خفيفة) . لقد كانت أكتافهم عريضة ، وأطرافهم ضخمة ، ويتميزون برزانة فظة وربما كان تعبيرهم هذا (الرزانة الفظة) نتيجة تشككهم فى ، لأننى لاحظتهم وهم يتفحصون - عن قرب - كل حركة من حركاتى أثناء الوضوء وأداء الصلوات . وكان ذلك فرصة طيبة لى ، لاطهار الالتزام الكامل بأداء هذه الفرائض كما يؤديها المؤمن صادق الايمان . وقد نجحت جهودى - كما أعتقد - فى أن يعاملونى كمجرد مسافر غريب لا يتوقعون منه شرا . ولا يستحق اهتمامهم الا قليلا .

وبعد ظهيرة يوم وصولنا ، أرسلنا نطلب المخرج Mukharrij (وهو مؤجر الدواب) وبدأنا نهىء الجمال . فعم جمل كان رجلا محترما من أهل المدينة (المنورة) جعل من نفسه متحدثا رسميا ، وبعد جدال طويل تمت الصفقة (بالنسبة لشيوخ الجمال ومرافقه البدوى فقد كانا من نوع الرجال الذين يثيرون المتاعب من أجل مبلغ تافه ، لقد كانا على استعداد للحرب من أجل ربع بنس « فارزنج » ولم نكن أقل منهم حرصا) وقد وافقنا أن ندفع ثلاثة دولارات لقاء استئجار الدابة الواحدة ، على أن ندفع دولارا ونصف الدولار مقدما والنصف الآخر بعد الوصول الى هدفنا ، وعلى أن نبدأ السفر فى مساء اليوم التالى مع قافلة الغلال التى يحرسها حرس من خيالة غير نظاميين . لقد استأجرت دابتين ، دابة لمتاعى وخادمتى وأخرى لأركبها ومعى الولد محمد ، واشترطت أن تكون الدابة التى أركبها أنا والولد محمد . أحسن الدواب ، وأنه اذا خرت الدابة فى الطريق أعطونى بديلا عنها . ولم يستطع أصدقائى اخفاء اضطرابهم ، عندما

(٦) لفظ عامى مازال مستخدما - وينطق بتشديد الراء وكسرهما - (المترجم) .

أخبرهم المخرج the Mukharrij أن قبيلة الحازمي Hazimi كانت خارج مضاربها وأنه - لذلك - يتحتم على المسافرين أن يحاربوا ، كل يوم (دفاعا عن أنفسهم) واشترك الداغستانيون Daghanis أيضا في تحذيرهم . فقد قالوا : « لقد قابلنا ما بين مائتى شرير وثلاثمائة ، فى منطقة Razzia بالقرب من المدينة (المنورة) ، وألقينا عليهم السلام فلم يردوا علينا رغم أننا جميعا كنا نركب الجمال ، وقد سألونا ان كنا من أهل المدينة (المنورة) فأجبناهم قائلين « نعم » وأخيرا فقد أرادوا أن يعرفوا الجهة التى نقصدها فقلنا لهم بير عباس Bir Abbas » وقد كان البدو الذين صحبوا الداغستانيين ينتمون لبعض القبائل غير المرتبطة بقبيلة الحازمي . وأدار المتحدث باسمهم رأسه ، ولم يزد إلا ان قال : « الله يحفظنا » . وثمة شاب هندي من المجموعة - كنت أشك بشدة أنه سرق ذات ليلة مطوأتى (سكين الجيب) my pen-knife قد أظهر جيبنا بترديده الكلمة الهندوستانية « ميان Miyan » وتعنى « سيدى » وذلك بالنظر مذعورا عندما تخيل المخاطرة المهلكة التى يوشك أن يخوضها . وقال لى الشيخ نور : « يجب أن ننتظر حتى ينتهى كل هذا » وقد أخبرته أن يصمت ، ونهرت الولد محمدا بشدة لطبيعته التى تجعل تصرفه سيئا عندما يجد نفسه فى بلاد أو مناطق جديدة بالنسبة له . لقد قلت « لماذا أنتم سباع فى القاهرة ، وقطط ودجاج فى ينبع » . وعلى أية حال لم يمض وقت طويل قبل أن تعود صفاقة الشاب ووقاحته عليه بمزيد من الضرر .

لقد جلسنا فى فترة ما بعد الظهيرة فى غرفة صغيرة تطل على الشرفة كان ما تعكسه علينا من حرارة بالاضافة للرياح الملتهبة التى تهب علينا من المناطق المقفرة المحيطة بنا تشكل أمرا مزعجا حتى بالنسبة لرفاقي . وبعد غروب الشمس تناولنا عشاءنا فى الهواء الطلق ، وكنا جماعة تبلغ العشرين من سادة وخدم وأطفال وغرباء . وتم تجميع ما أتيح من وسائل وحواش فى دائرة لتشكيل مجلس (ديوان) وتحلق الجميع حول قدرا كبيرة مليئة بالأرز المسلوق الذى يحوى قطعا كبيرة من لحم الضأن وقد غطى (الارز واللحم) بالزبد المقدوح . وكان سعد العملاق يبدو الآن فى قمة عظمتة وأبهته . فليست هناك مناسبة أفضل من هذه تمده بالنوادير ، فلسانه يبدو متحركا بذراية لا حد لها ، فهو يحيى كل الرجال بصخب مرح ويتدخل فى خصوصيات الآخرين . واستمر السمر بعد ذلك ، أثناء تدخين الشيشة واحتساء القهوة حتى العاشرة مساء وهو وقت متأخر فى هذه الأنحاء ،

ثم صلينا العشاء (٧) ثم فرشنا الحصر فى الشرفة ونمنا فى الهواء الطلق .

وقضينا صدر نهار اليوم التالى فى شراء أشياء مختلفة وتزودنا بما يكفينا سبعة أيام تحسباً لرحلتنا المقبلة وأعدنا حزم أمتعتنا ، وصقلنا أسلحتنا ، وأعدنا حشوها ، وارتدينا ملابس تلائم الطريق الذى سنسلكه ، فقد ليست لباسا عربيا بنساء على نصيحة عم جمل لأتجنب دفع الجزية أو ضريبة الرأس التى تفرضها القبائل المستقرة على جانبى الطريق على المسافرين الغرباء ، وحذر عم جمل من الحديث بأية لغة غير العربية حتى مع خادمي عندما نكون قرييين من احدى القرى . وقد اشتريت شقدوفا a shughduf بدولارين لأحقق الراحة لنفسى . والششقدوف (أو الشجدوف) وسيلة مناسبة للنساء والأطفال وكبار السن والفرسان . أو الرجال المتأففين والأشخاص ذوى البنية الرقيقة التى تجعل ركوب الدواب أمرا شاقا بالنسبة لهم . ويرجع سبب استئجارى شقدوفا الى أن تسجيل الملاحظات وأنا داخله أيسر من تسجيلها وأنا على ظهر الجمل مباشرة بلا شقدوف .

لقد تناولت جماعة غداها مبكرا فى ذلك اليوم ، بسبب إيقاف الجمال عند البوابة منذ الظهيرة . وعانينا كالمعتاد فى تحميلها ، فأصحاب الجمال راخوا يصيحون ويصخبون بسبب الأحمال الزائدة عن الحد ، بينما يصبح أصحاب البضائع مقسمين أن طفلا صغيرا يمكنه تحمل مثل هذه الأحمال ، فى حين أن الجمال قد انحازت لرأى أصحابها ف راحت تن أنينا يبعث على الشفقة ، و راحت ترغى وتزيد ، بانذلة محاولات عنيفة لعض محملها ، منتهزة الفرص بلماحية ونكاء لاسقاط نصف حمولتها من صناديق وغرائر على الأرض . وفى حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر كنا جميعا جاهزين - فالجمال صفت فى طابور ، كل جمل خلف الآخر ، ووقفت مستعدة فى الطرقات . لكن كما هى العادة مع المسافرين الشرقيين فقد انتشر كل الرجال حول المدينة (ينبع) لذا فلم نستطع امتطاء دوابنا للرحيل الا فى وقت متأخر بعد الظهر .

ويتحتم على الآن أن أعطى لنفسى الحرية لأقدم للقارئ صورة شيخ عربى مجهز تماما للمسفر . فلا شئ يمكن أن يكون منظرا جديرا بالتصوير

(٧) ربما كان اسم تدليل - (المترجم) .

من لباسه ، فمما يؤسف له أن نرى هذا الزى يتغير فى المدن والمناطق الأكثر تحضرا • قرأس الشيخ العربى ذات الشعر الطويل أو الحليقة قد علتها طاقية بيضاء من قطن ، يعلوها (أى الطاقية) كوفية Kufiyah من حرير وقطن مختلطين ، لونها - عموما - أحمر باهت ، وحوافها صفراء صفرة خفيفة ، محاطة بفتائل حريرية مجدولة يتدلى منها شراريب (جمع شرابة) تصل الى خصر المقاتل • ويثبت الكوفية على الرأس عقال يعقد من الخلف ، والعقال عبارة عن ثلاثة حبال مجدولة من الصوف تعقد من الخلف ، وتتدلى الكوفية لتظل على العينين ، وتعطى بهيئتها التى وصفتها آنفا منظرا مربعا للابسها • وفى مناسبات معينة يغطى لابسها نصف وجهه السفلى جاعلا طرفها خلف رأسه • وفى هذه الحال يكون لابسها ملثما أى أنه جعل غترته (كوفيته) لثاما Lisam • ويقاثل المشايخ أو الزعماء عادة وهم ملثمون ، واللثام هو وسيلة التكر المعتادة عندما يكون الرجل خائفا من أن يثار منه أحد ، كما تنلثم المرأة عندما تشرع فى الأخذ بثأرها her sar (thar) ، كما يستخدم اللثام عندما يكون الجو حارا لاتقاء الحرارة أو عندما يكون الجو باردا لاتقاء نزلات البرد (الالتهاب فى القناة التنفسية) •

أما لباس الجسم فهو ببساطة قميص قطنى بأكمام محكمة ، مفتوح من الأمام ، ومزين حول الخصر والرقبة (الياقة) وأسفل الصدر ، بتطريز مشبك ، ويغطى هذا الثوب البدن كله من الرقبة الى القدمين • ويلبس بعض العرب سراويل واسعة الا أن البدو يعتبرون ذلك نوعا من التخنت (٨) •

بل ان البدو لا يلبسون حتى العباءات كما لا يلبسون الجوارب • وفوق القميص الآنف ذكره ، يلبس الشيخ العربى عباءة من شعر الجمل ، قصيرة أكمامها • والعباءات على أنواع مختلفة ، فمنها ما هو من حرير

(٨) اختلف الوضع بعد ظهور الحركة السلفية فى شبه الجزيرة العربية (حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب) اذ أصر السلفيون على تقصير الثوب باعتبار أن وصول الثوب الى القدمين (حرام) تبعا لظاهر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (ما تحت الكعبين فى النار) ، لكنهم عادوا عندما أذى البرد الاله الحر هذا الجزء غير المغطى بلبس سراويل طويلة تحت الثوب القصير لتغطية ما لم يغطه الثوب ، باعتبار أن الحديث الشريف وفقا لتفكيرهم نص على (الثوب) ولم ينص على (السراويل) • وهكذا راحت تجارة السراويل الطويلة التى تصل الى الكعبين فى المناطق التى يسودها السلفيون الذين يأخذون بهذا النوع من التفكير • وحقيقة الامر أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما توعد من (جر ازاره كبيرا) كان ينهى فى الأساس عن الكبر والبتر - (المترجم) •

خالص ، ومنها ما هو من صوف خشن ، وبعض الناس يفضلها بنية اللون ، وآخرون يفضلونها بيضاء ، وطائفة أخرى تفضلها مخططة . وفى الحجاز يفضلونها بيضاء مطرزة بالذهب وبخيوط مختلفة الألوان أو صفراء على شكل مثلثين كبيرين تعلوهما أشرطة عريضة وأشكال أخرى تحت الكتفين وعلى جانبي الظهر . ويحدد داخل الكتفين (فوق الكتفين) والصدر بنسيج بديع من خليط من حرير وقطن ويربط من الأمام بخيوط قابلة للمط (أستك أو مغيط) وشراريب من حرير وذذهب . ويلتف الحزام حول القميص عند منطقة الخصر حيث توضع الجنبية (الخنجر المعقوف) وأخيرا يأتى الخف (الصندل) لتتم ملامح الزى العربى . وأخيرا فان أسلحة الشيخ هى السيف ، وبندقية تعمل باشعال الفيتل معلقة خلف ظهره ، ويحمل فى يده اليمنى مزراقا (رمحا) قصيرا . أو عصا معقوفة قليلا ، يبلغ طولها قدمين ونصف القدم وتسمى « المصحاب » Mas'hab وتستخدم لبحث الجمل على المسير .

أما العشائر العربية الفقيرة ، فيلف الواحد منها حول جلد خصره مباشرة قطعة طويلة من جلد خشن وذلك لتقوية الظهر ، ويطوقون القميص عند الخصر بحبل أو حزام خشن ، ويعلق حزام عريض توضع فيه طلاقات الرصاص على الكتفين وقوارير البارود ، والفتائل الموضوعة فى قرون معجوفة (قرون الفتائل) وقطع من أحجار الصوان (تستخدم فى القدح أو اشعال الفتائل) وغير ذلك من الضروريات . ويعتبر الخصر بالنسبة للمسافر مجالا لاستخدامات شتى . فعلى جلد الخصر مباشرة يضع المسافر كيس النقود ويغطيه القميص الذى يطوق بشال يعلوه حزام جلدى . يجب أن يكون دائما حسن الزينة مزودا من الجانبين بمسدسين فضيين من المسدسات التى تعمل بقدح الصوان على خنجر كبير وآخر صغير ، ومدك قضيب لتنظيف المسدس أو البندقية (من حديد له كلاب من الداخل ويثبت كيس جلدى صغير فى حزام الخصر على الجانب الأيمن ، ويحوى هذا الكيس خراطيش ومواد للحشو وقوارير لحفظ بارود الفتائل . أما السيف فيعلق على الكتف بحبال من حرير قرمزي وشراريب ضخمة . ويزين الرجال الذين يتألقون فى ملابسهم مسدساتهم على هذا النحو آنف الذكر . وفى اليد ، ربما حمل بندقية قصيرة blunderbuss أو بندقية طويلة وحيدة الاسطوانة (ربما يقصد الماسورة) فتحتها (ثقبها) ضيقة . وكل هذه الأسلحة لابد أن تلمع كالفضة اذا رغبت أن تكون محترما ، فالعناية بالسلاح علامة من علامات الرجولة والفروسية فى هذه الأنحاء .

ويحمل الحجاج ، خاصة الأتراك منهم ما يسمى الحمائل Hamail لتقوم بأداء مهمة مقدسة ، والحمائل عبارة عن كيس لحفظ المصحف ، وهذا الكيس مصنوع من مخمل قرمزي مطرز بالذهب تطريزا جميلا وقد تكون الحمائل صندوقا مغربيا (مراكشيا) أحمر معلقا بخيوط حريرية حمراء فوق الكتف اليسرى . وان كان يجب أن يتدلى في الجانب الأيمن ، كما يجب ألا يتدلى تحت حزام الخصر . وقد استعضت عن هذا الاستخدام للحمائل ، باستخدام آخر ذي فائدة جمة . فالحمائل - من الداخل مقسمة الى ثلاثة أقسام ، جعلت قسما منها لساعتى وبوصلتى ، والقسم الثانى للنقود التى أحتاج اليها سريعا ، والقسم الثالث لسكيتى وأقلامى وقصاصات من ورق كان فى امكانى أن أحتفظ بها مطوية فى يدى الا أن الاحتفاظ بأوراق الكتابة والرسم التى تشكل نسخة واضحة من اليوميات من الأمور التى لا تليق بالرحالة الحذر ، وعلى أية حال ينبغي على المسافر أن يحذر رسم المخططات وغيرها أمام البدو ، فمن المؤكد أنهم سيتخذون ازاءه اجراء متطرفا ، لأنهم سيشتكون فى كونه جاسوسا أو ساحرا (٩) . فلا شئ أكثر إثارة وارباكا للبدو من العادة الأوروبية المتمثلة فى تسجيل كل شئ على الورق ، اذ سرعان ما يشغل خيالهم مما يجعل المرء يتوقع أسوأ الشرور منهم . والطريقة الآمنة الوحيدة للكتابة فى حضور البدو هى كتابة خريطة البروج لكشف الطالع أو كتابة الأحجية ، كما أن البدوى لا يعترض على الكتابة اذا استطعت إثارة حماسه فيما يتعلق بالإنسان كأن تبدأ معه قائلا : « وأنتم يا رجال حرب ، لأى عرق (أصل) يرجع فخركم ؟ » ، وبينما المستمعون منشغلين بفيض حديثه عن قبيلته ، يمكنك أن تكتب ما تشاء من ملاحظات فى هامش أوراقك . أما أهل المدن فأكثر تحررا ، فمنذ سنوات خلت قام الرسامون الشرقيون برسم الأضرحة المقدسة ، ومسحها ، بل وحتى طباعة رسومها على الحجر . والى الآن ، فانك ان أردت ألا تكون موضع ريبة ، فتجنب أن ترى وفى يدك قلم حبر أو قلم رصاص ، الا لما .

وفى الساعة السادسة مساء ، وجدنا أثناء نزولنا من فوق درج الوكالة ، الجمال واقفة ومحملة فى الشارع ، وراحت تتبادل أماكنها فى ملل . وقد وضع الشجدوف (الشقدوف) الخاص بى فوق جمل مرتفع وقوى ، ومع هذا فقد كان الشقدوف يميل ويكاد يجثم فى كل حركة مما أعطانى انطباعا أنه سيقذف (أى الشجدوف) مع أول خطوة صوب كتفى الجمل أو صوب مؤخرته . وقد أخبرنى الجمال أنه يتعين على أن أتسلق رقبة الجمل ثم أنحف عليها الى الشقدوف ، ولكن قدمى لم تساعدنى على

(٩) لا يزال التحرز من الكتابة والتدوين شيئا مألوفاً لدى البدو - (المترجم)

ذلك لفرط الاجهاد فأصررت على أن يجثم الجمل ، ففعلوا مستائين .
واستأذنت اخوة عمر أفندي وجماعتهم الذين أصرروا على توقيرنا باصطحابنا
الى البوابة . وهكذا بدأت الرحلة ، وكان هذا ايذاننا بتفريق جماعتنا مرة
أخرى فالذين سمعوا ما يفيد أن سفينة وصلت من السويس تحمل محمد
شكليبها Shiklibha وأصدقاء آخرين - أسرعوا عائدين للميناء
للتوديع . وصرح آخرون بأنهم نسوا بعض الضروريات اللازمة للرحلة
فجروا لقضاء آخر ساعة فى المقهى فى القيل والقال . ثم غربت الشمس
وحان ميعاد صلاة المغرب . وتلاشى الشفق الأحمر فى غالبه قبل أن يمتطى
الجمع الجميع دوابهم . وشققنا طريقنا فى طرقات طويلة ومتربة وضيقة
يحيط بجوانبها مساكن متباعدة ومطلية بالطلاء الأبيض ، وأكوام هائلة
من القمامة ، بعضها أعلى من المساكن ، بينما تتعالى الصيحات : « سر فى
الوسط يا هوه Ya hu ! » وجنب يا جمال - أى سر الى الجنب
يا جمال » . وأوقفونا عند البوابة للتأكد مما اذا كنا غرباء فاذا ثبت
هذا فان الحارس سيبذل قصارى جهده للحصول على قروش قليلة قبل
السماح لأمتعتنا بالمرور لكنه تيقن من رفاقي أنهم من أبناء الديار المقدسة ،
فخاب أملهم فى الحصول على القروش ، وأثناء وقوفنا هنا تبجح الشيخ
حامد قائلا ان أسوار ينبع المنبعة وأبراجها تفوق أسوار جدة وأبراجها
منعة وقوة فقد منعت (أسوار ينبع وأبراجها) سعودا السلفى (الوهابى)
وجعلته فى وضع حرج سنة ١٨٠٢ ، وكان على أن أرد بأن هذه الأسوار
والأبراج لم تصمد الا قليلا لبطارية الميدان سنة ١٨٥٣ . وتوسط القمر
كبد السماء واضحا متلألئا وغمرنا بنوره بعد خروجنا من الشوارع المظلمة ،
ولما دخلنا الصحراء هبت علينا نسائم لييلة ، لا تقارن رقتها بالجو الخانق
داخل ينبع . وشرع رفاقي فى الغناء كما يفعل العرب فى مثل هذه
المناسبات .

الفصل الثالث عشر

من ينبع الى بير عباس

عبور بوابة ينبع - المصرى يعنى الفلاح - بيرتون يوقع بين الجنسيات
المختلفة - الشيرية - المشبق - الخوف من اللصوص - الطعام - البدو
لا يبيعون اللبن - بنو حرب يطلبون البقشيش - الحمرا - حرس القافلة -
اللصوص يهاجمون القافلة - وادى الورد بلا ورد - أهل الحمرا يمتنعون
القافلة من الاناخذة على الأرض المستوية - قلعة الحمرا - شريف مكة
ومقاومة اللصوص - السياسة التركية المليئة لا تصلح مع البدو - خط
كلخانة والإصلاحات التركية لا تغنى فى الحجاز - قبضة محمد على هى
المجدية - سعد الجبل - اللقاء بقافلة مكة - البدو يطلبون مالا - قرية
الخيف - نبذة تاريخية عن هزيمة طوسون باشا على يد السلفيين .

وفى حوالى الساعة السابعة من مساء اليوم الثامن عشر من شهر
يوليو عبرنا بوابة ينبع ، واتخذنا اتجاهها شرقيا مباشرا . وكان طريقنا
يمتد على سهل بين جبل رضوى عن شمالنا والبحر عن أيامنا . وكانت
الأرض صحراوية تناثرت فوقها كتل الجرانيت وكتل الشسست
الخضراء ، كما تناثرت هنا وهناك أشجار أكاسيا متقزمة ، وبعض
الأعشاب النامية التى تتناولها الجمال ، وكان فى امكانى أن أرى المنطقة
على نحو مقبول فى ضوء القمر الرائع ، اذ كان فى تمامه تقريبا
(يكاد يكون بدرا) .

لقد كانت قافلتنا تتكون من اثنى عشر بعيرا تسير فى صف واحد
رأس كل جمل منها فى دبر الجمل الذى أمامه (وقد ربط رأس الجمل
فى ذيل الجمل الذى أمامه) ولم يخرج عن الصف الا واحد هو
عمر أفندى ، اذ حتمت عليه رتبته (مكانته) أن يركب جملا عليه جل
مزدكش رائع . وكان أمامى مباشرة فى صف الجمال عم جمل

Amm Jamal الذى كان على أن أوبخه لسؤاله الولد محمدا « أين تعرفت بذلك الهنودى ؟ » أنكون نحن الأفغان هنودا ؟ أنكون هنودا ونحن - الأفغان - قاتلو الهنود ؟! • لقد صحت ناقما حانقا وضربت له مثلا من دياره لاستفزاز مشاعره بأن سألته : « أياحب العربى (البدوى) أن يوصف بأنه مصرى - فلاح ؟ » • وكان بقية أفراد القافلة اما جلوسا أو مستلقين بين اليقظة والنوم فوق منبسطات خشنة هياوها من أغطية صندوقين كبيرين علقوها على جوانب ابلهم •

ولم يكن هناك من سمح لنفسه برفاهية تكلف نصف دولار ، سوى امرأة عجوز هى السيدة مريم (الست مريم) التى كانت عائدة للمدينة المنورة ، وطنها المختار ، بعد زيارة اختها فى القاهرة ، اذ اتخذت شـبـريـة Shibriyah أو سريرا خفيفا (له ظلة غالبا) ثبت بالعرض فوق أحمال جمل • وأكثر من هذا ، فان كل أفراد القافلة - باستثناء عمر أفندى - كانت عليهم علامات الفقر يرتدون أقذر الأسمال وأخشنها ، وقد كان اللباس الشائع بينهم يتكون من قميص ممزق فى مواضع مختلفة ، وخرقة بالية ملفوفة حول الرأس • ويحملون شبكات Chibuks قصيرات (١) دون قوهات ، وأكياس تبغ من جلد غير مدبوغ (زلق) • ومع أن المنطقة فى هذه الأنحاء آمنة تماما ، الا أن الجمع الجميع قد جعلوا أسلحتهم على أهبة الاستعداد ، وسباد صمت غير مألوف بعد توقف الغناء - فحتى سعد العملاق قد قبض لسانه - وهذا يعطى اشارة كافية تدل على مدى خوفهم على ممتلكاتهم • وبعد مسيرة يعتريها بطء مدة ساعتين ، كنا خلالهما نواجه القمر ، اتجهنا شيئا ما نحو الشمال الشرقى ، وبدأنا نمر فوق أرض متموجة تأخذ فى الارتفاع باستمرار على نحو ملحوظ • ووصلنا الى محطة التوقف (الاستراحة) فى الساعة الثالثة صباحا بعد مسيرة قصيرة لا تزيد عن ستة عشر ميلا قطعناها فى ثماني ساعات • وأنخنا الجمال وكومنا الصناديق حذرا من الذين يسرقون خلصة ، ونصببت خيمتى الصغيرة وهى الخيمة الوحيدة فى القافلة ، وفرشنا بسطنا على الأرض واستلقينا لننام •

واستيقظنا حوالى الساعة التاسعة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر يوليو ، وبعد أن تبادلنا التحية ، لأننا التقينا مرة أخرى فى

(١) الشبق : بنية تدخين تركية يبلغ طولها ٤ أو ٥ اقدام • وتكتب أحيانا Chibouk أو Chibouque عن معجم المورد - (المترجم) •

هذه « الصحراء العريضة » ، شرعنا نعدل أمزجتنا بإشعال النار اللازمة للتدخين والافطار ، وسرعان ما أنهينا تناول افطارنا المكون من البسكويت وقليل من الأرز وكوب من الشاي بدون حليب ، وبعد ذلك شرعت فى تبين موقعنا ، فعلى بعد حوالى ميل إلى الغرب تقع قرية المسهل Musahhal الصغيرة وهى مجموعة من المساكن (الأكواخ) الطينية البائسة . وإلى الجنوب كان شريط من بحر أزرق بهيج ، وكل ما تراه العين ، سهل من حديد لا ينبت شيئا خلا أحجار وجنادب (جراد صغير يعرف بالقبوط) ويحيط بالسهل من ناحية الشمال سور رهيب متجه من حجارة سود ، وتتناثر هنا وهناك شجيرات - لاتصلح الا كوقود - أو بعض الأعشاب التى جعلتها الحرارة هشة (هشيما) ، فقد سفعتها الشمس . فالحرارة المتهبة الساقطة من أعلى قد جففت نسيج (٢) النبات ، وما يتخلل الأرض من ماء ، كلما أصبح المناخ ملتهبا عاصفا ، وأكثر من هذا ، فإن الندى الكثيف الذى يسقط بقطرات كبيرة على النباتات والأحجار فى هذه المنطقة يجمع أشعة الصباح الساقطة عليها ليقوم بدور العدسة الحارقة (المحرقة) . وبعد أن جمعت هذه الملاحظات القليلة حدوث حذو رفاقى وعدت للنوم .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر نهضنا لتناول الغداء الذى كان بسيطا بساطة طعام الافطار ، فقد كانت القائمة لاتشتمل الا على الأرز المسلوق الذى سكبوا عليه كمية كبيرة من الزبد المقدوح الذى يجبسه الشرقيون كثيرا ، وبعض الكعك ، وخبز قديم غير جيد المذاق وقبضة من العجوة . أما عن شرابنا ، فقد بدأنا قبل تناول الغداء نحس شرايا غير مستساغ وان كان مفيدا للصحة ، يسمونه أقط (*) ، وهو عبارة عن حليب حامض مجفف مذاب فى الماء ، وعند تناول الوجبة شربنا ماء له رائحة الجلد (القرب) ، وأنهينا وجبتنا بملء فنجان كبير من شاي ساخن . لقد استهلكنا كميات كبيرة من السوائل فقد بدا أن الشمس قد اخترقت حلقنا ، وسال العرق منا فأغرقنا كما لو كنا تعرضنا لوابل من المطر . وبينما كنا نأكل مرت امرأة بدوية بجوار الخيمة وكانت تقود قطيعا من الخراف والماعز ، ورأت تعبيراتى التى تنم عن رغبتى فى أن أشرب حليبيا . وأرسل رفاقى لها قطعة خبز عن طريق أحد الجمالة طالين منها كوب لبن مقابلها . ولم أعرف الا الآن أن العرب

(*) الأقط بفتح الهمزة وسكون القاف ، أو كسرهما .

(٢) السائل الذى يجرى فى أوعية النبات حاملا الماء والغذاء . - (المترجم)

حتى فى هذه المنطقة الفاسدة (التى تقبل الرشوة) Corrupt region (٣) لازلوا يتمسكون بعبادة أجسادهم السقيمة (التى لامعنى لها) التى ترى فى اللبان أو بائع اللبن كل معانى الخسة والوضاعة ، وربما كان أصل هذا رأى المنطوى على الظلم والاجحاف ، هو الاعتراف بحق المسافرين فى الضيافة بأن يدعى لشرب الحليب مجانا (٤) • وعلى أية حال فإن بيع اللبن أمر معيب حتى فى مكة المتحضرة (غير البدوية) ولا يستثنى من ذلك الا المصريون •

وبشكل عام فالحليب يكثر بالحجاز فى الربيع ، ويعز بقية العام ، وعلى أية حال ، فإن المرأة البدوية قد أعادت لى الكوب مدينا باللبن •

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر كنا مستعدين للرحيل ، ورأينا جميعا - دون أن نعبر عن سعادتنا بالكلمات - سحابة سوداء مشيعة ترتفع من كتف جبل رضوى ، وتتحرك لتعيد تشكيل نفسها ، وكأنها روح حارسة تحمينا من عدونا المفزع ، وأعنى به الشمس • وأملنا أن تكون ممطرة ، الا أنه سرعان ما عصفت بالسسهل ريع ساخنة كأنها زفير البراكين وأصبح الهواء مشبعا بذرات الرمال ، انها عجاج شبيه الجزيرة العربية dry storm (٥) وبدأت لى هذه الرياح ، وكأنها تعتمد على ظاهرة كهربية (تدخل الكهرباء فى تحريكها) ، وقد يكون أمرا مرغوبا اخضاع هذه الظاهرة للبحث والدراسة • وعندما حملنا جمالنا وركبنا ، أتى الى اثنان من الجمالة وأنا فى الشنفوف وطلبنا البقشيش ، ويبدو الآن أنها عادة اعتادوا عليها كلما شرعت القافلة فى المسير • وقد اعترتنى الدهشة فى بداية الأمر فلم أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن هذا التصرف (طلب البقشيش) ، لكن بعد مكوثى فى المجتمع البدوى أياما قلائل تناقص عجبى • لقد كان هؤلاء الرجال (طابرو

(٢) العرب الآن - وحتى البدو - فيما أعلم أصبحوا يبيعون كل شئ بما فى ذلك الحليب ولا يجدون حرجا فى ذلك • وتأسست شركات يديرها بدو وغير بدو لبيع الحليب ومنتجات الالبان - (المترجم) •

(٤) يقصد بيرتون أن المصريين لا يجدون حرجا فى بيع اللبن ، لذلك فالبدو لا يحترمون فيهم هذه العادة والحقيقة أن إطلاق لفظ « المصريين » على عواهنه هكذا فيه تجاوز ، فالبدو المصريون لهم العادات نفسها التى أشار لها بيرتون ، وإن كانت قد تعدلت بمرور الزمن سواء فى مصر أو غيرها (انظر العاشية السابقة) وقد أورد بيرتون لى هذا السياق جملة فضلنا حذفها من المتن هى :

Except Egyptians, a people Supposed to be utterly without honour.

(٥) وتسمى فى الخليج العربى باسم (الطوز) ، ولهى وسط الجزيرة العربية (العجاج) وهى (الخماسين) فى مصر - (المترجم) •

البقشيش) من بنى حرب احدى قبائل الحجاز الكبيرة التى احتفظت بنقاء دمها خلال الثلاثة عشر قرنا الأخيرة - بالكثرة الأمور التى لا نعرفها ! فهذه القبيلة العريقة قد أفسدها التعامل مع الحجاج ، فلم يعودوا يحتفظون بشئ من تراث أجدادهم الا الجشع فى جمع الأموال ، والحقد ، وحب المشاكسة والافتتال ، ونوع من الشجاعة الفائقة التى تتجلى فى مناسبات نادرة . وعلى أية حال فان نبلمهم (شرف محنتهم) لا يمنعنى من ايراد حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « أسوأ أسماء العرب : بنو كلب ، وبنو حرب » (٦) . ورحلت أوبخهم بشدة (رجال بنى حرب الذين طلبوا البقشيش) مشبها اياهم بفلاحى مصر ، لكنهم لم يتمتعوا بشدة من جراء ذلك لأن هذه العادة (طلب البقشيش) تابعة من قبيلتهم (شعبهم) ، الا أن الحاج التركى - وهى الشخصية التى ظنوا أننى أقمصها رغم لباسى العربى - تعد شخصية مميزة . وكان الرجل الواقف بعيدا شيئا ما من أولاد حرب (بنى حرب) هؤلاء ، وضيقا ، فقد كان مخلوقا ضئيل الحجم ذا سحنة بنية كالشيكولاتة ، قرما ، نحىلا ، له خصلة شعر كثيفة سفعتها الشمس فجعلتها بنية اللون ، له صوت صارخ ، وله شفاه أحسن الله خلقها ، لكنها رقيقة (نحيلة) . وكان رجلا حرب يضع الواحد منهما على رأسه (كوفية) ويرتدى قميصا ممزقا مصبوغا بالنيلة ، عليه حزام عبارة عن قطعة من حبل عادى . وكانا يحميان اخمصى قدميهما من الأحجار بنعلين من جلد سميك يخرج منهما سيور (جمع : سير) يلفانها حول كواحل أقدامهما . وكان كلا الرجلين مسلحا أحدهما ببندقية فتيل ، وشنتيان Shintyan (٧) فى غمد جلدى معلق على كتفه ، أما الثانى فكان مسلحا بنبوت ، وكلا الرجلين كان يضع فى وسطه جنبيه (خنجرا) ، فالجنبيه رفيق العربى . وعلى أية حال فقد كانا معتزين بنفسيهما رغم لباسهما الزرى . لقد كانا يأكلان معى ، ولم يكونا يأنفان من طلب المزيد - كما يفعل بعض السادة (أو الفرسان) الأسبان - لكنهما اذا حان وقت العمل ، لا يفعلان شيئا . فلا الوعد بدفع البقشيش سيحثهما على مساعدتى فى نصب خيمتى ،

(٦) ليس المقصود ذم هذه القبائل ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم حث على استخدام الأسماء الطيبة التى تدعو للتقافل والعبودية لله سبحانه كعبد الرحمن وعبد الله والحسن والحسين ... الخ - (المترجم) .

(٧) اسم محلى لنوع من السيوف يبلغ ثمنه من سبعة جنيهات استرلينية الى ثمانية ، والأنواع التى صنعت حديثا منه يبلغ سعرها حوالى عشرة جنيهات استرلينية - (ملخص تعليق بيرتون) .

لقد كانا يتوقعان أن يعد لهما حتى طعامهما (يطبخ لهما) • وكان على - فى معظم الأحوال - أن أستخدم الشدة ، فحتى عذرى المتجلى فى قدمى المعطوبة ، كان غير كاف لأن يدبروا أمر وضع الشقدوف الخاص بى على ظهر جملى وهو مناخ • ويقولون انها عادة قديمة منذ زمن سحيق فى هذه المنطقة أن يستخدموا السلم اذا كانت أقدام الراكب يلم بها الألم • ووافقتهم على قولهم ، لكننى ذكرت لهم أنه ليس لدى سلم • وأخيرا - وقد تعبت من عنادهم - نزعت (خطفت لجام الجمل وأجبرته - بالقوة نفسها - على الاناخة (أن يبرك) •

لقد كانت جماعة القافلة الآن على درجة كافية من القوة • لقد كان قى القافلة حوالى مائتى دابة تحمل الغلال التى جلبها أصحابها ذور النظرة القاسية المريعة وكانهم مهربون (٨) • وكان حرس القافلة يتكون من سبعة فرسان ترك غير نظاميين مزودين بمستودع أسلحة مصغر (المقصود أنهم يحملون مختلف الأسلحة) ، وكانوا هم بالذات محل سخرية جماعتنا الذين - لكونهم عربا - يكونون اعزازا خفيا للبدو ، وعلى أية حال ، قربما كان نفور جماعتنا لهؤلاء الفرسان الترك راجعا لوجودهم بين الصناديق (٩) •

لقد ظللنا مسافرين فى اتجاه الجنوب الشرقى طوال ثلاث ساعات فى سهل قاس ومسطح رهلى ، وفى هذا السهل وجدت بعض المياه الهابطة من المرتفعات طريقها الى البحر غربا عبر مجار حفرتها • وبالتدريج كنا نقرب نحو الجبال وعندما غربت الشمس لاحظت أننا قد اقتربنا منها بشكل ملحوظ • وترجلنا لاستراحة قصيرة ، ولوجود غرباء ، فان رفاقى أدوا صلاة المغرب دلالة التقوى قبل أن يجلسوا للتدخين ، تلك الصلاة التى لم يؤدوها طوال ثلاثة أيام بعد ذلك عندما التقوا ببعض معارقيهم فى قرية الحمراء Al-Hamra ، وعندما أوغل المساء (بعد المغرب) انطلقنا من لدن مجموعة أشجار أكاسيا Acacia (١٠) وطرفاء Tamarisk (١١)

At the contrabandistas of the pyrencees.

(٨) النص :

(المترجم) •

"to see them amongst the boxes".

(٩) النص :

وربما يقصد خوف جماعة القافلة من عبث هؤلاء الفرسان بالصناديق أو ممتلكات القافلة • الخ - (المترجم) •

(١٠) أشجار السلم ، والمفرد سلمه ، ويطلق عليه فى مصر السنط • عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) •

(١١) الاسم الشائع. هو الأثل يفتح الألف وتسكين الثاء • ومنه أنواع عديدة راجع معجم الشهابى ألف الذكر - (المترجم) •

واتخذنا سبيلنا فى الاتجاه الشرقى مباشرة وعبرنا منطقة مكشوفة ونحن تسير صعدا (ترتفع بنا الأرض تدريجيا) بشكل ملحوظ ، وبعد أن أظلمت الدنيا بالكاد انطلقت صرخة مدوية من مؤخرة القافلة ، « حرامى » فتسبب ذلك فى احداث قوضى ، كتلك القوضى التى يمكن أن تحدث فى قارب بخليج نابلي Naples عند الاقتراب فجأة من دوامة ماء (اعصار مائى) فكل الجمالة لوحوا بهراواتهم الغليظة ، وانطلقوا راجعين صوب اللصوص وهم يصيحون مهددين متوعدين . وتبعهم الفرسان (الخيالة) . والحقيقة أنه كان لدى اللصوص من الحدة والشدة والمكر وغيرها من الصفات التى يتصف بها من يتخذ من اللصوصية مهنة . وربما يكونون قد ساقوا جمال جناح قافلتنا بعيدا بأمان واطمئنان . لكن هؤلاء النافهين الجديرين بالازدراء كانوا ستة أشخاص فقط ، وقد أطلقوا قذيفة أو قذيفتين من بنادقهم ذوات الفتائل فى اتجاههم . ومن ثم فقد ولوا الادبار . وأثارت هذه الحادثة دهشة غير قليلة فقد بدت نذيرا بأمور أكثر سوءا على وشك أن نواجهها ، عندما وقعنا فى شرك بين التلال ، أما وجوه رفاقى التى أصبحت بمثابة بارومتريات دقيقة تقيس الخير وأنباء السوء ، فقد هبطت الى درجة الصفر . فلمدة تسع ساعات ظللنا نشق طريقنا فى ضوء القمر المتألق ، وحالما ظهر خط رمادى فى أفق السماء الشرقى ، حتى دخلنا مسيلا Misyal (١٢) ضيقا مكسوا بالحصى والأحجار المكورة ، يبلغ عرضه (أى المسيل) زهاء نصف ميل وتحيط به تلال متعامدة تقريبا ذات تكوينات بدائية . وقد بدأت بالسؤال عن أسماء القمم وغيرها من المعالم البارزة ، الا أننى وجدت مجلدا من الورق ذى القطع الكبير لن يتحمل تسجيل ملاحظات يستغرق جمعها ثلاثة أشهر ، فكل قل ، وكل واد عريض ، وكل منبسط من الأرض ، وكل مجرى مائى له اسم خاص به أو أكثر ، فى هذه الأنحاء . والبراعة التى يبديها البدو فى التمييز بين المواضع المتشابهة شبيها شديدا ، ترجع الى سمو مداركهم أو ملكاتهم الطبيعية التى صقلتها الممارسة بملاحظة التكرار (أو التشابه) فى ملامح صفحة الأرض ، تلك الملامح التى لا تختلف فيما بينها الا قليلا . وبعد أن سرنا ساعتين فى قاع هذا المسيل (السيل) فى اتجاه الشرق ، وعبر بعض الحرات Harrah (الحيود الصخرية) والعقبات (المنحدرات الحادة) Ria وأراض صخرية مستوية وقطع من سهيل Sahil ، وجدنا أنفسنا فى حوالى الساعة الثانية صباحا بعد مسيرة حوالى أربعة وثلاثين ميلا عند بيرسعيد ، وهو المحطة التى نبغى الوصول إليها .

(١٢) مجرى مائيا جامعا - (المترجم)

لقد كان هناك من جعلنى أتوقع أن أرى عند البئر منظرا ريفيا أو رعويا ، ووردا يريا ومياها منسابة ، لذا فقد نظرت مشمئزا لحفرة عميقة مليئة بالمياه الخفيفة التى تعثر بها ملوحة ، ومحفورة فى تجويف يشبه الوعاء المثقوب ولها جدران جرانيتية ، وعند سطحه الكالح نمت شجيرات شوك لآبد أنها ذات شجاعة فائقة لتحديها الشمس الحارقة . ولم أر مسكنا على مدى رؤيتى . لقد كانت منطقة البئر قاحلة ومنعزلة فالشمس تبدو هنا فى ذروة مجدها . وعلى أية حال فهذا ما يجب أن يتوقعه الرحالة فى شبه الجزيرة العربية فعليه أن يقاوم - على سبيل المثال الفكرة التى تنشئ فى عقله عن وادى الورد . انه سيطلق العنان لخياله فى تصور مجموعة من البحيرات الهندية الجميلة التى تحفها أزهار اللوتس ، والسهول الفارسية المملأ بالأزهار التى يعد النرجس أشأها جمالا . ان الواقع سيرده لتحقيق الأمر اذ يرى سهلا فيه هضاب مدورة معزولة من جرانيت وبين كل خمسين ياردة وأخرى يرى برعما بئسا سيىء الطالع يموت لوجوده بين الصخور حيث لا حياة . لقد أحرقت الشمس أقدامنا ونحن ننصب الخيمة ، وبعد تناول الافطار أمضينا يوما عاديا فى مسح العرق ، والنعاس . وعندما يكون المرء مرهقا من الطبيعى أن يأمل فى التغيير حتى لو كان تغييرا لما هو أسوأ . وعندما بدأ عدونا يميل نحو الغرب (يقصد الشمس) شعرنا بأن لدينا الاستعداد الكافى للاستمرار فى رحلتنا ، فبعد الساعة لثالثة من اليوم العشرين من شهر يوليو حملنا الجمال بسرعة وبدأنا - وقلل (جرار) الماء فى أيدينا - الرحلة خلال عواصف السموم (١٣) .

لقد سافرنا طوال خمس ساعات فى اتجاه الشمال الشرقى عبر واد مائل (١٤) يمثل منطقة متفردة فى انزالها - كتل من تلال ضخام ، وسهول جرداء ، وأودية صحراوية . فحتى أشجار السنط شديدة التحمل قد سقطت هنا ، وفى بعض المواضع لم يجد الشوك الذى تأكله الجمال تربة كافية ليمد جذوره فيها . وكان الطريق الذى نسلكه متعرجا بين الجبال والصخور وتلال الجرانيت ، وفوق أرض متكسرة تحيطها كتل ضخمة وجلاميد (١٥) مكومة وكأنما تدخل فن بشرى فساعد الطبيعة على تشويه ذاتها . وتبدو صدوع (شقوق) واسعة وكأنها ندب (جمع ندبة) على وجه الأرض تعطى سطحها منظرا بشعا وقد اتسعت هذه الشقوق هنا لتصبح كهوفا مظلمة ، وهناك كانت مسدودة برمال تلالا ، جرفتها

(١٣) فى الأصل : Samun وهو خطأ مطبعى غالبا - (المترجم) .

(١٤) diagonal

(١٥) جمع جلمود ، والجلمود هو الحجر المكور - (المترجم) .

(الرياح أو السيول) ، ولا يرى الميء هنا منظر طير أو حيوان ، ولا يسمع لهما صوتا ، فوجودهما يدل على قرب الماء . ورغم أن رفاقي يعتقدون أن البدو كانوا يختبئون بين الصخور ، الا أنني قررت أن هؤلاء البدو الذين يتصورون وجودهم ما هم الا مخلوقات خلقها الرعب الكامن في قلوبهم (قلوب رفاقه) ، واذا نظرنا الى الأعلى ، وجدنا سماء كأنما هي قطعة صلب مصقولة ومدهونة باللون الأزرق ، ذات وهج أصفر مبهر من شدة الضياء ، يسطح علينا دون أدنى حائل من غلالة سحب . واذا نظرنا الى أسفل منا وجدنا دائرة بلون النحاس تشوى وجوهنا وتعمى أبصارنا لفرط توهجها ، وتقدم لنا سرايا من ماء بينما هو هواء . وكانت المناظر البعيدة أكثر تشويقا من المناظر القريبة لأنها تقتبس لونا لازورديا خفيفا من الغلاف الجوي الا أن القيم المثلمة وخطوط الظلال العمودية تحت جوانب الخلفيات الجبلية - كل ذلك يجعلنا لا نتوقع جوا أفضل .

وبين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة ليلا ، وصلنا الى مجموعة مساكن ، وهو ما لم نره منذ غادرتنا قرية المسهل Al-Musahhal وكانت هذه المساكن تتخذ شكل قرية تنتشر مبانيها بغير نظام ، واسمها الحمرا Al-Hamra نظرا لحرارة الرمال القريبة منها ، كما تسمى الوسيطة Al-Wasitah (١٦) . لأنها في منتصف المسافة من ينبع الى المدينة (المنورة) . وعلى هذا فقد عين بوركهارت موضعها على خريطة تعييننا خاطئا بشكل ملحوظ . كما أن الذين نقلوا عنه جعلوها أكثر قربا من البحر مما هي عليه بالفعل . لقد جلنا قرابة الساعة بحثا عن مكان نعسكر فيه ، لأن أهل هذه القرية كانوا غلاظا فشوشوا علينا طالبين منا عدم الإقامة في أية قطعة أرض مستوية ، دون أن يتكروا بدلنا عن موضع ننيخ فيه دوابنا المرهقة . وأخيرا وجدنا بقعة مناسبة ، بعد مشاحنات كثيرة . فأنزلنا أحمال الابل ونشرنا الصناديق وبقية الأمتعة على شكل دائرة لمزيد من الأمان اتقاء لشر اللصوص الذين يغص بهم هذا الجزء من الطريق ، وافترش رفاقي سجاجيدهم وناموا فوق أمتعتهم ذات القيمة ، وحذوت حذوهم ، لكن الازعاج أصابني - بكل ما في كلمة الازعاج من معنى - بسبب قربى من غطيظهم وشخيرهم ، فابتعدت عنهم . واعترت الدهشة بعضهم بسبب عناد هذا الحاج الأفغانى وطيشه (١٧) ، لكن مقاومة هؤلاء الناس (رفاقه) أحيانا تكون من الأمور المطلوبة ، كما أن رجلا من كابول (١٨) له أن يقول ما يشاء ، وأن يأتي بأمور غريبة .

(١٦) تنطق عادة (الواسطة) ، وقد سمعت ذلك من بعض الحجازيين - (المترجم) .

(١٧) يقصد نفسه - (المترجم) .

(١٨) يقصد نفسه - (المترجم) .

وكرر على تحذيراتهم من مخاطر الليل ، وضعت سيفى المعقوف بجانبى وحشوت مسدسى ووضعته تحت وسادتى ، أعنى خرج جملى ، وبسطت السجادة فوق الرمال الباردة المتحركة لأجعل منها سريرا غير مريح بلا شك ، ومع هذا فقد تمتعت بنوم عميق حتى طلع النهار .

لقد استيقظت فجر اليوم الواحد والعشرين من شهر يوليو ، وبدأت بزيارة القرية التى بنيت فوق رف صخرى ضيق عند قمة تل شديد الانحدار ، صوب الشمال ، أما الى الجنوب فيجرى من قمة التل مسيل رملى يبلغ عرضه نصف الميل . وفى كل الجوانب توجد الصخور والجبال الحجرية الصلدة ، ولذا فانت تجد نفسك ازاء تجويفات محفورة يعتبرها العرب مواقع مختارة لاقامة المستقرات . والمسيل فى هذا الجوار متعرج جدا ، ويشق الأرض المرتفعة هابطا من هضبة المدينة (المنورة) Plateau of Al-Madinah وأثناء الموسم المطير يصبح هذا المسيل سيلا عارما ويحمل من صوب الغرب الى البحر الأحمر صرف مياه ماث التلال . ويمكن الحصول على مياه جيدة فى هذا المسيل ، بالحفر بضعة أقدام تحت السطح عند الزوايا حيث يشكل ماء السيل أعماق الفجوات ، وفى بعض الأحيان تؤدي الجوانب الصخرية لهذه الفجوات الى احداث ينابيع لها بقبة (صوت الماء) .

والحمراء نفسها مجموعة من المنازل الصغيرة المنعزلة - وان كان الأقرب للصحة أنها مجموعة من العرائش المسقوفة ، وهى مشيدة من الطوب اللبن والطين ، ومسقوفة بجريد النخل ، وبها طاقات (جمع طاقة) لادخال الهواء ، لبعضها ميزة وجود قطعة من الخشب تغلق وتفتح . وتبدو الحمراء كثيفة السكان فى المناطق التى توجد بها أسوار ، لكنها - كسائر القرى والمستقرات - فى الحجاز تسودها الخرائب . وتزود الحمراء تزويدا جيدا بالمؤن وهى أرخص منها فى المدينة (المنورة) وهذا مما دفع سعد العملاق أن يحمل جملة البائس تحميلا زائدا بأجولة القمح . وفى الحمراء دكاكين قليلة يمكن للمرء أن يشتري منها الغلال ، ونبات لسان الحمل (١٩) أو موز الهند بحجمه الكبير ، والخبز ، والأرز ، والسمن ، وغير ذلك مما هو صالح للأكل . وتمد بساتين النخيل الواسعة القرية بالتمور . والسوق هنا - كما هو الحال فى مثل هذه الأماكن فى قرى شرق شبه الجزيرة العربية - عبارة عن طريق طويل مغطى بالحصير هنا ، ومكشوف للشمس هناك ، والشوارع الضيقة (ان جاز لنا تسميتها

(١٩) عن معجم الشهابى للعلوم الزراعية : Plantain لسان الحمل أو آذان الجدى نبات من الفصيلة الصلية ، كما تعنى موز الهند ، ولا ندرى أيهما المقصود - (المترجم) .

شوارع) مليئة بالتراب ، ومعرضة لوهج الشمس . وبالقرب من مكان
عسكرية (تخييم) القافلة توجد قلعة للقائد العسكري الذى يرأس فرقة
من الخيالة الألبان الذين يقع على عاتقهم الدفاع عن القرية وضبط النظام
فى المنطقة وحراسة التجار المسافرين . ويتكون المبنى من سور خارجى
من حجارة منحوتة به كوات (جمع كوة) لاطلاق البنادق قديمة الطراز
(المسكيت) ، ويتم الصعود اليه بشرارييف Shara (remparts Coquets)
وفائدته لصد المدفعية كقائدة ممر السكك حول كعكة
عيد الغطاس twelfth-Cake (٢٠) . ولا شئ يمكن أن يكون أسهل من
مهاجمة المكان فالهجوم الكاذب (فى مناورة تدريبية) قد يلتفت نظر
المدافعين الذين لا يعرفون فى هذه العروض (المناطق) شيئاً عن أصول
الحراسة ، بينما قد يتيح استخدام المرقاة (سلم لتسلق أسوار المدن
المحصنة) أو حقيبة مملوءة بالبارود - مدخلا جهازاً فى الجانب الآخر .
وحول قلعة (الحمراء) توجد مجموعة من العرائش من جريد النخل
يستجمر فيها العسكر ويدخنون ، وبالقرب منها مقهى معتادة وهى ظلة
يحتفظ بها الألبان . وهذه العرائش ، وهذه المقهى يرتادهما العسكر بشكل
متتابع نظرا لحرارة الجو داخل القلعة .

لقد أمضينا يوما لا راحة فيه فى قرية الحمراء . وكان الرعاة يرعون
قطعا كبيرا من الخراف والماعز ، داخلين القرية ، وخارجين منها ، الا أن
هؤلاء الرعاة كانوا غلاظ الأكباد فلم يعطونا لبنا ولا حتى مقابل الخبز
واللحم . وأمضينا النهار فى ملاحظة البدو الذين يحملون البنادق ذوات
الفتائل وهم يتسلقون التلال اثر مجموعات الكركى (الكراكى)
Cranes ، ولم يسقط طائر واحد ، رغم الطلقات الكثيرة التى أطلقت
عليه - وهو ما يتناقض مع القول المعاد عن براعتهم فى الرماية . وقبل
الافطار اشتريت خروفا متوسط الحجم بدولار . وحلله (ذبحه وفقا
للشريعة الاسلامية) الشيخ حامد ، وسرعان ما أعد رفاقى افطارا من لحم
ضأن مسلوق ، الا أن هذا الخروف كان سببا للنزاع ، فالولد محمد باع
رأسه لأحد البدو بثلاثة قروش ، فهاج الآخرون لضياع نصيبهم فى هذه
الصفقة (٢١) وانهالوا بزعامة سعد العملاق ذى اللسان الذرب الوقح
بسيل من السخرية والتهكم على هذا التاجر النافه (تاجر الكروش) (٢٢)

(٢٠) السخرية واضحة - (المترجم)

(٢١) استخدم بيرتون كلمة Haggis وهو طعام اسكتلندى من قلب الخروف
وكبدته - أى ضياع نصيبهم من (الوجبة) أو من الأكلة . كقولنا قاته الثريد أو (الفتة)
أو ضاعت منه الشورية (الحساء) . وهكذا - (المترجم)

الذى استشاره تهكمهم فغدا هو الآخر هائجا غاضبا . ووجدت بعض الصعوبة في احلال السلام بينهم فلم يكن من مصلحتي أن يتعاركوا . الا أنه لتطبيق العدالة وفقا لمعادات العرب ، فلا أيسر على من يعرفهم من العزف على مشاعرهم الطيبة فقولك لهم « انه غريب في بلادكم .. انه ضيف » عبارة تفعل مفعول التعويذة ، فاستمعوا بصبر لشتائم محمد الفاحشة ، ووعدوا بآلا يردوا عليه الا في بلده التي يقال انها بالقرب من مكة (لمكرمة) . غير أن ما عكر علينا يومنا على نحو خاص ، هو ما قيل من أن سعدا شيخ المنسر (رئيس اللصوص الكبير) وأخاه كانا في حالة نشاط ، وعلى هذا فان مسيرتنا ستتأخر لبعض الوقت . وكان بعض القليل والقال يأتينا كل نصف ساعة من المخيم أو المقهى ، فيضيف وقودا الى نار صبرنا النافذ .

ان القليل من التفاصيل عن ظاهرة شيوخ المنسر (٢٣) ، (أو شيوخ اللصوص) في الحجاز قد يكون مقبولا . انه زعيم (شيخ) حميدة Sumaydah والمحاميد Mahamid ، وكلاهما فرعان قسويان من بطن حميدة Hamidah الفرع الرئيسى من قبيلة حرب البدوية . لذا فقد كان يطمع في حكم (مشيخة) بطن حميدة كلها ومن خلالها يحكم بنى حرب ، وفى هذه الحالة فانه يكون قد اعتلى عرش الديار المقدسة (الحجاز) يحكم الأمر الواقع . الا أن شريف مكة ، وأحمد باشا ، الحاكم التركى للمدينة الرئيسية (غالبا مكة) قد عزله ، ورقع من شأن منافسه الشيخ فهد وهو وغد آخر على الشاكلة نفسها ، فهو يطلق على نفسه لقب الشيخ بنى عمرو Amr وهم الفرع الثالث لبطن حميدة Sub-family of Hamidah family . ومن ثم فقد نشأ كل أنواع النزاع والقوضى . فقبيلة (شعب) سعد الذين يقال ان عددهم ٥٠٠٠ امتعضوا ، بحدة العرب وقوتهم ، للاهانة التى لحقت بزعيمهم (شيخهم) ، فضربوا جماعة (عشيرة) فهد التى لا تزيد على ٥٠٠ الا أنه الشيخ فهد — الذى تؤيده الحكومة — منع الامدادات عن عشيرة سعد . وكلا الرجلين (سعد وفهد) على درجة واحدة من القسوة والطيش ، فأنت لا تجد فى أى مكان آخر « الطيبة » المجيدة « والحرية » تظهران وجها نحاسيا صفيقا كما هو لدى الشرقي :

-
- (٢٢) استخدم بيرتون تعبير Triple seller وتاجر الكروش أو بائع الكروش تعبير يفيد أن الشيء المباع تافه لا يستحق كل هذا — (المترجم) .
 (٢٣) استخدم بيرتون كلمة Schinderhans (المترجم) .
 (٢٤) استخدم بيرتون "Liberty" ووضعها بين قوسين والمقصود هنا القمة وتجاوز الحدود — (المترجم) .

« أرض الشجعان والاحرار التي لا تنتهك حرمتها »

(٢٥) « Inviolable land of the brave and free »

فقد انتهز الطرفان الفرصة فأطلقوا النار على الجنود ، وسلبوا المسافرين وقطعوا الطريق . واستمرت هذه الفوضى حتى غادرت الحجاز ، الى أن اقترح شريف مكة - كما يقال - أن يمسك زمام الأمر بنفسه ضد الزعيم اللص (شيخ البصوص) . وكما سنقرأ بعد ذلك في هذه الصفحات ، فإن سعدا كان لديه من الجرأة والوقاحة ما جعلته يعيد محمل السلطان رمز السلطة الامبراطورية (العثمانية) ، ويخلق الطريق في وجه رجال السلطان ، لان قافلتي باشاوات المدينة ، وباشاوات قافلة دمشق ، رفضوا التعهد باعادته الى مكانته السابقة (الى رتبته الاولى) ووجود مثل هؤلاء الأشخاص القافهين (الهوام) يعطى الفرصة للمبرهنة على بلاهة الحكومة التركية . فالسلطان يدفع الأعطيات من قمح وملابس لكل الشيوخ القبليين الذين يقومون بدورهم بتسليح أوغادهم (رجالهم) ليعملوا ضده (أى ضد السلطان) ، كما أن الباشاوات - بعد أن يكونوا قد سرقوا كل ما يستطيعون - يقدمون لأعدائهم وسائل التمرد . أنه أمر لا يحتمل ألا يسمع السلطان عبد المجيد كلمة صدق واحدة عن الحجاز فحاشيته البغيضة تصور له أن أهل الحجاز يرتعدون من ذكر اسمه . وعلى أية حال ، فإن حكومة السلطان عبد المجيد راغبة ان كانت التقارير التي تصلها صادقة في جعل الحجاز على عائق الحكومة المصرية التي ستدفع عن طوعية ورغبة مبلغا كبيرا لتجنب مثل هذه الكوارث . فالأرض المقدسة تستنزف الذهب التركي والدماء التركية بشدة ومشايخ العرب يقومون بدور وضيع ، فهم حتى اذا قبضوا على لص فانهم لا يجسرون على شنقه .

فالترك يدعون التفوق على العرب ، ويكرهونهم ، والعرب بدورهم يحقرونهم . وفي الحجاز قد تكون تأثيرات خط كلخانة (٢٦) the Charter of Gulkhanah كتأثير دواء لجميع الأمراض - مثل دواء هولواي Holloway's pill - لمواجهة كل الشرور التي ورثها الترك والعرب والسوريون واليونانيون والمصريون والفرس والأرمن والكرد

(٢٥) من الواضح أن بيروت يسوق هذا البيت من الشعر على سبيل السخرية - (المترجم) .

(٢٦) صدر خط كلخانة المشهور سنة ١٨٢٩ (٢٦ شعبان ١٢٥٥) ، وهو مجموعة قوانين اصلاحية على النسق الأوربي مع مراعاة الشريعة الإسلامية ، وصدر في عهد السلطان عبد المجيد - ويريد بيرتون أن يقول أن الشرق لا يصلح له الا تنظيمات مستقاة من تراثه .

راجع : محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٧٠٢ (نشر دار النفائس) .

رحلة بيروت - ٢٠٩

والألبان • وننائج التنظيمات هذه Tanzimat (٢٧) تعد أغبى تفليد
للغباء الأوروبي - البيروقراطية والمركزية - أن تركيا لا تكف عن ممارسة
« التجريب » في حكم البلاد التابعة لها • وفى ظل الحكم المطلق قوى اليد
والقلب ، كحكم محمد علي ، فإن الحجاز فى خلال جيل واحد قد يتخلص
من هذا الطاعون (٢٨) فتلك الآلاف القليلة من اللصوص وقطاع الطرق
أنصاف العراء الذين يجعلون البلاد ديار حرب سيختفون حالا ويطويهم
النسيان ، اذا طبق بحزم مبدأ الأخذ بالثأر ، وإذا قدمت المساعدات الفعالة
للطبقات الضعيفة ضد الطبقات الأقوى ، وإذا أوقفنا كل بدوى عند حده ،
فالبدوى يعتبر البداوة فخرا له ، وفوق كل هذا ، اذا طبقنا العدالة بشكل
صارم • ولتحقيق ذلك فانه يلزم الترك استعادة الحكومة العسكرية
القديمة ذات الطابع الدموى ، فتلك سيكون لها أثر أقل بؤسا من نصوص
خط كلخانة والتشريعات الجديدة • أن الامر يتطلب ما دعاه ملتون :

« الحكم القاسى لحكومة متمدنة »

« The Solid rule of Civil government »

فهذا المبدأ قد فعل الأعاجيب بالنسبة للجنس الذى رعى فكرة
التلقائية فى منظماته ووصل بها الى درجة الكمال ولا زال على العالم أن
يعلم أن القواعد الدخيلة (المجلوبة) سوف تزدهر بين نبلاء الحجاز
الزائفين (٢٩) • فلسنا فى حاجة الى عيون تتنبأ لنتوقع اليوم الذى يحرر
الوهابيون أو البدو البلاد من الفاتحين الضعفاء (٣٠) •

لقد وصف لى سعد الجبلى العجوز بأنه بدوى أسمر صغير الحجم ،
تزدريه العين لكنه ذو شجاعة ملحوظة ، كما أنه حاضر البديهة • ويحمل
أثرا حادا من جراء غدر حاق به ، فثأره عند عبد المطلب شريف مكة الحالى ،
الذى قتل ابن أخيه ، وعداؤه لبعض السلاطين - كل ذلك قد جعل حياته
خطرة حافلة بالأحداث • لقد فقد أسنانه بسبب سم كان من الممكن أن
يقضى عليه ، لكن ذلك لم يحدث بعد أن شرب مقدار وعاء كبير من السم ،
فقضت هذه الجرعة من السم على أثر السم • ومنذ ذلك الحين وهو يعيش
- فقط - على الفاكهة التى يجمعها بنفسه ، والقهوة التى يعدها بيديه •

(٢٧) المقصود بتنظيمات خط كلخانة - (المترجم) •

(٢٨) المقصود الفوضى وانعدام الأمن • الخ (المترجم) •

(٢٩) كتبت هذه الملاحظة ١٨٥٣ ولا أجد داعيا لتغييرها سنة ١٨٧٨ (بيرتون) •

(٣٠) لقد انتصر السلفيون فعلا ووجدوا جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية بعد

ذلك ، وأسسوا مملكة شاسعة هى المملكة العربية السعودية - (المترجم) •

وفى فترة حكم السلطان محمود تلقى من اسطنبول (القسطنطينية) كيسا جميلا ، وطلب منه أن يفتحه لأن به أشياء تخصه بالذات ، ولأنه كان يتوقع الغدر ، فقد قدم الكيس لأحد عبيده كي يفتحه بعيدا عنه بمسافة كافية ، فلما شرع فى فتحه انطلقت رصاصة أصابت العبد من مسدس كان مخبئا بشكل خداعى فى طيات الكيس وسواء أكانت هذه القصة المعروفة جيدا ، حقيقية أم مجرد نسج محبوبك ، فالذى لا شك فيه أن الشيخ سعيدا يخاف الآن من الترك حتى لو قدموا له الهدايا . فالسلطان يرسل له - أو من المفترض ذلك - هدايا من خيول جميلة ، وخلق تشريفية ، وكميات كبيرة من الغلال ، الا أن الشيخ يثق فى تلاله أكثر من ثقته بالخيول ، فيبيعها ، ويتخلص من الثياب بتقديمها لعبيده ، ويوزع الغلال على عشيرته . وعن شخصيته ، فإن الرجال يتخذون منها موقفين : بعضهم يمتدح كرمه ويسمونه صديق الفقراء لأنه - وهذا مؤكد - عدو للأغنياء . وآخرون على العكس من ذلك - ينعتونه بالقسوة وبرود الدم ، ويذكرون أنه معروف حتى بين العرب بجشعه وحقده . وربما كانت حقيقة شخصية الرجل وسطا بين هذين الرأيين المتطرفين ، لكننى لاحظت أن رفاقى الذين يتحدثون باستعلاء عن زعيم اللصوص هذا وهم بعيدون يبدون فى حالة رعب وهم تحت ظلال تلاله .

و (الحمرا) هى المحطة الثالثة من المدينة (المنورة) فى الدرب السلطاني the Darb-Sultani أو الطريق الصالى . والخط الغربى يؤدى الى مكة (المكرمة) على طول ساحل البحر . وإذا أذن اللصوص فإن الحجاج يفضلون هذا الطريق لا اعتدال مناخه وتيسر الماء به وقربه من البحر ولمروءه ببدر التى شهدت أولى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة الثانية للهجرة وبعد منتصف النهار فى اليوم الواحد والعشرين من شهر يوليو بعد أن رتبنا أمورنا على أن القدر شاء أن نتوقف فى (الحمرا) ، وصلت من مكة (المكرمة) قافلة ، وكان هؤلاء المسافرون الجدد حريصين على اصطحاب حرس معهم وأن يتخذوا طريقهم بسرعة ودون تأخير للمدينة (المنورة) . وقد ملأنا هذه الأخبار الطيبة بالسرور . وبعد الساعة الرابعة مساء بقليل حشنا جمالنا اللاهثة على المسير فوق الرمال الملتهبة للحاق بالمكيين الذين كانوا متأهبين للمسير فى الجانب الآخر من بطن السيل (المسيل) . وبعد ذلك بساعة اتخذنا اتجاهها شرقيا .

وقد وجد رفاقى فى قافلة المكيين أصدقاء وأقارب ، فاخو الولد محمد الأكبر الذى سأحدث عنه فى موضع آخر كان فى عداد هؤلاء الذين كانت

جمعهم (جمع جعبة) ملأى بالأخبار والعجائب . ولما غربت الشمسس أدوا صلاة المغرب باستمتاع وحماسة حتى سعد وحامد لم ينيخوا جمالهم أثناء التوقف عندما كان كل من حولهما يتوضأ ، فقد تيمما Sanding themselves وأديا الصلة ، ثم تناولنا عشاءنا وامتطينا خيولنا . وبدأنا السفر كرة أخرى . وبعد أن هبط الليل بقليل كان علينا أن نتوقف فجأة إذ سمعنا اثني عشر تقريراً (رواية) في هذه الظروف ذلك أن جماعة من البدو تحصنوا في ممر ضيق وأرسلوا لنا وفداً « برلمانيا » (٣١) ليأمرنا بالتوقف . لقد طلبوا في البداية مالا ليسمحوا لنا بالمرور ، لكن أخيراً سمعوا أننا من أبناء المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) فسمحوا لنا بالمرور فرداً فرداً حتى يعود المسلحون منهم من حيث أتوا ، فهم يكرهون ويخافون كفلاحى إيرلندا . وفوق هذا فإن حرسنا أداروا خيولهم وعادوا لشكائهم . وعلى أية حال ، فقد تقدمنا دون أن نقابل أى لصوص ، وقد أشار قائد جملى (جمالى) وأرانى طائراً صغيراً يحوم حول المكان حيث توقع وجود ماء يسيل من الصخر . وكان أحد الرفاق قد حاول أن يهزأ بى عندما كانت المعركة على وشك الحدوث (يقصد عند ظهور اللصوص الآنف ذكرهم) فصاح قائلاً : « لم لا تحشوا مسدسك يا أفندى ، وتخرج من شقذوفك وترينا كيف يكون القتال ؟ » فأجبت به بصوت عال : « لأنه فى بلادى ، عندما تلاحقنا الكلاب ، فاننا نضربها بالعصى » . وهكذا أغلق منصور فمه لفترة ، لكننا (أنا وهو) لم نكن أبداً أصدقاء . فقد كان منصور هذا فى حاجة أن يعامله المرء معاملة سيئة - مثله فى ذلك مثل أفراد الطبقة الدنيا فى الشرق ، فهو يرى فى الكياسة والتنازل دلالة على الجبن والبلادة . لقد بدأت التعامل معه برقة ، لكنه سرعان ما أجبرنى على أن ألقم البفاظا قاسية ، وبعد ذلك اضطررت لتهديده ، ورغم أنه كان يعبس ويتمتم بكلمات غير مفهومة - إلا أن هذه الطريقة فى معاملته جعلته يتحسن ، فالشاعر الفرنسى القديم يقول :

« Oignez Vilain, il vous poindra !

Poignez Vilain, il vous oidera ! »

وهو قول يصدق فى الشرق ربما أكثر من صدقه فى الغرب .

دخلت رحلتنا الليلية من أحداث أخرى ، لقد كنا نسافر فوق أرض مرتفعة ، والقمر فى حالة التمام يملأ وجوهنا ، وفى حوالى منتصف الليل مررنا خلال مجموعة قرى مبعثرة تسمى الجديدة Jadaydah

(٣١) السخرية بادية فى هذا التعبير كما هو واضح - (المترجم) .

أو الخيف Al-ûhayf يقع الجزء الرئيسي منها الى شمال الطريق المؤدى للمدينة (المنورة) وبها قلعة تشبه قلعة (الحمراء) ، وينابيع ذوات ماء مستساغ طعمه ، ويسماتين نخيل ، ومقام أحد الأولياء المشاهير وهو عبد الرحيم البرعى (؟) Burai ، ويقع الى الخلف منها بقليل بوغاز (شعب جبلى أو دحل) لقي فيه طوسون بك و ٨٠٠٠ تركى معه هزيمة ساحقة على يد ٢٥٠٠٠ من البدو والوهابيين (٣٢) وهذه نقطة هجوم شهيرة لبنى حرب • وفيما مضى ارتبك الجزار باشا ، جزار سوريا الشهير ، وعبد الله باشا حاكم دمشق عند مضيق الجديدة ، لذلك فان قائد قافلة الحج الشامى سدا العام نحاشى المرور بهذا الطريق وفضل الوصول لمكة (المكرمة) باستخدام طريق نجد الصحراوى خوفا من تعرضه للهجوم عند هذا المكان ذى الفأل السيئ • وفى الساعة الرابعة صباحا وصلنا الى بير عباس ، بعد أن قطعنا أربعة وعشرين ميلا فى اتجاه الشرق •

(٣٧) السلفيون اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويسمون ايضا بالسعوديين لتحالف محمد بن سعود مع الشيخ ابن عبد الوهاب - (المترجم) •

الفصل الرابع عشر

من بين عباس الى المدينة (المنورة)

وصف موقع بير عباس - مشايخ العرب يذهبون لاستلام رواتبهم التي يعث بها الدولة العثمانية - التشكيلات العسكرية للالبان - النظام فى التدريب العسكرى يجب الا يقتل الروح الفردية - الخوف من الحوامد - قرية الشهدا - بير الهندى - السوق - سد الدين عند الشرقيين - وادى المعقيق - الحرتين - الدعاء ومنظر المدينة المنورة .

كان اليوم الثانى والعشرين من شهر يوليو ، محنة كبيرة لقافلتنا الصغيرة ، فموقع (بير عباس) يشبه تماما موقع (الحمراء) Al Hamra غير أن نتوء المسيل الذى يطوق التل ، فى هذا المكان يبلغ عرضه ميلين (١) . وتوجد هنا القلاع الحجرية المعتادة والعرائش المشيدة من جريد النخل للعسكر المقيمين هنا لحراسة المكان والمسافرين ، كما توجد مقهى فى ظلة وكوخ (عريش) أو كوخان ، يطلقون عليه اسم السوق ، ولا توجد قرية هنا . لقد كان الموضع الذى خيمنا فيه عبارة عن أرض ذات رمل هش ، عصفت به رياح السموم ، فعبات الهواء به . ولم تر العين شجرة أو حتى شجيرة ، أما عن الحياة الحيوانية ، فلم يبق منها سوى أنواع من جراد شديد الاحتمال ، وأسراب من ذباب . لقد كان المشهد صورة مشوهة تشويها بالغالما رأيت فى السند .

(١) المسيل الصغير ذاته Fiumara لا يمكن أن يكون عرضه ميلين ، فالمسيل الصغير مجرى مائى غير عريض يهبط من قم التلال أو الجبال ومجره قد لا يزيد عرضه عن بضعة أمتار ، وذلك بخلاف المسيل torrent الذى قد يكون عريضا . لحديث بيرتون هنا ليس عن المسيل ، وإنما عن نتوء التل الذى يجرى منه المسيل وعلى أية حال ، فمن الأفضل إيراد نص عبارته :

“except that the bulge of the hill-girt Fiumara is at this place about two miles Wide”.

ويلاحظ أن أهل الجزيرة العربية يطلقون لفظ (السيل) والمسيل على المجرى ذاته سواء أكان جالما أم ممثلا بالمياه - (المترجم) .

ورغم اننا كنا الآن فوق سطح البحر يبضع مئآت من الاقدام - مستبدلين على ذلك بانحدار مقسمات المياه . الا أن شمس منتصف النهار كانت تحرقنا حتى ونحن داخل الخيمة ، التي سقطت أكثر من مرة ، وكانت اعادة نصبها مؤلمة بسبب حرارة الرمال . وهرع زملائي مرة أخرى بعد تناول الافطار الى المقهى وعادوا واحدا اثر واحد بحكايات وتقارير تدعو للكآبة ، وانخرطوا بعد ذلك اما فى عراك لا معنى له ، أو القوا بأنفسهم على أبسطتهم متظاهرين بالنوم ، وهم فى جهامة وعبوس كاملين . ووبخت الست مريم ابنها العنيد بعنف لرفضه أن يملأ الشيبوك (٢) (بيبة التدخين التركية) للمرة الثانية عشرة ذلك الصباح بقولها القول المعتاد ذا الطابع الدينى « الله يهديك يابنى » ومعنى هذا أنه يسير فى طريق غير سوية ، وقولها : « يا مصيبتى ، ان أمك امرأة وحيدة (٣) فى القافلة ، يا الله » ومثل هذه العبارات تساوى تفجع الآباء والأمهات فى أوروبا لاشتهال رؤوسهم شيبا وقرب هبوطهم الى مستقرهم الأخير (القبور) . وقبل الظهر وصلت قافلة صغيرة كانت تتبعنا ، وكانت تحمل جثتين ، احدهما لجندى حراسة أطلق البدو عليه النار ، وثانيتها لآلبانى مات بضربة الشمس ، أو بفعل الرياح الملتهبة .

وبعد منتصف النهار بوقت قليل غادرتنا هذه القافلة متجهة فى اتجاه معاكس ، وكانت تتكون بشكل أساسى من حجاج هنود يرتدون ملابس الاحرام ، ويسرعون صوب مكة بشوق حار . وقد سمح لهم بالمرور دون ازعاج ، وذلك لأنه قد لا يمكن جمع جثية استرليني من جيوب مائة منهم ، كما أن لسعد قاطع الطريق ، بعض المآثر الهينة فى أحيان . لكن جماعتنا (قافلتنا) بدت غير قادرة على استعادة رباطة جأشها بسبب هذه الحادثة رغم رغبتنا فى الوصول سريعا للأماكن المقدسة . وفى المساء ذهب جمعنا الجميع لنرى بعض الشيوخ العرب الذين كانوا ذاهبين الى (بير عباس) لاستلام رواتبهم (أعطياتهم) . وبدون هذه الرشاوى (يقصد الرواتب) (*) فإن القلاع والأسوار لن تمكن الترك من الاحتفاظ بالحجاز والدفاع عنه ضد هؤلاء الجبليين ، وهو قول شائع واعتقد أنه صحيح . وان لنا نظاما مثل هذا فى أفغانستان (٤) وهو نظام أحمق ، فهو يعلم الرعية احتقار الحكام الذين يخضعون للإبتزاز . وبالإضافة لهذا ، فإن هؤلاء الشيوخ الذين يتقاضون رشاوى (أعطيات) كبيرة لا يقومون بعمل

(٢) أو الشبك ، وأشرنا له فى حاشية سابقة - (المترجم)

(٣) بالعامية المصرية « امرأة وحداية » أى لا معين لها - (المترجم)

(٤) باعتبار بيرتون يتقصد فى رحلته هذه شخصية أفغانستانية - (المترجم)

(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم

طبيب . فعندما تنشب الحرب ، أو يقطع الطريق ، فانهم يدعون عجزهم عن كبح جماح عشائريهم . وهؤلاء الشيوخ أغنى من غيرهم ، وبالتالي فقد أصبحوا أكثر خطورة وقدرة على البطش . ونظرت قافلتنا جيدا ، فوجدت أن هؤلاء الشيوخ كانوا من قبيلة حرب ، وكانوا كبار السن عليهم سيماء الوقار ويلبسون الزى العربى التقليدى كأبى ما يكون ، وكانوا منتصبين ، ذوى ملامح نحيلة وحادة ، ولحى بيضاء ، ومسلحين تسليحا جيدا ، ويمتطون جمالا أصيلة من الشرق (٥) . مجهزة تجهيزا جميلا ، يتبعهم رجال من عشائريهم نصف عراة ، يحملون رماحا ، يبلغ طول الرمح منها اثنى عشر قدما أو ثلاثة عشر قدما ، ومزينين بريشة نعام قصيرة سوداء أو ريشتين . ويحملون بنادق ثقيلة ذوات فتائل ، أطلقوها عند اقترابهم من القلعة ، ولم يكن تصرفهم يخلو من طابع الخيلاء المتبربر . وبعد استقبال الشيوخ ، سرعان ما أقيم استعراض عسكري قام به الفرسان الأرناؤوط (٦) غير النظاميين . وكان خمسمائة منهم قد ثبتوا لصوت الناقوس الذى كان صوته الواهى يتناقض تناقضا يثير الدهشة مع نظرة الحرب الحقيقية التى تقدم شررا من عيونهم . لقد كانوا حقيقة يركبون أفراسا عربية ومصرية ضعيفة . مهلهلة المنظر كتيابهم ، وكان كل فارس قد سلح نفسه بطريقته الخاصة ، رغم أنهم جميعا كانوا يحملون السيوف والبنادق القصيرة والبنادق ذوات الفتائل أو بعض البنادق القديمة من النوع ذى الزناد . لكنهم يمتطون جيادهم بقوة وكأنهم فحول ونظر اليهم الجميع نظرة اهتمام واهتمام بشجاعتهم وحفزنى ذلك على الاعجاب بهم بشدة . وكانت خيولهم - أيضا - جيدة التدريب رغم هزالها ، أما ثيابهم وأسلحتهم العسكرية فقد أعدت للحرب لا للاستعراض . لقد تابعت مناوراتهم باهتمام وفضول . وقد غادروا معسكرهم واحدا أثر الآخر ، وعند سماعهم الطبله شكلوا بالتدريب طوابير منظمة ، ولا يمكن أن نقول إنهم يحتشدون باهمال دون خطة . وحالما غيرت « الطبله » نغمتها حتى أخذ العرض العسكرى تشكيلات ملأمة للنغمة ، فانتشروا وكأنهم مشاة خفاف ، وهم يواصلون - الآن - تقدمهم ، ثم استنداروا عائدين (خلفا در) ، ثم اندفعوا للأمام (أسرع) ، وفى إشارة أخرى جعلوا - كانوا خلالها يحشون بنادقهم كل على حدة أحيانا وبشكل جماعى غالبا ، خيولهم تتخذ أقصى سرعة لها ، بشكل مفاجئ ، وطوقوا مركز العرض ، ومرة أخرى تقدموا فى جماعة كثيفة . وبعد ثلاثة أرباع ساعة من العرض - كانوا خلالها يحشون بناءتهم كل على حدة أحيانا وبشكل جماعى غالبا ، ويستديرون اليمين (اليمين در) وللشمال (للشمال در) ، ويسديرون

(٥) نجدية ، أى من نجد - (المترجم) .

(٦) أى الألبان - (المترجم) .

الأمم (للأمم سر) ويتوقفون عند الضرورة ، ويتراجعون وفقا للظروف وعاد الأرناؤوط بشكل جماعي الى خطوطهم (قواعدهم) بطريقة تحفر في الذاكرة ولا تنسى . ولما اقتربوا توقف الجميع فجأة ، ثم عدوا بأقراسهم وأطلقوا نيران بنادقهم باهمال كثير على أهداف يفترض أنها تمثل العدو .

وأثناء حدوث هذا كله وفى اليوم التالى لاحظت أن الرصاص كان يطلق لمجرد اللعب والترفيه فهو رصاص صوت (لاحتاد صوت ، لالقتل) وقد يظهر مثل ذلك حتى فى مدرسة مارتيننت مدرسة الفروسية العريقة ، بالاضافة الى أن شيئا من هذا القبيل سيكون من بين تكتيكات سلاح الفرسان ، وأعود مرة أخرى لأبدي رأى المتواضع وهو أن سلاح الفرسان البطيء نسبيا سيتحول الى سلاح مربع بعد الاتفاق التام لاستخدام البنادق والمسدسات ومدفعية الميدان .

وأىضا اذا تبيننا الرأى الذكى للكاتب المعاصر (٧) ووضعنا فى اعتبارنا « الشجاعة الفردية والمهارة فى المعارك الفردية ، والفروسية البارعة والسيوف الحادة ، فان كل ذلك سيجعل سلاح الفرسان . سلاحا خطيرا » فأنصف البرابرة هؤلاء أكثر وعيا فى تنشئتهم من المتمدنين الذين لم يمارسوا أبدا التدريب على السلاح ، فتدريبتهم على الركوب لا يخلق منهم فرسانا جيدين أبدا ، فخيولهم مثقلة وسيوفهم لا جدوى منها . ولأنصف البرابرة هؤلاء مجال آخر للتفوق علينا فهم يزرعون الفردية فى الجندي ، بينما نعمل نحن بشدة على جعله مجرد أداة .

وفى أيام الفروسية الأوربية كانت المعارك نظاما من نظم المبارزة التى تتجلى فيها البراعة فى القتال . وأعقب ذلك عصر « النظام » حيث استخدمنا لغة الرايبلين Rabelia « والرايبلين هم رجال يبدون أكثر نظاما

وتوافقا فى تحريك أعضائهم وأسلحتهم . على نحو ما تتحرك عجالات الساعة ، دقة وانضباطا ، أكثر مما تتطلبه كتائب المشاة والفرسان ، أو جيش من العسكر . ان هدفنا يجب أن يكون ألا هو المزاوجة بين مزايا النظامين أنفى الذكر بمعنى أن تجعل الجندي ممتازين كأفراد فى استخدام السلاح ، وأن نستمر فى تدريبتهم ليصبح استخدمهم للسلاح طبيعيا ومعتادا مع الاتفاق والانسجام فى الأداء . وقد قدمت فرنسا النموذج لأوروبا فى الشاسور دى فنسمن Chasseurs de Vincennes كتشكيل قابل لتكوين مجموعة مؤتلفة تماما يمكنها

(٧) هو الراحل الكابتن نولان Nolan (بيرتون) .

القتال بشكل جماعي متنسق على نحو رائع ، وان كانت روعتها في القتال
مجتمعة ليست أفضل من روعة مقاتليهم وهم يقاتلون فرادى » ونحن - كما
أقترح - سوف نحدو حذوهم في المستقبل القريب .

لقد شهد يومنا الكتيب الأول في بير عباس ، سماعنا لأصوات
الأسلحة النارية على البعد ، وكان هذا علامة على أن فرق الحرس ولصوص
التلال يقتتلون ، كما قال رفاقي . وقاموا بدور الاستخبارات لمواجهة رغبتى
الملحة فى الاستمرار فى السفر ، لقد افترضت أن البدو بعد أن حاربوا
ليلا ، فانهم سيكونون أقل رغبة فى القتال فى اليوم التالى ، وقد اتفق
معى فى هذا الرأى آخرون اتفاقا كاملا . وعندما كنا فى ينبع ، كان كل
أفراد القافلة يتباهون بأن أهل المدينة استطاعوا اخضاع البدو للنظام
وسخروا من الولد محمد لتفوقهم فى هذا المضمار على أهل بلده المكين .
أما الآن فان ثمة تجربة مريرة على وشك الحدوث فلم أر واحدا يتحلى
بشجاعة واضحة عندما لاحظت نذر الخطر . وكان التغيير الذى حاق بهم هو
التفضل باستحضار بعض قيمهم : فالصحارى ليس لها كبير - انها كالضمير
تحيلهم الى جبناء . لكن الشاب المكى الذى أرسل مع صندوقه من ينبع
الى حدة قد أغرقته السعادة كمسافر خالى البال فلم يفوت الفرصة ليأخذ
بثأره القديم ، فسخر من أهل المدينة حتى أهاجهم وأغضبهم غضبا شديدا .
وأخيرا فقد طوقت عنقه وظهره (من فوق عجيزته) وسحبته من ثوبه الى
داخل الخيمة خوفا من حدوث اضطراب وحرضا على سلامة الفتى .

وعندما خف الضجيج وجلس الجميع بعد العشاء يدخنون شيشة
السلام فى هواء الليل البارد ، جلست معهم ووجدتهم كالعادة يتحدثون عن
الشيخ سعد العجوز . وكان المشهد يتناسب مع الموضوع الذى يتحدثون
فيه . فعلى البعد بدت قمة زرقاء مرتفعة يقال انها وكره . وكان المكان
يشع بهمان مرعبة .

ولما كان الوكر مستعصيا على الغرباء ، فقد حول المتحدثون مسار
الحديث ليجعلوا منه جنة ارم Iran . على أية حال ، فان نظرة خاطفة
لموقعة وتكوينه تجعلنى اقنع أن الينابيع الفواردة والغابات الكثيفة وپساتين
التفاح والسفرجل والرمال التى تصورها رفاقى فى هذا المكان (الوكر)
مجرد خرافة ، اذ أن معرفة سطحية بجهل العرب بفن الدفاع قد جعلت فى
نفسى شكوكا قوية عن وجود تحصينات منيعة فوق قمة التل . وعلى أية
حال فان الجبال تبدو جميلة فى ضوء القمر وتبدو على البعد شبيهة
بالينابيع السرية مما يتناسب مع الموضوعات التى يستوحونها .

وفى تلك الليلة نمت داخل شقودوفى فمن الحق أن أنام فى السهل المكشوف فى مكان مبتلى باللصوص . وأن يتسلح المرء ، فإن ذلك مجرد حذر بائس ان كان قريبا من وكر اللصوص . فإذا جرح رجل أثناء عملية سلبك فلا بد أن تدفع مبلغا باهظا ثمنا لدمه . وإذا قتلته حتى لو كان ذلك دفاعا عن النفس فقل وداعا لحياتك . ولما استيقظت ثلاث مرات أو أربع ليلا بسبب حركة الكلاب وأبناء آوى التى كانت تتسكع حول معسكرنا الصغير ، لاحظت أن رفاقى الذين كانوا قد وافقوا أن يتناوبوا الحراسة - قد استغرقوا جميعا فى نوم عميق . وعلى أية حال ، فعندما استيقظنا صباحا لم تسفر مراجعتنا للبضائع والممتلكات عن ضياع شئ .

وفى اليوم التالى (٢٣ يوليو) توقفنا توقفا اجباريا ، فالألم يثير فى المسافرين حدة الطبع ، والشمس والرمل والغبار ، ورياح السموم البشعة ونقص بعض المؤن القليلة ضاعف من غضبنا . وكانت قدمى المتفرحة قد زاد التهابها بسبب قشر البصل الذى وضعته عليها والتى أصرت الست مريم أنه علاج لها . وقد دفعت عشرة دولارات للحصول على جمل جديد ليحملنى الى المدينة لأنى وجدت أن حل ما نحن فيه من مشاكل يكمن فى التقدم مستثمرين فى السفر بأية وسيلة يمكن تديرها - للمدينة (المنورة) . وقد أعلن الشيخ حامد أيضا أنه سيترك صندوقه أمانة لدى صديق ليصبحنى . أما سعد العملاق فاتبع هواه وهدد الولد محمدا فيما بينه وبينه أنه سيقطع أرجل أى جمل يتجرأ (على الحركة) من المخيم . فهذا الولد - كسائر الأولاد فى العالم - لا يترك فرصة للاحاق الأذى ، وقد اتصل بنى فورا وراح يجادلنى بانفعال شرير . وقد اعتذرت بقية المجموعة (القافلة) لسعد ، واستنكرت ما نحن بصدده ، وسرعان ما هدا هو نفسه لأنه كما اعتقد لم يكن هناك جمل للايجار فى بير عباس . وقد طلب منا أحد أفراد الحامية الالبانية الذين حصلوا على اذن بالذهاب للمدينة (المنورة) ان كان فى امكاننا حمله معنا ، والا فانه سيضطر لقطع الطريق اليها سيرا على الأقدام وقد ناقشنا امكانية السفر بين التلال باتخاذ طريق فرعى (مدق) من الطرق الفرعية الكثيرة التى تتخلل هذه التلال . وبعد مناقشات مستفيضة رفضنا الفكرة تماما .

وقد أمضينا اليوم كالمعتاد ، فقد ازدحم الجميع تحت الخيمة لتكون لهم وقاء ، وحتى مريم التحقت بجمعنا وقالت لابنها على بصوت عال أنها لم تعد امرأة ، وإنما رجل ، وبينما جماعتنا - بشكل عام - يختبئون من النظرات النارية للشمس ، كان آخرون أما يأكلون ، وأما يدخنون ،

أو كانوا مشغولين بشرب الماء والتبرد به . وعند غروب الشمس تقرينا
وصلنا خبر بأن علينا أن نبدأ المسير هذه الليلة ، ولم يكن أحد ليتصور
أن القدر قد ادخر لنا هذا النبأ الطيب ، وعلى أية حال فقبل النوم وضعنا
حمولة كل جمل على حدة لنكون جاهزين لتحميله فى اللحظة المناسبة ،
واتخذنا حذرنا من أن يأخذ البدو المصاحبون لنا دوابنا بعيدا .

وأخيرا ، فى حوالى الساعة الحادية عشرة ليلا ، عندما بدأ القمر
يظهر الجوانب الشرقية للصخور ، سمعنا الصوت البهيج للبطلة داعيا
الفرقة الألبانية لامتطاء جيادها لبدء المسير . وفى أقصر وقت ممكن كان
الجميع مستعدين ، وبسرعة عبرنا السهل الرملى ، وسرعان ما وجدنا
أنفسنا بصحبة ثلاث قوافل أو أربع ، فكونا قافلة كبيرة ، مما يهيمى لنا
فرصة أفضل لمواجهة الحوامد (٨) Hawamid المرعبين . وقد كنا نحن
— رغم وصول القادمين الجدد الذين انضموا إلينا — الذين عملنا على تأمين
أماكن فى منتصف الخط (خط القافلة) تقريبا ، بكثير من المناورة والدهاء ،
ونحن حاملون السلاح بأيدينا ، وقد اتخذ الشيخ حامد والعلاق أماكن
بارزة . وفى مثل هذه الظروف يندفع الجميع للأمام بطيش ، كالغوغاء
الانجليز الذين يتزاحمون لرؤية مشهد . ومؤخرة القافلة — لكونها بدون
حراسة — كانت تعد هى المنطقة الموضحة للخطر . ولم يحاول أحد أن
يحظى بشرف شغلها .

لقد سافرنا هذا الليل فوق مسيل فى اتجاه شرقى وعند الفجر
تقريبا ، فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو وجدنا أنفسنا فى شعب
سء السمعة يسمى شعب الحج وكلما اقتربنا منه خرسست أصوات ذوى
الحناجر القوية ، ونطقت وجوههم بالخوف والجبن الواضح فى تكوينهم .
ومن منحدر صخرى شاهق عن يسارنا ، سرعان ما ظهر خيطة دخان أزرق
ملتف ، جذب إليه كل العيسون بشسكل أو بآخر — لقد ارتفع هذا
الخيطة الدخانى فى الهواء وسرعان ما دوت فرقعات حادة صادرة عن البنادق
ذوات الفتائل لرجال التلال ، ورددت الصخور صداها عن أيمننا .

وكان شغلنا قد كسر بسبب تعثر جملى خلال الليل ، فنادت
على منصور وطلبت منه أن نجدل الجبل الذى يطوق الشجودوف بقطعة
جبل أخرى ، فرفع بصره ، وضحك لما رأى ، وقذف من فمه ما يدل على
الاستهزاء واختفى . وبدأ عدد من البدو يحتشدون كالدبابير على قمم
التلال أولادا ورجالا يحملون أسلحة ضخمة ويتسلقون بخفة القلط ،
واتخذوا لهم مواقع مريحة على رواب صغيرة ، وبدءوا يطلقون النار علينا

(٨) انظر الفصل السابق — (المترجم) .

بارتياح كامل . لقد منعنى ارتفاع التلال ووهج الشمس المرتفعة من رؤية الأشياء بوضوح ، الا أن رفاقى قد أشاروا لى الى المكان حيث كانت الصخور تنحدر بشكل شبه عمودى ، وحيث كان يوجد متراس حجرى سميك (الصنجة Sangal كما تسمى فى أفغانستان) وقد أعدت لتكون وسيلة للدفاع ولتبرز من ورائها الماسورة الطويلة للبندقية ذات الفتيل . ولا جدوى من هذا المتراس فى حالة هبوط البدو وشروعهم فى مقاتلتنا كما يتقاتل الرجال فى السهول . انهم سيفعلون ذلك فى الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية ، لكن ذلك قلما يحدث فى الحجاز . ولم يكن موائنا لحرسنا أيضا أن يطلق النار على عدو كامن خلف الصخور . وبالإضافة لهذا ، فانه اذا تم قتل لص ، فان المنطقة كلها ستقوم قومة رجل واحد لتنتقم منا ، بقوة قوامها ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ ، وقد يكون لديهم من الشجاعة ما يجعلهم يهزمون قافلة وفى هذه الحالة فلن ينجو من أفراسها أحد . وقد وجه البدو نيرانهم - بشكل رئيسى - نحو الألبان .

وقد طلب هؤلاء مساعدة جماعة شيوخ العرب الذين اصطحبونا من بير عباس ، لكن الشيوخ الوقورين ترجلوا وجلسوا فى حلقة حول شيشهم (جمع شيشة) وذكروا أنه ربما لا يصيخ اللصوص السمع لهم ، لذا فمن الأفضل عدم تجشم عناء الكلام .

ولم يكن لدينا ما نفعله سوى أن نتمظ غضبا كلما اشتعل البارود ، وأن نحجب أنفسنا كلما أمكننا ذلك ، ولقد كان نتيجة الأمر أن فقدنا اثنى عشر رجلا ، بالإضافة لجمال وغيرها من دواب التحميل . ورغم أن اللصوص لم يبدوا علامات الشجاعة من موقعهم فوق قمة التل ، الا أن رفاقى رأوا أن يعتبروا هذا الأمر المشكوك فيه عملا فائق الجرأة .

وبعد ساعة أخرى أرهقنا فيها دوابنا من الجرى خلال وادى السيالة Sayyalah ظهرت لنا قرية الشهداء Shuhada التى اندفعنا اليها .

« كالسارى بليل فى طريق لا ثانى له »

تطبق عليه الجن من خلفه تكاد تطأه »

وقد اتخذت « الشهداء » اسمها هذا لأن أربعين شهيدا كانوا يحاربون مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى إحدى غزواته ، قد دفنوا هنا ، الا أن بعض المصادر تشير الى أنها مقبرة لأهل وادى السيالة ، وهذا

الوادي الذي كان أهلا بالسكان ، خرب الآن ، وقد يمر المرء بسهولة ببقعة موقوفة لغرض نبيل دون أن يلاحظ الجدران القليلة المخربة وسلسلة قبور البدو البدائية التي لا تتعدى أن تكون أحجارا بيضاوية بين الأشواك الى اليسار ولا تبعد عن الطريق الا قليلا . وبعد نصف ساعة أخرى وصلنا الى محطة توقف أخرى ملائمة . انها **بير الهندي** التي حملت اسمها نسبة لبعض الهنود الذين حفروا بئرا في هذا المكان . ولكننا تركنا البئر خلفنا رغبة في الابتعاد قدر الامكان عن وكر حميده Hamidah ومن ثم توقف المسيل واتجهنا صوب الشمال في طريق مطروق في أرض حجرية مرتفعة . لقد أصبحت الحرارة مسببة للمرض هنا ، فالشمس أكثر لهيبا وخطورة بعد الفترة من الثامنة الى التاسعة . ولازلنا نسرع ، ولم نصل الى مقصدنا الا في حوالى الساعة الحادية عشرة ، وكان سهلا مغطي بالأحجار والحصى الغليظ وكثيرا من أشجار الشوك ومحاطا بصخور قاسيات على شكل بروج ، وأسفلها جرائيت ، وأعلىها حجر جيري جميل . وكانت البئر على بعد ميلين على الأقل ، ولم نر أى مسكن (عريش) . وكان بعض أطفال البدو الذين ينتمون الى قبيلة منبوذة يرعون الماعز الهزيلة فوق التلال وهذا المكان يسمى السويقة Suwaykah وهو - كما قيل لى - مكان مشهور في تاريخ العرب ، وليس لهذا السبب وحده كان رفاقي ينظرون لخرايبه بحب وتأثر ، فقد كانت صناديقهم آمنة ، وكانوا يستطيعون الآن أن يشاهدوا بعين الخيال مساكنهم . وكان علينا أن نقطع في ذلك اليوم حوالى اثنين وعشرين ميلا ، وكان الطريق يتخذ اتجاهها شرقيا مباشرا ، والملاحظة الوحيدة على مظاهر السطح أن الأرض كانت ترتفع بشكل مستمر .

لقد نصبنا خيمتنا تحت شجرة ميموزا Mimosa (٩) تلك الشجرة البغيضة التي يشبه البدو الشعراء ظلها بالصدى الزائف لدى يتخلى عنك وأنت في ذروة الحاجة اليه . لقد ملأت هذا اليوم الكتيب بالحوية بتصفية حسابي مع سعد العملاق . اذ كان حصل - بسبب خفته - على زوج من الدولارات كقرض ، عندما كنا في ينبع ، وكان قد اشترى غلالا في الحمرا ، وها نحن الآن بالقرب من المدينة المنورة ، ولم ينبس بيتت شفة عن رد الدين . ولأننى أعلم أن المدين الشرقي يسدد دينه كما لو كان يدفع أجرة - خصوصا وكأنه يقطع من لحمه - ومن ناحية أخرى فان الدائن (صاحب

(٩) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية : جنس نبات وجنبات من الفصيلة القرنية وازهارها بيضاء أو صفراء أو وردية ، ويستعمل حاليا اسم أكاسيا بدلا من حيدوزا ، وهو على أنواع : سنط عربى ، عرفط - سلم ، يقول المترجم : والمقصود غالما شجرة السنط أو السلم - (المترجم) .

الدين) سيكرس جهده طوال عام لاسترداد ستة بنسات (المقصود مبلغ تافه) ، لذا فقد عازمت أن أفعل كما يفعل أهل البلاد ، فطالبت بالحاج وطلبت رهنا لا يسترداد أموالى . وعند الظهر تقريبا ، اندفع سعيد العملاق عارى الرأس - فى الشمس المحرقة ، وقذف بالدولارين فوق بساطى ، وعلى أية حال ، فانه سرعان ما استعاد اعتدال مزاجه ، وكما أظهرت الأحداث اللاحقة ، فاننى كنت على صواب ، فاذا لم يكن قد أجبر على دفع دينه ، فقد يستخف بى باعتبارى رجلا ساذجا (عبيطا) وقد يطمع فى المزيد . وان جاز التعبير ، فإن الولد محمد يحمل بين جنبيه لهبا من شعور غير شائع ، فحاجتى للتسامح والسخاء جعلته يلاحقنى بضميره السيئ وطبعه الخؤون ، وقد أعطى ما فى ضميره من سوء ، بعدا فلسفيا ، فهو يحسب كل دولار أنفقه ، واضعا فى اعتباره أن كل دولار أدخره (لا أنفقه) فى المدينة المنورة . سيتم إنفاقه تحت اشرافه فى مكة المكرمة لقاء تدبيره أمرى فيها .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر فى الرابع والعشرين من شهر يوليو غادرنا (السويقة) ، وتبادلنا جميعا الفكاهات المرحية ، واتخذنا اتجاهها شماليا شرقيا . وقد تعكر مزاج رفاقى لأنه عند غروب الشمس كان عمر أفندى هو الوحيد من بين المجموعة الذى اصر على تناول عشائه ، فجلس الباقون على الأرض مقطبين متذمرين ، فسمحت لهم باستهلاك ما لدى من اللاتاكيا Latakia وهى تبغ سمورى . وكلما رأيت مثل هذه المباراة المعروفة بين الأطفال الأشقياء ، تمارس حتى بين الرجال الشرقيين . فالولد محمد لفت نظرى بشكل خاص أن لحى الجمالة كانت الآن فى قبضة يده ، بمعنى أنهم الآن بعيدون عن قبيلتهم . قبيلة حرب . وسرعان ما افتعل سببا ليتعارك معهم فلمجرد أنهم لم يردوا على أحد أسئلته بسرعة حتى انهال عليهم بالسباب المقذع الذى جعلهم يمدون أيديهم فى اتجاهه مسيوقهم . وعلى أية حال ، فرغم هذا المسلك التهديدى ، فإن الفتى كان يعرف أنه يستطيع أن يتمادى كما يشاء دون خطر يحيق به ، فاستمر فى سبابه ، وكان وجه منصور يتم عن الغضب بشكل مضحك للغاية ، لدرجة أننى شعرت أن تدخل سكون أمرا مسليا جدا . وأخيرا اختفى الجمالة ، وعاقبونا بسبب الموقف الذى تعرضوا له عقابا مؤثرا . فقد كان الطريق يمتد على تل صخرى ويهبط فى واد حجرى ، وكانت الجمال تصعد وتهبط بحثا عن المرعى المعتاد ، فكانت تزل وتتعثر ، ونتيجة هذا فقد كنا

اما نترنح أو نهوى مرة كل ميل طوال الليل • وعبثا طلب الولد محمد - الذى أصبح خائفا الآن - العون من الجمالة بملء حنجرتة قائلا : « أين هؤلاء اليوم ، أين الثيران أولاد الثيران ، أين المتسولون ؟ أين مقطوعو الجذور ؟ أين الغرباء (الأجانب) أين أولاد حرب ؟ • • • حقا لأعذبهم عذاب الزيت • • • انهم مناجم العار ، انهم أغبياء » ونظر الذين يشاركون الجمالة فى طابعهم البدوى الى الفتى بكراهية وازدراء ، وتمتموا قائلين : « بالله • • • بالله وبالله ! يا ولد ، اننا سوف نجلدك ككلب الصيد ، عندما نمسك بك فى الصحراء » • وطلب كل رفاقنا من الولد محمد أن يكف ، لكن انفعالاته قد طغت تماما على حذره ، فعبر عن نفسه بتعبير عربى تقليدى ، وبلهجة حجازية ، حتى اننى لم أكن راغبا فى اسكاته • وبعد وصولنا للمدينة (المنورة) ببضعة أيام حذر الشيخ حامد الولد محمد بجدية ألا يتمادى مرة أخرى هذا التمادى الخطير لأن بنى حرب مشهورون بأنهم يطلقون النار على من يتجرأ عليهم حتى ان وصفهم وصفا معتدلا بقوله « يا حمير » أو يطعنونه بالخناجر • وفى هدوء المدينة أصغى الولد محمد بقلق وندم للكلمات صديقه ، كالرجل المعتدل الذى يخاف عند الخطر ، ويجرأ عند السكر • لقد كانت النتيجة المباشرة لثمنائمه أن شقذوفى المكسور ، قد تحطم تماما ، وأمضيت معه الساعات المظلمة نحط بشكل غير مريح - كطائرين ، على بقايا الشقذوف •

لقد أشرقت الشمس صبيحة الخامس والعشرين من شهر يوليو ، قبل أن أتخلص من ارهاق هذه الليلة ، تماما • وكان كل من حولى يحشون جمالهم على المسير رغم الأرض الصخرية ، ولم يكن أحد لينيس بمنى شقة مع جاره • وكان من الطبيعى أن أسأل : « أئمة لصوص ؟ » فأجاب الولد محمد : « لا ، انهم يسبرون بأعينهم ، فسوف يرون منازلهم حالا » ، وبسرعة اجتزنا وادى العقيق al-Akik الذى وصفه الشعراء العرب وصفا جميلا •

لقد كان الوادى « جافا كغبار الصيف » وكانت « أشجاره الجميلة » (١٠) كالخضروات المحنطة (مومياوات أشجار) • وبعد نصف الساعة من مغادرة هذا الوادى « المبارك » وصلنا الى مدرجات طويلة فسيحة نحتت بحشونة فى بازلت بركانى أسود ، وتسمى المدرج Mudarraaj وتقع على الحرف الغربى لما يسمى « الحرتين Al-Harratayn » • وهى أرض مقدسة لأن

(١٠) من الواضح أنه يسخر - (المترجم)

الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد ذكرها بخير . ولما وصلنا للمقمة مررنا عبر مجاز (ممر ضيق) من الحجم البركانية (الالفا) الداكنة على جانبية منحدرات عميقة ، وبعد دقائق قليلة ظهرت لنا - فجأة - المدينة (المنورة) بكاملها .

فأوقفنا دوابنا ، وكأنما صدر أمر حاكم بذلك ، وترجل جميعنا تأسيسا بما كان يفعله الأتقياء من السلف ، وجلسنا منهكين جوعى كما كنا ، نمتع أعيننا بمنظر المدينة (المنورة) .

« يا الله ، هذا حرم نبيك ، اجعله لنا درءا من نار جهنم ، ونجنا من عذابك يوم القيامة . يا الله افتح لنا أبواب رحمتك ، وأدخلنا جنتك »
« اللهم صل على خاتم النبيين ، عدد نجوم السماوات وأمواج البحار ، ورمال الصحراء . يا ذا الجلال والإكرام صل عليه ما نبئت حقول القمح وما أثمرت النخيل » . ومرة أخرى يقولون : « عيش للأبد ، ياسيد الانبياء ، عيش فى ظل السعادة آناء الليل وأطراف النهار ، بينما ينوح الحمام كأم بلا ولد ، وبينما الرياح الغربية تهب كالنساء على تلال نجد ، ويتلقى الضوء فى سماء الحجاز » .

بمثل هذا الوجد الشعري الذى أحاطنى من كل جانب يتجلى مدى اصطباغ لغة العرب بالخيال العميق ، بسبب عاطفتهم الدينية الجياشة . لقد فهمت الآن المعنى الكامل للجملات التى يرددوها المسلم : « وعندما تقع عيننا الحاج على تخيل المدينة (المنورة) ، دعه يرفع صوته ويصلى ويسلم على النبي (صلى الله عليه وسلم) أفضل صلاة وأزكى تسليم » . وبشكل عام ، فإنه باستثناء الحقول والبساتين حول المدينة المنورة ، لم يكن هناك ما يلفت النظر بعد المناطق المقفرة التى مررنا بها . ولم يكن ممكنا ألا أتغلغل فى مشاعر رفاقي ، وفى حقيقة الأمر فاذنى أعتقد أن حماسي وتعاطفى مع مشهد المدينة المنورة قد ارتفع بقدر حماسهم وتعاطفهم لبضع دقائق . الا أننا بعد أن ركبنا دوابنا مرة أخرى ، استعدنا رباطة جأشنا . ورسمت مخططا مبدئيا للمدينة (المنورة) (صورة على البعد) ، ووضعت أسئلة عن المباني المهمة . وخصصت الفصول التالية لما جمعته من معلومات عن المدينة (المنورة) .

لقد كانت المسافة التى قطعناها هذه الليلة حوالى اثنين وعشرين ميلا فى اتجاهات تتراوح بين الشرق والشمال الشرقى . وقد وصلنا المدينة (المنورة) فى الخامس والعشرين من شهر يوليو ، وبذلك تكون رحلتنا قد استغرقت حوالى ثمانية أيام ، وأكثر قليلا من مائة وثلاثين ميلا . وهذه

الرحلة تنجز فى أربعة أيام بالجمال ، ويمكن لجمل قوى أن يتمها بدون
صعوبة فى نصف هذا الوقت (١٢) .

(١٢) باربوسا Barbosa قدر المسافة من ينبع الى المدينة (المنورة) بثلاثة
أيام ، وقدرها دربلوت D'Herbelot بثمانية وقدرها أوفنجتون Ovington
بسته ، والزمن المعتاد هو ما بين أربعة أيام وخمسة . والخطأ فى تقدير المسافة بين
الجغرافيين المحليين يرجع لاهمالهم الفرق بين السفر بجمل بطيء والسفر راكبين على
جمل سريع . وفيما يلى موجز للمحطات التى توقفنا فيها :

- ١ - من ينبع (١٨ يوليو) الى المسهل (شمال شرق) ١٦ ميلا .
- ٢ - من المسهل (١٩ يوليو) الى بير سعد (شمال وشرق) ٣٤ ميلا .
- ٣ - من بير سعد (٢٠ يوليو) الى الحمرا (شمال شرق) ١٤ ميلا .
- ٤ - من الحمرا (٢١ يوليو) الى بير عباس (شرق) ٢٤ ميلا .
- ٥ - من بير عباس (٢٣ يوليو) الى السويقة (شرق) ٢٢ ميلا .
- ٦ - من السويقة (٢٤ يوليو) الى المدينة (المنورة) ، الى الشمال ، والى الشرق
٢٢ ميلا .

المجموع بالميل الانجليزى : ١٣٢

رحلة بيرتون - ٢٢٧

اقراء فى هذه السلسلة

| | |
|-----------------------|------------------------------------|
| برتراند رسل | احلام الاعلام وقصص اخرى |
| ى . رادونسكايا | الالكترونيات والحياة الحديثة |
| الدس هكسلى | نقطة مقابل نقطة |
| ت . و . فريمان | الجغرافيا فى مائة عام |
| زايمونت وليامز | الثقافة والمجتمع |
| ر . ج . فوربس | تاريخ العلم والتكنولوجيا (٧ ج) |
| ليسترديل راى | الأرض الغامضة |
| والتر ألن | الرواية الانجليزية |
| لويس فارجاس | المرشد الى فن المسرح |
| فرانسوا دوماس | آلهة مصر |
| د . قدرى حفى وأخرون | الانسان المصرى على الشاشة |
| أولج فولكف | القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة |
| هاشم النحاس | الهوية القومية فى السيئما العربية |
| ديفيد وليام ماكدونالد | مجموعات النقشود |
| عزيز الشوان | الموسيقى - تعبير نغوى - ومنطق |
| د . محسن جاسم الموسوى | عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى |
| اشراف س . بى . كوكس | ديلان توماس |
| جون لويس | الانسان ذلك الكائن الفريد |
| بول لويس | الرواية الحديثة |
| د . عبد المعطى شعراوى | المسرح المصرى المعاصر |
| أنور المعداوى | على محمود طه |
| بيل شول وأدنبيت | القوة النفسية للأهرام |
| د . صفاء خلوصى | فن الترجمة |
| رالف ثى ماتلو | تولستوى |
| فيكتور برومبير | ستندال |

| | |
|---------------------------------------|--------------------------|
| رسائل واحاديث من المنفى | فيكتور هوجو |
| الجزء الثاني (محاورات في مضممار | فيرنر هيزنبرج |
| الفيزياء الذرية) | |
| الثراث الغامض ماركس والماركسيون | سيدنى هوك |
| فن الادب الروائى عند تولستوى | ف . ع . ادينكوف |
| ادب الاطفال | هادى نعمان الهيتى |
| احمد حسن الزيات | د . نعمة رحيم العزاوى |
| اعلام العرب فى الكيمياء | د . فاضل احمد الطائى |
| فكرة المسرح | فرنسيس فرجون |
| الجحيم | هنرى باربوس |
| صنع القرار السياسى | السيد عليه |
| التطور الحضارى للانسان | جاكوب براونوفسكى |
| هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال | د . روجر ستروجان |
| تربية الدواجن | كاتى ثير |
| الموتى وعالمهم فى مصر القديمة | ا . سبنسر |
| النحل والطب | د . ناعوم بيتروفيتش |
| سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى | جوزيف داهموس |
| سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء | |
| مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤ | د . لينوار تشامبرز رايت |
| كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة | د . جون شندلر |
| الصحافة | بيير الير |
| اثر الكوميديا الالهية اداقتى فى الفن | الدكتور غيريال وهبه |
| التشكيلى | |
| الادب الروسى قبل الثورة البلشفية | |
| وبعدها | د . رمسيس عوض |
| حركة عدم الانحياز فى عالم متغير | د . محمد نعمان جلال |
| الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج) | فرانكلين ل . باومر |
| الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى | شوكت الربيعى |
| ١٨٨٥ - ١٩٨٥ | د . محيى الدين احمد حسين |
| التنشئة الاسرية والابناء الصغار | |

- نظريات الفيلم الكبرى
مختارات من الأدب القصصى
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟
حرب الفضاء
ادارة الصراعات الدولية
الميكروكمبيوتر
مختارات من الأدب اليابانى
- الفكر الأوروبى الحديث ج٢
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
كتاية السيناريو للسيتما
الزمن وقياسه
أجهزة تكيف الهواء
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصفاة فى مصر الاسلامية
العلم والطلاب والمدارس
- الشارع المصرى والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائى
التخطيط السياحى
البذور الكونية
- دراما الشاشة (٢ ج)
الهيرويين والايدز
نجيب محفوظ على الشاشة
صور افريقية
- تأليف : ج . دابلى اندرو
جوزيف كونراد
د . جوهان دروشن
طائفة من العلماء الأمريكيين
د . السيد عليوة
د . مصطفى عنانى
مجموعة من الكتاب اليابانيين
القدماء والحديثين
فرانكلين ل . باومر
جابريل باير
انطونى دى كرسبى
دوايت ســــوين
زافيلسكى ف . س
ابراهيم القرضاوى
بيتر زداى
جوزيف داهموس
س . م بورا
د . عاصم محمد رزق
رونالد د . سمپسون
وتورمان د . اندرسون
د . أنور عبد الملك
والت روستو
فريد . هيس
جون يور كهارت
آلان كاسبر
سامى عبد المعطى
فريد هويل
ثندرا وبكراماسينخ
حسين حلمى المهندس
روى روبرتسون
هاشم النحاس
دوركاس ماكلينبوك

الكمبيوتر فى مجالات الحياة
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء
الهندسة الوراثية
تربية أسماك الزينة
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)

الفكر التاريخى عند الاغريق
قضايا وملاحق الفن التشكلى
التغذية فى البلدان النامية
بداية بلا نهاية
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
حوار حول النظامين الرئيسيين
الكون

الارهاب

اخناتون

القبيلة الثالثة عشرة

التوافق النفسى

الدليل الببليوجرافى

لغة الصورة

الثورة الاصلاحية فى اليابان

العالم الثالث غدا

الانقراض الكبير

تاريخ النفوذ

التحليل والتوزيع الاوركستراالى

الشاهنامة (٢ ج)

الحياة الكريمة (٢ ج)

كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠

قيام الدولة العثمانية

د . محمود سرى طه
بيتر لورى
بوريس فيدروفيتش سيرجيف
ويليام بينز
ديفيد الدرتون
جمعها : جون ر . بورر
وميلتون جولد ينجر
أرنولد توينبى
د . صالح رضا
م . ه . كننج وآخرون
جورج جاموف
د . السيد طه أبو سديدة
جاليليو جاليليه
أريك موريس ، آلان هو
سيريل السديد
آرثر كيسلر
توماس ا . هاريس
مجموعة من الباحثين
روى أرمز
ناجى متشيو
بول هاريسون
ميكائيل ألبى ، جيمس لفلوك
فيكتور مورجان
اعداد محمد كمال اسماعيل
الفردوسى الطوسى
بيرتون بورتر
جاك كرابس جونيور
محمد فؤاد ، كوبريلى

عن النقد السينمائي الأمريكي

ترانيم زرادشت

السينما العربية

دليل تنظيم المتاحف

سقوط المطر وقصص أخرى

ادوارد مري

اختيار / د. فيليب عطية

اعداد / موني براج وآخرون

آدامز فيليب

نادين جوديمر

جماليات فن الاخراج

زيجموت هبتر

التاريخ من شتى جوانبه (ثلاثة أجزاء) ستيفن أوزمنت

جوناثان ريلي سميث

توني بار

محمد فؤاد كوبريلي

بول كولز

الكنائس القبطية القديمة في مصر (جزآن الفريد ج. بتلر

الحاج يونس المصري

فانس بكارد

اختيار / د. رفيق الصبان

بيرتون بورتو

بيتر نيكو للذر

برتراند راصل

تأليف / بينارد دوج

ريتشارد شاخت

ناصر خسرو علوى

نقتالى لويس

كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر جاك كرابس جودينور

هربرت شيلر

اختيار / صبرى الفضل

الاتصال والهيمنة الثقافية

مختارات من الأدب الآسيوية

الكاتب الحديث

كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج)

الشموس المتفجرة

مدخل الى علم اللغة

حديث النهر

من هم القتل

ماستريخت

ج . س . فريزر

اعداد / أحمد محمد الشنواني

اسحق عظيموف

لوتيو تود

ترجمة / سوريال عبد الملك

د . أبرار كريم الله

اعداد / محمد جابر الجزار

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٨٨٩٢/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 4121 — 6

هذه صفحة مفعمة بالحياة لأحوال مصر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسياسية في منتصف القرن التاسع عشر، يزيد من قيمتها أن كاتبها ليس بشخص عادي، وإنما رحالة عالم طبقت شهرته الآفاق هو الأيرلندي ريتشارد بيرتون الذي زار مصر في غضون سنة ١٨٥٣، أم في أواخر عهد عباس باشا الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) وكانت مصر يومئذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة كان لها أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية..

وفي الجزء الأول من الرحلة يصف بيرتون وصوله إلى مصر عن طريق الاسكندرية ثم إقامته في القاهرة والاحتفال بشهر رمضان هناك ثم رحلته إلى السويس في طريقه إلى زيارة الجزيرة العربية.....